٢٠٠٢

مكتبة نوبل

إمره كيرتس

لا مصير

ترجمة: ثائر صالح

لا مصير

مكتبة نوبل

Author: Imre Kertész	اسم المؤلف : إمره كرتيس
Title : Sorstalanság	عنوان الكتاب : لامصير
Translator: Thaier Saleh	المترجم : ثائر صالح
Al- Mada P.C.	الناشر : المدى
First Edition : 2005	الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٥
Arabic Copyright © Al- Mada	الحقوق العربية محفوظة

This title was supported
by the Hungarian Book Foundation in Hungary
www.hungarianbookfoundation.hu

Published by permission of Rowohlt.Berlin Verlag GmbH, Berlin
copyright © 1975 by Imre Kertész

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

٢٠٠٢
مكتبة نوبل

إمره كرتيس

لامصير

ترجمة: ثائر صالح

مقدمة المترجم

كتب كرتيس هذه الرواية خلال فترة تجاوزت العقد من السنين، وأنجزها في ١٩٧٣ لتصدر في العام ١٩٧٥، وهي باكورة أعماله. لم تحصل الرواية على اهتمام كبير في المجر، وبقي كرتيس يعد واحداً من الأسماء المغمورة في عالم الأدب رغم تنبه القليل من النقاد والكتاب إليه لغاية حصوله على جائزة نوبل للآداب في ١٠/١٠/٢٠٠٢ ، وقد لخص المؤلف تلك الفترة وقيّمها في روايته الثالثة - الكافكوية الطابع - وبشكل خاص في عنوانها "الفشل" التي صدرت في ١٩٨٨ بعد انقطاع طويل عن النشر، فقد صدرت روايته الثانية "مقتفي الأثر" في ١٩٧٧ .

لم تترجم أعماله إلا في التسعينيات (رغم صدور الترجمة السويدية لرواية لا مصير "مبكراً" في ١٩٨٥ تحت عنوان "خطوة خطوة"، وهي أول ترجمة باللغات الأجنبية على ما يبدو)، وبعد ترجمتها إلى الألمانية، لاقت أعماله اهتماماً واسعاً في ألمانيا بالذات حيث تدور أحداث بعض أعماله - وحيث أمضى كرتيس قرابة عام في معسكرات الاعتقال. وقد تناولتُ أسباب هذا الاهتمام الألماني الفائق بكرتيس في مقالة نشرت في صحيفة "الحياة" في ١٦/١٠/٢٠٠٢، والتي تتلخص في أن الهولوكاوست هو العنصر الجوهري لكل أعمال كرتيس، وهنا يكمن

الجـواب على كل التـسـاؤلات. فـقـد قـارب كـرتيس الوعي الألماني للهـولوكـاوست من زاوية جـديدة غـيـر مـعـتـادة، أثارت فـيـهم الحـيـرة وأربكتـهم بصفته شاهداً على آوشفيتس وبوخنفالد. مقاربته للمحرقة بسيطة، إنسانية، لا يوجد فيها ما هو شيطاني أو عجائبي على النحو الذي تصوره هوليود: فهو يعرض الحياة البشعة في معسكرات الاعتقال بشكلها الطبيعي، غير مفتعلة، مجردة من المبالغة. وقد أثار ذلك في بعض الألمان الذين اعتادوا الصورة النمطية لدورهم في جريمة الإبادة هذه مشاعر مختلطة، فبعضهم لم يصدق، وافتقد الآخر - رغم أنهم كانوا قلة - النبرة التي تدين الألمان في كتاباته، لماذا لا يعنفهم ويوبخهم، شأنه شأن الجميع!.

فالألمان حساسون تجاه قضية كالهولوكاوست. هكذا غُرز الأمر في وعيهم الجمعي بعد الحرب الثانية. قد يكون هذا سبب نجاح كرتيس في ألمانيا، فهو الصوت الآخر، الجديد، الذي لا يغذي عقدة الذنب بل ينزل بالمحرقة من السماء إلى الأرض. ولربما كانت رواياته الصوت الذي يعرض تجربة الهولوكاوست بصورة مختلفة عما هو معتاد منذ أكثر من نصف قرن. الهولوكاوست إذن قضية بالنسبة للألمان. إنها جزء من وعيهم وتأريخهم. لكن ماذا يعني كلُّ ذلك بالنسبة للمجريين؟ وهل للهولوكاوست عندهم نفس مكانته عند الألمان؟ أشك في ذلك. ولعل هذا هو سبب قلة الاكتراث الذي لاقاه كرتيس من قبل أبناء جلدته المجريين. يقول كرتيس إن سبب عدم اهتمام المجريين بالمحرقة وتجنبهم النظر إلى تأريخهم القريب، هو أن المجتمع المجري غير قادر الآن على تبني تأريخه بجرأة بموازاة تعامله مع الكم الكبير من المشاكل التي يتعين عليه تجاوزها الآن. هل ذلك صحيح؟ ربما.

الهولوكاوست كثقافة

قبل كل شيء، يتعين القول إن كرتيس هو تجسيد للبقاء. هذا المفهوم، البقاء، عصب العمل الأدبي لكرتيس بعد أن كان ملخص خبرته الحياتية من معسكرات الاعتقال حتى البقاء في ظل نظام راكوشي الشمولي قبل ١٩٥٦، والبقاء في ظل الدكتاتورية "اللينة" لكادار بعد ١٩٥٦ . يقول: " يحصل للإنسان في القرن العشرين شيء لم يحصل في تأريخه لحد الآن: اللغة الشمولية، أو كما يدعوه اورويل New speak، تتغلغل دون مقاومة في وعي الإنسان بمساعدة ديناميـة من جرعات محددة من العنف والخوف، وبذلك يعزل الإنسان نفسه بنفسه، يعزل نفسه عن حياته الداخلية. ويتماثل الإنسان درجة فدرجة مع الدور الذي يوزع أو يفرض عليه، رضي أم أبى، سواء أكان الدور ينسجم مع شخصيته أم لا. فوق ذلك يمنح القبول التام بهذا الدور الفرصة الوحيدة أمامه للبقاء. لكن ذلك هو طريقة لتدمير شخصيته بشكل كامل في نفس الوقت. وإذا نجح فعلاً في البقاء، ستستغرق استعادة القدرة على امتلاك اللغة الشخصية وقتاً طويلاً، امتلاك اللغة الوحيدة الصادقة الملائمة لكي يقص مأساته، ولربما يحصل أن يعي الإنسان، أن هذه المأساة غير قابلة للرواية" (من كتابته "اللغة المنفية" في صحيفة "الحياة والأدب" الأسبوعية المجرية - عدد ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٠). نفس هذه الفكرة، أي استحالة رواية المأساة، هي جوهر قصته "الراية الإنكليزية" (نشرت دار المدى ترجمتي لها).

الهولوكاوست بالنسبة لكرتيس أكثر من تجربة مريرة عاشها. إنها دوامة جهنمية، تكرر نفسها أحياناً. إنها صفة لانحطاط المجتمع البشري المعاصر وتغلب الوحشية البدائية الفجة على العقل. فهو يرى أن ما

حدث في البوسنة قبل أقل من عقد من السنين، إنما هو امتداد لما حدث في آوشفيتز. "نعيش امتدادات هذه الدوامة الجهنمية التي يعنيها الهولوكاوست. إذ لا يمكنني مراقبة البوسنة إلا كمرآة لسلسة الأحداث تلك. لا نملك أي ضمان بأن هذه الدوامة لن تتفتح مجدداً في أي مكان وزمان. قد تعد محاولة تحليل التناقضات الصربية - الكرواتية - البوسنية من قبلي غير جدية، فأنا لا أعرف جذور ذلك. لكن ما حدث لم يكن ضرورة بالتأكيد، كل الحرب عبثية... تمور انفعالات وكراهية مخيفة في كل منطقتنا، شرق أوروبا... ويظهر فشل الديمقراطيات الأوروبية الغربية هنا أيضاً، فهم لم يحاولوا التدخل، مثلما لم يحاولوا التدخل عندما استلب هتلر السلطة وبدأ عدوانه واحتلاله" كما قال في مقابلة أجريت معه في ١٩٩٦ .

الرواية

تدور حوادث رواية "لا مصير" في أواخر الحرب العالمية الثانية، حيث يؤخذ الفتى جورج كُفَش من شارع في أطراف بودابشت إلى معسكر اعتقال ألماني هو آوشفيتس (ويقع اليوم في جنوب بولندا قرب مدينة كراكوف) ثم إلى بوخنفالد ومنها إلى معسكر صغير قربه. وكان اليهود قد أخذوا للقيام بأعمال السخرة في المعامل وعلى جبهات القتال (خاصة في منطقة نهر الدون على الجبهة الشرقية حيث عانى الجيش المجري من خسارة كبيرة زادت عن نصف مليون شخص)، وهذا كان هو العمل الإجباري (خدمة العمل حسب الترجمة الحرفية لتمييزها عن الخدمة العسكرية). علاوة على ذلك جمع النازيون معارضتهم السياسية اليسارية (الشيوعيين

والاشتراكيين الديمقراطيين) وكذلك أسرى الحرب وأبطال انتفاضة وارشو، وبعض شرائح المجتمع- انطلاقاً من فكرة عرقية فاشية- كاليهود والغجر والمثليين وأصحاب العاهات في Konzentrationslager معسكرات اعتقال (معسكرات تجميع) وأجبروهم على العمل في المصانع والمزارع في ظل ظروف لا إنسانية، حيث قضى كثير منهم وهو ما جرت العادة على تسميته بالهولوكاوست، وهي كلمة يونانية الأصل تعني الأضحية أو القربان المقدم حرقاً، وبالعبرية شوا أي المحرقة، في إشارة إلى محرقة الجثث (وتسمى باللاتينية كريماتوريوم)، وعادة حرق جثث الموتى منتشرة في أوروبا والهند وغيرها من مناطق العالم إلى اليوم.

تتحدث الرواية عن حياة المعسكرات وعلاقة المعتقلين ببعض، وبالدرجة الأولى عن اكتشاف المعتقل اليافع العالم المحيط به ومحاولة فهم ما يدور حوله ووضع تصوراته الخاصة به عن هذه البيئة غير الطبيعية. وهي في مجملها تقدم لنا صورة ذاتية واقعية وليست انتقائية أو نمطية كما جرت العادة على تقديم صورة معسكرات الاعتقال. كما دون كرتيس في هذه الرواية أفكاره الأساسية التي نجد أصداءها تتردد في أعماله اللاحقة. إنَّ العلاقة بين الحرية والقدر- المصير هي النقطة المحورية للرواية. إذ يقول: "لو كان هناك مصير، فالحرية غير ممكنة؛ لكن لو ... كانت هناك حرية، فلا يوجد مصير، أي .. أننا نحن أنفسنا المصير ذاته". الفكرة الثانية الذي يؤكد عليها الكاتب هي مبدأ الاستمرارية، ويتجلى عنده في استحالة البدء بحياة جديدة، فالإنسان لا يبدأ حياة جديدة بل يواصل حياته القديمة رغم المنعطفات، إذ لا يمكن محو الذاكرة كما تمسح ملفات القرص الصلب في جهاز الكومبيوتر

لتُحمِّلَ معلومات جديدة، فهو يقول " لا أستطيع بدء حياة جديدة إلا إذا ولدت من جديد". وتنال هذه الفكرة تعبيرها في حديثه عن قيام الإنسان بخطو خطواته الخاصة به، وبذلك تتألف حياته من عدد كبير من الخطوات الصغيرة أو الكبيرة المتتالية، التي تتبع بعضها البعض. وعكس عنوان الرواية في الترجمة السويدية الأولى هذا الحال، ولربما اختاره المترجم لصعوبة العثور على عنوان ملائم يقابل التعبير المجري الأصلي (كما هو الحال في العربية أيضاً). ثم يستغرب كُفَش العائد من معسكر الاعتقال لتوه من تعبير "فظائع معسكر الاعتقال"، ويخبر محدثيه وسط دهشة متبادلة أنه لا يعتبر ما رأى فظائع، ويرفض تشبيه المعسكرات بجهنم. فالذي رآه كان طبيعياً في ظل ظروف المعسكرات بحسب رأيه، وبذلك فهو يرفض تحويل المعسكرات إلى أسطورة، ويرفض كذلك تحويل الهولوكاوست إلى بضاعة (كما ورد في معرض نقده لفيلم سبيلبرغ "لائحة شندلر").

والرواية مكتوبة بلغة مميزة، غير معتادة شديدة التعقيد، تسير في عدة مستويات حسب الشخوص وتغير الأحداث. كلماتها منتقاة بعناية، جملها مبنية بتأنٍ محسوب يهدف إلى عكس الحالة النفسية لبطل الرواية في مختلف المنعطفات، فتعقيد الجملة يتزايد مع اشتداد التوتر وتعاظم الضغط. يستعمل الكاتب غالباً صيغة المتحدث حتى في حالة مخاطبة بطل الرواية من قبل الآخرين أو استفسارهم منه، وهو أسلوب لا يستعمل عادة بهذه الكثافة وإن كان موجوداً في اللغة المجرية. مفردات اللغة المستعملة هي مفردات اعتيادية، ويندر أن تعثر على صياغة أدبية وصور شاعرية إلا في مواقع قليلة في مجمل العمل الذي غلب عليه النص السردي والحوار الفردي (المونولوج). لكن ترى هل يمكن الحديث

عن مشروعية الصور الشاعرية الأدبية في عمل يتحدث عن معسكرات الاعتقال؟ اللغة عنده إذن غاية ووسيلة في نفس الوقت، لكن لنقرأ ما قاله كرتيس بهذا الصدد في مقابلة أجريت معه في ١٩٩٦:

"سؤال: هل توجد تقاليد في الأدب المجري للغة اللا مصير، والتي اغترفت منها بوعي أو بدونه؟

كرتيس: لا توجد. هذا الكتاب وهذه اللغة ما كانا ليظهرا لولا "كانديد" فولتير و"لا مبالاة" كامو. ثم إنني كنت أرجع دوماً إلى "مدرسة المشاعر" لفلوبير، والذي يبدو بعيداً جداً عن روايتي، لكنه برأيي أول عمل حديث يتعامل مع العالم المعاصر في إطار تكوين شديد الصرامة، وهذا الإطار يتفاعل نحو القمة في الختام، وهناك يعطي ثماره التي يصعب تصديقها. وأنا أيضاً طمحت إلى شيء مشابه. أثّر فيّ كذلك كتاب دوستويفسكي "مذكرات من بيت الموتى". أما من كافكا فقد قرأت المجلد الأول في أواخر الستينيات. لكن الوثائق المختلفة هي التي أثرت فيّ بالدرجة الأولى، يوميات شبير، ما دوّن من تجارب النازيين الشخصية، وهو قليل جداً وكذلك ما كان بوسعنا الحصول عليه، مثلا ملخصات وثائق محاكمات آوشفيتس التي جرت في فرانكفورت، أي كما نشرتها الصحافة المجرية وقتها بعد المرور من خلال مقص الرقابة. لغة اللا مصير ليست لغة الكاتب الراغب في الرواية: كان من المطلوب خلق وضع خاص للغة، والشخصية الروائية لا تنطق إلا في هذا الوضع الخاص عندما يعتصر العنصر الخارجي المُلزم الكلمات منها وينتزعها".

ثائر صالح

بودابشت ١٥ آذار ٢٠٠٤

١

لم أذهب اليوم إلى المدرسة. بالأحرى ذهبت كي أطلب من المدرس المسؤول السماح لي بالتغيب. سلمته كذلك رسالة من أبي يطلب فيها إعفائي اليوم "لأسباب عائلية". سألني ما هذه الأسباب العائلية. أجبته انهم استدعوا أبي للعمل الإجباري؛ عندئذ كف عن الإلحاح في السؤال.

لم أذهب إلى البيت بل هرعت إلى المتجر. أبي قال لي انهم ينتظرونني هناك. حتى انه أضاف إلى ذلك بأن أستعجل، فقد يحتاجني في شيء. في الواقع طلب من المدرس إعفائي لهذا السبب. أو لكي "يراني إلى جانبه في هذا اليوم الأخير، قبل أن يُنتزع من بيته": لأنه قال ذلك أيضاً، لكن في مناسبة أُخرى. قال هذا لأمي، كما أذكر، عندما هاتفها في الصباح. فاليوم خميس، وفي هذا اليوم وكذلك في الآحاد اعتدت أن أقضي فترة ما بعد الظهر عند أمي. لكن أبي أبلغها: - لا يسعني اليوم إرسال جوركا[1] إليك-، هذا كان تبريره عندئذ. لربما حدث الأمر على هذا النحو، أو لا. في هذا الصباح كنت نعساً بعض الشيء بسبب الغارة الليلية، أو لربما تخونني ذاكرتي. لكنني متأكد أنه قال هذا. إن لم يكن لأمي، فقد قالها لشخصٍ ثانٍ.

تبادلت بضع كلمات مع أمي أنا أيضاً، لكني لم أعد أذكر عن أي

شيء. أعتقد أنها استاءت لأنني كنت مضطراً إلى اختصار الحديث معها بسبب وجود أبي: في النتيجة، علي أن أراعي مزاجه هذا اليوم. حتى زوجة أبي وجهت إلي بضع كلمات حميمة على انفراد في المدخل عندما كنت أتهيأ لمغادرة البيت. قالت إنها في هذا اليوم الحزين تتطلع إلى "الاعتماد على تصرفاتي المناسبة". لم أعرف ما يقال في مثل هذا الموقف، ولم أفتح فمي. لكنها ربما فسرت صمتي بشكل آخر، لأنها أكملت حديثها على نحوٍ من قبيل أنها لم تشأ بنصيحتها هذه المساس بحساسيتي، فهي تعلم أن ليس ثمة داعٍ لذلك. فهي لا تشك في قدرتي بمفردي على تقدير حجم المصيبة التي طالتنا، لأنني لم أعد طفلاً صغيراً بسنواتي الخمس عشرة، حسب تعبيرها. هززت رأسي. ورأيت أنها تكتفي بذلك. حركت يدها باتجاهي في حركة خشيت أنها لربما تود احتضاني. لكنها لم تفعل ذلك في آخر الأمر، واكتفت بتنهدة عميقة وبحسرة طويلة مرتعشة. لاحظت أن عينيها تصارعان الدمع. كان الأمر مزعجاً. بعد ذلك كان بإمكاني المغادرة.

قطعت الطريق بين المدرسة ومتجرنا سيراً على الأقدام. كان الصباح رائقاً، دافئاً على غير العادة في ذلك الربيع المبكر. أوشكت على فتح أزرار المعطف، لكني لم أفعل: قد تدفع الريح الخفيفة طرف المعطف فيغطي نجمتي الصفراء، وهذا أمرٌ يتعارض والأنظمة. يتعين علي الآن التعامل مع بعض الأشياء باحتراسٍ أكبر. يقع قبو الخشب الذي نملك في الجوار، في شارعٍ فرعي. يقودك سلم شديد الانحدار إلى العتمة. وجدت أبي وزوجة أبي في المكتب: وهو قفصٌ زجاجي مضاء مثل أحواض السمك، يقع في أسفل السلم مباشرة. كان السيد شُتُو معهما، وقد

عرفته عندما كان يعمل محاسباً لدينا ذات يوم، وكمشرف على مخزننا الآخر للأخشاب، المكشوف، والذي اشتراه منا. على الأقل هذا ما نقول. فالسيد شُتُو لا يضع على صدره نجمة صفراء لأن حاله سليم تماماً من ناحية العرق، وما جرى كان حيلة تجارية على ما أعرف، حتى يسهر على حماية أملاكنا هناك، وحتى لا نتنازل عن إيراداتنا بشكلٍ كامل.

حييته بشكل يختلف، عن السابق، فقد ارتقى علينا بشكل من الأشكال؛ وحتى أبي وزوجته عاملاه بعناية أكبر. أما هو فقد أكثر من تشبثه بتسمية أبي "السيد المدير"، وزوجة أبي "سيدتي الجليلة الغالية" ولا يفوّت أبداً فرصة تقبيل يدها، كأنَّ شيئاً لم يتغير. واستقبلني أنا أيضاً بصوته المرح القديم. حتى إنه لم ينتبه إلى نجمتي الصفراء. بعد ذلك وقفت حيث كنت، عند الباب، واستمروا، هم، في حديثهم الذي قطعه وصولي. رأيت أنني قطعت عليهم مباحثاتهم. لم أفقه عم كانوا يتحدثون في البدء. أغلقت عيني للحظة، لأنها انبهرت بعد قوة ضوء الشمس في الخارج. خلال ذلك قال أبي شيئاً، ففتحت عيني لتتقافز فوراً أقراص حمراء مصفرة كالشموس مثل بثور تتفجر حول وجه السيد شُتُو المدور الأسمر - بشواربه الصغيرة الضيقة وأسنانه الأمامية العريضة البيض المتباعدة. الجملة التالية قالها أبي أيضاً، ذكر فيها شيئاً عن "بضاعة"، "من الأفضل أن يأخذها" السيد شُتُو "معه على الفور". لم يعترض السيد شُتُو؛ بهذا أخرج أبي من درج المكتب طرداً صغيراً ملفوفاً بورق الحرير مربوطاً بخيط. عندها فقط أيقنت ما هي هذه البضاعة في الواقع، فقد عرفت البضاعة من سمكها القليل: كانت فيها العلبة. في العلبة توجد مجوهراتنا الثمينة وبعض الأشياء. أعتقد أنهم أسموها

"بضاعة" بسببي، حتى لا أعرف محتوياتها. أخفاها السيد شُتُو في قاع حقيبة أوراقه على الفور. بعد ذلك تطور بينهما بعض النقاش: فقد أخرج السيد شُتُو قلم حبر بغية تحرير "وصل استلام" لقاء "البضاعة" في كل الأحوال. أصرّ كثيراً رغم أن أبي قال له "لا تكن ساذجاً" وإنه "لا توجد حاجة إلى شيء من هذا القبيل بيننا". لاحظت أن السيد شُتُو ارتاح لذلك. حتى إنه قال: - أعلم أنك تأتمنني أيها السيد المدير؛ لكن لكل شيء في الحياة العملية أصوله وحاله. واستنجد بزوجة أبي: - أليس كذلك سيدتي الجليلة؟ - لكنها، وبابتسامة متعبة على شفتيها، قالت له شيئاً من قبيل أنها تترك للرجال أمر ترتيب هذه القضية بالشكل الذي يرونه مناسباً.

بدأت أضجر من النقاش قبل أن يضع قلم الحبر؛ عندئذ بدأوا التداول في شؤون هذا المخزن، ما يفعلون بالألواح الكثيرة فيه. سمعت أبي كما لو قال بضرورة الإسراع قبل أن "تضع السلطات يدها على المتجر"، وطلب من السيد شُتُو أن يكون في عون زوجة أبي في هذا الأمر من خلال خبرته ومعارفه التجارية. اتجه السيد شُتُو إلى زوجة أبي وأعلن على الفور: - من الطبيعي، سيدتي الجليلة. في كل الأحوال سنكون على صلة دائمة بسبب الحسابات-. أعتقد أنه كان يقصد بذلك مخزن الخشب الموجود في عهدته. لم يستغرق الأمر طويلاً بعد ذلك فبدأوا بتوديع بعضهم البعض. هز يد أبي طويلاً بوجه حزين. اعتقد خلال ذلك أن "لا فائدة من الكلام الكثير في مثل هذه اللحظة"، لذلك يود قول كلمة واحدة لتوديع أبي، هي هذه: - إلى اللقاء عاجلاً أيها السيد المدير. أجابه أبي مع ابتسامة صغيرة: - نأمل ذلك، سيد شُتُو-. في

نفس الوقت فتحت زوجة أبي حقيبتها، واستلت منها منديلاً وضعته مباشرة على عينيها. انطلقت من حنجرتها أصوات غريبة. ساد صمت، وأضحى الموقف شديد الحرج، إذ شعرت بالحاجة إلى فعل شيء ما. لكن الموقف حصل بغتة، فلم يخطر في خلدي أي شيء مفيد. رأيت أن الأمر يحرج السيد شُتُو أيضاً: - لكن سيدتي الجليلة - قال - لا يصح هذا. بجد لا يصح-. بدا مرتاعاً بعض الشيء. انحنى، وضع شفتيه على يد زوجة أبي ليقوم بتقبيلها كالمعتاد. بعدها استعجل نحو الباب: لم يتسن لي وقت للتنحي عن طريقه في اندفاعه نحو الباب. حتى إنه نسي توديعي. سمعنا الرنين الذي خلفته خطواته الثقيلة على ألواح درجات السلم لبعض الوقت بعد أن خرج.

بعد برهة من الصمت، قال أبي: - إذن، خف عنّا هذا الحمل أيضاً-. فقالت زوجة أبي، بصوتٍ متأثرٍ قليلاً، متسائلة، ألم يكن من الأفضل مع ذلك قبول وصل الاستلام من السيد شُتُو. لكن أبي أجابها، لا توجد لمثل هذا الوصل أية "قيمة عملية"، زيادة على ذلك، فإن إخفاءه أكثر خطورة، من إخفاء العلبة ذاتها. وشرح لها: يجب وضع رهاننا كله "على ورقة واحدة"، وهي أننا نثق بالسيد شُتُو لدرجة كاملة، انطلاقاً من أنه لا يوجد في يدنا الآن أي حل آخر. بهذا صمتت زوجة أبي، لكنها علقت بعد ذلك بأن أبي قد يكون محقاً، لكنها مع ذلك ستشعر بطمأنينة أكبر مع وجود "وصل استلام بيدها". لكنها لم تكن قادرة على تفسير السبب بشكل ملائم. عندها استعجلها أبي للبدء بالعمل الذي ينتظرهما، لأن الوقت يمر كما قال. أراد تسليمها دفاتر الحسابات، حتى يمكنها أن تجد فيها ما تبحث بدون مساعدته، وحتى لا يتوقف العمل في

المتجر أثناء وجوده في العمل الإجباري. خلال ذلك تبادل معي بضع كلمات. سألني، هل وافقوا على تغيبي من المدرسة بسهولة، ونحو ذلك. في الختام أشار لي أن أجلس وأشغل نفسي بهدوء حتى ينجز وزوجة أبي عملهما في دفاتر الحسابات.

لكن ذلك استغرق وقتاً طويلاً. حاولت أن أجلس بصبر لبعض الوقت، وجهدت في التفكير بأبي، بالتحديد في أنه سيذهب غداً، ومن المحتمل أنني لن أراه قبل انقضاء زمن طويل؛ لكني تعبت من التفكير في ذلك بعد برهة، وبما أنني لم أستطع القيام بشيء لمساعدة أبي، بدأ الضجر يتسلل إلي. أتعبني الجلوس كثيراً، ولكي يحدث تغيير ما، نهضت وشربت جرعة ماء من الصنبور. لم يقولا شيئاً. فيما بعد ذهبت مرة بين الألواح لأتبول. عندما رجعت غسلت يدي تحت الصنبور الصدئ فوق الحوض الخزفي، وأخرجت من حقيبة المدرسة شطيرة وأكلتها، وعند انتهائي من ذلك شربت جرعة ماء أخرى. لم يقولا شيئاً. جلست في مكاني. بعدها ضجرت بشدة، ولزمن طويل.

عندما خرجنا إلى الشارع، كان النهار قد انتصف. انبهرت عيني مجدداً، هذه المرة لأن النور آذاها. جهد أبي طويلاً في غلق القفلين الحديديين، بحيث صرت إلى الاعتقاد بتصنّعه ذلك. بعدها أعطى زوجة أبي المفاتيح، لأنه لن يحتاجها بعد الآن. أعرف ذلك لأنه قالها. فتحت زوجة أبي حقيبتها، توجستُ من أنها ستخرج المنديل مرة أُخرى، لكنها وضعت فيها المفاتيح فحسب. انطلقنا إلى طريقنا في عجالة. ظننت أننا نقصد البيت في البداية؛ لكننا ذهبنا للتسوق أولاً. أعدّت زوجة أبي قائمة طويلة بالأغراض التي يحتاجها أبي في العمل الإجباري. اقتنت

بالأمس جزءاً منها. وكان علينا شراء الباقي الآن. شعرت ببعض الإحراج لذهابي معهم، هكذا، الثلاثة، وعلى ثلاثتنا نجمات صفراء. لو كنت وحدي لكان الأمر مدعاة للتسلية. لكنه بالمقابل يكاد يكون مزعجاً وأنا في صحبتهم. ليس بمقدوري تفسير سبب ذلك. لكني ما عدت أهتم للأمر لاحقاً. كان هناك أناس كثيرون في المتاجر، عدا ذلك المتجر الذي ابتعنا منه حقيبة الظهر: هنا كنا الزبائن الوحيدين. تشبع الهواء تماماً برائحة الكتّان المشمّع التي تزكم الأنف. كان البائع العجوز الشاحب بطقم أسنانه اللامع وكُم حماية الكوع على إحدى يديه، وكذلك زوجته البدينة، لطيفين جداً معنا. كوّما أمامنا على طاولة العرض البضاعة المتنوعة. انتبهت إلى أن صاحب المتجر ينادي السيدة العجوز "يا بنية" ويرسلها دوما لجلب البضائع. وأنا أعرف المتجر، فهو يقع قريباً من بيتنا، لكني لم أدخل إليه قبل اليوم. وهو أشبه بمتجر للأدوات الرياضية، لكنهم يعرضون فيه أشياء أُخرى أيضاً للبيع. في الآونة الأخيرة أصبح بالإمكان شراء نجمة صفراء من صنعهم كذلك، إذ هناك شحة في القماش الأصفر الآن. (تدبرت زوجة أبي حاجتنا منها في الوقت المناسب). وإن صدقت رؤيتي فإن اختراعهم يكمن في شد القماش على قطعة كرتون بشكل جيد، بذلك تغدو أجمل، وبالطبع لن تكون أطراف النجمة قد خيطت بطريقة تدعو للضحك كما هو الحال في بعض المنتجات البيتية. انتبهت إلى أن صدريهما يزهيان بصناعتهم هم أنفسهم. وبدا كما لو أنهما ارتديا النجمتين لتحفيز المشترين على شرائها.

لكن السيدة العجوز جاءت بالبضاعة. قبل ذلك سأل صاحب المتجر: أنسمح له بسؤال، إن كان الشراء للتهيؤ إلى العمل الإجباري؟ زوجة أبي

كانت من قال نعم. هز الشيخ رأسه بحزن. حتى إنه رفع يديه الشائختين المبقعتين بحركة تعبر عن الأسى لتنهداً على الطاولة أمامه. عندئذ قالت زوجة أبي إننا بحاجة إلى حقيبة ظهر، وهل يوجد عندهم منها. تردد العجوز قليلاً، ثم قال: - ستكون هناك حقيبة لحضراتكم-. صاح لزوجته: "يا بنية، أحضري للسيد واحدة من المخزن!". كانت حقيبة الظهر مناسبة على الفور. لكن صاحب المتجر أرسل زوجته لجلب بعض الأشياء الأخرى - لأنه كان يعتقد "يجب أن لا يحتاج أبي إلى شيء هناك، حيث يذهب". على العموم تحدث معنا بلباقة وتعاطف شديدين، وحاول على الدوام تجنب اضطراره استعمال تعبير "العمل الإجباري". عرض علينا الكثير من الأشياء المفيدة، علبة أكل تغلق غلقاً محكماً، سكين جيب فيها الكثير من الأدوات، حقيبة تشد على الجانب، وغير ذلك من الحاجيات التي طلب الحصول عليها "من هم في حال مشابه" كما قال. اقتنت زوجة أبي السكين لأبي. حتى إنها أعجبتني أنا. وبعد أن ابتعنا كل شيء، صاح صاحب المتجر لزوجته: "الحساب". عندها حشرت السيدة العجوز ذات الملابس السوداء نفسها بصعوبة بين منضدة عليها صندوق الحساب ومقعد عليه وسادة. رافقنا صاحب المتجر حتى الباب. هناك قال "ليحالفك الحظ"، ثم أضاف مخاطباً أبي بخصوصية منحنياً، وبصوت خافت: - كما نفكر فيه نحن: سيادتك وأنا.

أخيراً توجهنا إلى البيت. نسكن بالإيجار في بناية كبيرة، قرب الساحة، حيث توجد محطة للترام أيضاً. كنا نسير في الطابق عندما خطر ببال زوجة أبي أنها نسيت صرف بطاقة الخبز. كان علي أن أعود إلى الخباز. دلفت إلى المخبز بعد وقفة قصيرة في الصف. ذهبت في

البداية إلى الزوجة الشقراء عامرة النهود: هي التي قصت المربع المطلوب من بطاقة الخبز، بعدها ذهبت إلى الخباز الذي يعطي الخبز. لم يرد تحيتي، لأن كل المحلة كانت تعلم عنه عدم محبته لليهود. ولهذا أيضاً رمى عليّ خبزاً أقل وزنا ببضعة دراهم. وكنت سمعت أنه بهذه الطريقة يحصل على فائض من الحصص. وبطريقة ما، في تلك اللحظة فهمت من نظرته الغاضبة وحركته البارعة حقيقة تفكيره الذي لا يسمح له بمحبة اليهود: عندها يراوده هذا الشعور المزعج بأنه يغشهم. لكنه بذلك يفعل ما يوافق معتقده، وتحكم تصرفاته عدالة مبدأ ما، غير أن ذلك شيء آخر تماماً بالطبع - كما فهمت-.

أسرعت إلى البيت من المخبز، لأنني كنت جائعاً جداً، لذلك لم أتوقف للحديث مع أنّاماريا إلا لكلمة واحدة: فبينما كنت أتسلق درجات السلم كانت هي تتقافز إلى الأسفل. كانت تسكن في طابقنا عند آل شتاينر الذين تعودنا اللقاء بهم عند آل فلايشمان، وفي الآونة الأخيرة كل مساء. في الماضي لم نكن نهتم للجيرة: لكن تبين الآن أننا من ملة واحدة، وهذا ما يحبذ اللقاء في الأماسي لتبادل وجهات النظر في قضية التطلعات المشتركة. نحن الاثنين كنا نتحدث خلال ذلك عن أشياء أُخرى، وهكذا عرفت أن آل شتاينر في الحقيقة هما ليسا إلا عمها وعمتها: فوالداها مقبلان على الطلاق، لكنهما وبسبب عدم تمكنهما من الوصول إلى اتفاق حول ذلك، قررا أن تكون هنا وليس عند أحدهما. قبل ذلك كانت في معهد داخلي للأطفال، لذات السبب الذي كنت من أجله أنا أيضاً في المعهد سابقاً. وهي أيضاً في الرابعة عشرة، تقريباً. لها رقبة طويلة. وبدأ نهدها يبرز تحت نجمتها الصفراء. أرسلوها هي الأخرى

إلى المخبز. أرادت أيضاً أن تعرف: ألدي مانع في لعب الورق معها ومع الأختين بعد الظهر؟ تسكن هاتان الأختان في الطابق التالي، وقد عقدت أنّاماريا معهن صداقة، لكنى أعرفهن معرفة عابرة بعدما التقيت بهن في الممرات وفي ملجأ الغارات الجوية. تبدو الصغرى في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، والكبرى بسن أنّاماريا كما علمت منها. اعتدت أن أراها أحياناً عندما أكون في غرفتنا المطلة على الباحة الداخلية حين تأتي من بيتها مسرعة وتعود إليه في الممر المقابل. والتقيت بها لبضعة مرات وجهاً لوجه عند البوابة. خطر ببالي أنني سأتعرف إليها هكذا عن كثب: وكنت راغباً في ذلك. في تلك اللحظة خطر أبي ببالي، فقلت للبنت: لا أستطيع اليوم، لأنهم استدعوا أبي. عندها تذكرت على الفور أنها سمعت من عمها بقضية أبي. علقت: - بالطبع-. صمتنا برهة. ثم سألت: - وفي الغد؟ - لكنني قلت لها: - من الأفضل بعد غد-. وأضفت إلى ذلك على الفور: - ربما.

عندما وصلت البيت وجدت أبي وزوجة أبي على طاولة الطعام. سألتني زوجة أبي وهي تمسك بصحني: أجائع أنا؟ قلت لها دون أي تفكير وبسرعة: - جداً -، ولأن الأمر كان كذلك بالفعل. ملأت صحني، لكنها لم تضع إلا قليلاً من الطعام في صحنها. لم أكن أنا من انتبه لذلك، بل أبي، فسألها: ما الأمر؟ أجابته بما معناه إن معدتها غير قادرة على تقبل أي طعام في اللحظة الحالية، عندها تنبهت أنا أيضاً إلى خطأي. والحق يقال، لم يتفق أبي مع تصرفها. حاججها بأن عليها ألا تضعف الآن بالذات عندما تكون الحاجة إلى قوتها وإصرارها على أمسها. زوجة أبي لم تجب، لكني سمعت شيئاً، وعندما رفعت عيني،

رأيت أيضاً: كانت تبكي. كان الأمر في غاية الإحراج مرة أخرى، فجهدت ألا أنظر إلا إلى صحني. ومع ذلك أحسست بحركة أبي وهو يمسك يدها. بعد دقيقة سمعتهما يلوذان بصمت مطبق، وعندما رفعت بصري إليهما بحذر، رأيتهما متشابكي الأيدي وينظران إلى بعضهما البعض بعمق، كما ينظر الرجل إلى المرأة. لم أكن أحب ذلك، وهذا أزعجني الآن أيضاً. لكن الأمر طبيعي في جوهره، أظن ذلك. ومع ذلك لم أحبه. لا أعرف لماذا. هان الأمر على الفور عندما عاودا الحديث. ومر ذكر السيد شُتُو، باقتضاب، وبالطبع العلبة ومتجرنا الآخر: سمعت بأن أبي مطمئن على هذه على الأقل، حسبما أشار، لأنها "في أيادٍ أمينة". شاركته زوجة أبي في طمأنينته هذه، رغم أنها ذكرت مجدداً قضية "الضمانات" ولو بصورة عابرة، بأن هذه تعتمد على كلمة الثقة، والسؤال هو هل يكفي ذلك. هز أبي كتفيه، وأجابها بأنه ليس هناك بعد الآن ضمان لأي شيء في "باقي جوانب الحياة" وليس في الحياة التجارية وحدها. وافقته زوجة أبي على الفور بتنهدة متقطعة: ندمت على ذكر الأمر، وطلبت من أبي ألاّ يتحدث هكذا، وألاّ يفكر في شيء من هذا القبيل. لكنه فكر في كيف ستكون زوجة أبي قادرة على التعامل مع كل هذه المشاكل الكبيرة التي هبطت عليها في هذه الأزمان السيئة دونه، وحدها: لكن زوجة أبي أجابته بأنها لن تكون وحدها، فأنا أقف إلى جانبها. نحن الاثنين - أكملت حديثها - سنحمي بعضنا البعض إلى أن يعود أبي بيننا. وسألتني أنا أيضاً وقد توجهت نحوي وأحنت رأسها قليلاً: أليس كذلك؟ ابتسمت، لكنّ شفتيها كانتا ترتعشان في هذه الأثناء. قلت لها: نعم. نظر إليّ أبي كذلك، كانت عيناه وديعتين.

تأثرت لذلك، ولكي أفعل شيئاً من أجله، دفعت صحني عني. انتبه، فسألني، لماذا فعلت ذلك. قلت: - ليس لدي شهية-. لاحظت، راقه الأمر: مرر يده على رأسي. لمسته جعلتني أختنق لأول مرة اليوم؛ لكنه لم يكن نحيباً، بل غثياناً أو نحو ذلك. تمنيت لو أن أبي لم يعد بيننا. كان شعوراً سيئاً، لكنني شعرته بوضوح بحيث لم أفكر بأي شيء آخر يختلف عنه، واضطربت تماماً في تلك اللحظة. كنت قادراً على البكاء بعد ذلك، لكن لم يتسن لي الوقت، فقد وصل الضيوف.

تحدثت عنهم زوجة أبي من قبل: سيأتي أقرب الأقارب - هكذا قالت. وأضافت بعد إشارة ما من أبي: - لكنهم يودون توديعك. هذا أمر طبيعي! - رنّ الجرس على الفور: وصلت أخت زوجة أبي الكبرى وأمها. سرعان ما وصل والدا أبي، جدي وجدتي. أجلسنا جدتي على الأريكة في عجل، لأنها تكاد لا ترى شيئاً حتى بنظاراتها الغليظة غلظ العدسات المكبرة، ولأن درجة طرشها ليست أخف وطأة. ومع ذلك أحبت أن تشارك وتسهم في الأحداث التي تدور حولها. في هذه الحال نبذل الكثير من الجهد معها، فمن جهة يتعين الصراخ دوماً في إذنها لتبليغها أين وصلت الأمور، من جهة ثانية يتعين منعها بحذق من التدخل فيها، لأن ذلك لا يلد إلا الفوضى.

جاءت أم زوجة أبي بقبعة مخروطية حربية لها حواف: في مقدمتها ريشة موضوعة بشكل افقي. غير أنها خلعتها سريعاً، عندها ظهر شعرها الخفيف الأشيب بلون الثلج، وظفيرتها الهزيلة رقيقة الجدل. وجهها نحيفاً مصفراً وعيناها واسعتين غامقتين، تتهدل من رقبتها قطعتا جلد ذابلتان: تشبه إلى حدٍّ كبير نوعاً شديد الذكاء من كلاب

الصيد. يهتز رأسها قليلاً على الدوام. وقعت عليها مهمة ترتيب حقيبة ظهر أبي، فهي خبيرة جداً في مثل هذا العمل. بدأت بالعمل فوراً، حسب القائمة التي سلمتها لها زوجة أبي.

غير أننا لم نستفد من أخت زوجة أبي البتة. فهي أكبر سناً من زوجة أبي بكثير، وكأنها ليست شقيقتها: ضئيلة تميل إلى السمنة، ووجهها كوجه دمية متعجبة. ثرثرت كثيراً، وبكت أيضاً، وحضنتنا كلنا. انتزعت نفسي بصعوبة من ثديها اللين الملمس ذي رائحة مسحوق البودرة. وعندما جلست انهار لحم جسمها كله على فخذيها القصيرتين. وحتى لا أنسى جدي: بقي هناك واقفاً، عند أريكة جدتي، واستمع شكاواها بوجه صبور دون أن يتغير محياه. في البداية تباكت بسبب أبي؛ وبمرور الوقت أنستها عللها مشكلة أبي. شكت أوجاع رأسها، والطنين والهدير اللذين يسببهما ضغط الدم لأذنيها. اعتاد جدي على ذلك: حتى إنه لم يجبها. لكنه لم يتحرك من قربها حتى النهاية. لم أسمعه ينطق بكلمة مرة واحدة قط، وكلما وقع بصري على تلك الناحية وجدته واقفاً هناك في نفس الزاوية التي بدأت العتمة تتسرب إليها شيئاً فشيئاً بمرور فترة العصر: لم يبق من الضوء المصفر الخافت إلا ما سقط على جبهته العارية وانحناء أنفه بينما غارت محاجر عينيه والأجزاء السفلى من وجهه في الظلال. ولم نحس بمتابعته كل حركة في الغرفة بدون أن نشعر سوى من خلال التماع عينيه الصغيرتين.

عدا ذلك جاءت بنت عم زوجة أبي مع زوجها. أناديه العم فيلي، لأن هذا هو اسمه. يعاني من عاهة صغيرة في سيره، لذلك يحتذي جزمةً أحد فرديها أسمك من الآخر، لكنها عاهة جعلته يتمتع بامتياز، لم يلزم

بالذهاب إلى العمل الإجباري. رأسه يشبه الكمثرى، عريض من فوق ومحدب وأصلع، يضيق كلما توجهنا عبر وجهه نحو ذقنه. وعائلتي تحترم رأيه، لأنه تعاطى الكتابة الصحفية قبل أن يفتتح مكتباً لرهانات سباق الخيل. والآن أيضاً أراد تقديم تقرير عن أخبار مثيرة وصفها بأنها من "مصدر موثوق" و"مطلقة الصحة" على الفور. أخبرنا وهو يجلس في مقعد بمسندين ويمد ساقه العليلة منتصبة أمامه ويفرك يديه محدثاً صوتاً خشناً بأن "أوضاعنا ستشهد نقلة جذرية متوقعة"، لأن "مباحثات سرية تجري بشأننا "بين الألمان والقوى الحليفة بوساطة محايدة". فالألمان كما شرح لنا العم فيلي "أقروا بوضعهم اليائس على جبهات القتال اليوم". كان رأيه ينصب في أننا، "يهود بودابشت"، جئنا على المرام في سعيهم "لانتزاع فوائد على حسابنا من الحلفاء" الذين سيفعلون بالتأكيد ما في وسعهم من أجلنا؛ وهنا ذكر "عاملاً مهماً" بنظره حسب خبرته الصحفية والذي دعاه "الرأي العام العالمي"؛ وحسب تعبيره فإن الأخير هزته الأحداث التي وقعت معنا. المباحثات صعبة بالطبع - أكمل حديثه -، وهذا بالذات هو تفسير وطأة الإجراءات المتخذة بحقنا في هذه اللحظة؛ لكن ذلك هو جزء طبيعي من "اللعبة الكبرى التي نمثل نحن فيها في الواقع أدوات مناورة الابتزاز الدولية الهائلة الأبعاد"؛ غير أنه أضاف أيضاً بأنه يعرف جيداً ما يحدث خلال ذلك " خلف الكواليس" ويعتبره بالدرجة الأولى "خدعة ظاهرة" من أجل الحصول على سعرٍ أعلى، لكنه طلب منا أن نتحلى بقليل من الصبر لحين "انجلاء الأحداث". ورد أبي بسؤال، هل من المتوقع حدوث ذلك غداً، أو عليه أن يعتبر أمر الالتحاق "مجرد خدعة"، وربما ليس هناك ضير في عدم الالتحاق غداً. بهذا أحرج

قليلاً. أجاب: - لا، بالطبع لا-. لكنه قال بأنه مطمئن تماماً إلى عودة أبي السريعة إلى بيته.- نحن في الساعة الرابعة والعشرين - أطلق تعليقه بينما تزايدت حدة فرك يديه. حتى إنه أضاف: - لو كنت متأكداً في أي من احتمالات فوز خيول السباق كما أنا متأكد الآن في هذا الأمر، لما كنت فقيراً الآن! - وأراد الاسترسال، لكن زوجة أبي وأمها أنجزتا ترتيب حقيبة الظهر، وقام أبي من مجلسه ليجرب ثقلها.

آخر من وصل كان الشقيق الأكبر لزوجة أبي، العم لايوش. وهو يشغل في عائلتنا مرتبة مهمة جداً، لكني لا أستطيع تحديد ماهيتها بشكل دقيق. أراد الحديث مع أبي على انفراد فوراً. لاحظت أن ذلك يثير هياجه بشكل واضح، وسعى إلى الانتهاء من ذلك بأسرع ما يمكن وإن بشكل لبق. عندئذ تحول نحوي أنا بشكل مفاجئ. قال بأنه يود "الحديث معي قليلاً". أخذني معه إلى ركن مهجور من الغرفة، وأوقفني أمامه عند خزنة. بدأ حديثه بأن أبي "سيتركنا" غداً كما أعرف. قلت له أعرف. عندئذ أراد أن يسمع مني، هل سأفتقده. أجبته بينما أزعجني سؤاله قليلاً: - بالطبع-. ولأنني لحدٍ ما وجدت ذلك لا يكفي، سارعت إلى الإضافة: جداً-. فبدأ بهزّ رأسه طويلاً وتعابير وجهه مليئة بالشكوى.

بعد ذلك علمت منه بعض الأشياء المثيرة والمذهلة. مثلاً انتهاء حقبة معينة من حياتي، وصفها بأنها "سنوات الطفولة الهينة والسعيدة"، قد انتهت بالنسبة لي في هذا اليوم الحزين. قال -بالتأكيد لم أفكر بذلك على هذا النحو-. أسلمت بذلك: لا. لكن كلماته لا تسبب لي بالتأكيد مفاجأة ما - واصل حديثه -. قلت مجدداً: لا. عندها أبلغني بأن زوجة أبي ستمسي برحيل أبي من دون سند، ورغم أن العائلة "ستراقبنا"، مع

ذلك، فسندها الرئيسي بعد الآن سيكون أنا. يقيناً - قال - يجب أن أعرف مبكراً معنى "الصعاب والحرمان". لأن حياتي لن تجري بيسر كما في السابق كما هو واضح، - وهو لا يرغب في إخفاء ذلك عني، لأنه يتحدث معي "حديث البالغين". والآن - قال - أنت أيضاً تتقاسم المصير اليهودي المشترك -، ثم أسهب في الحديث عن ذلك ذاكراً أن هذا المصير هو "اضطهاد لا ينقطع منذ آلاف السنين"، والذي على اليهود أن "يتجرعوه بإذعان وبصبر مليء بالتضحية"، لأنَّ ما سلطه عليهم الرب عقابٌ لهم على ذنوبهم السالفة، ولهذا بالضبط ينتظرون منه وحده الرحمة أيضاً؛ أما الرب فهو ينتظر منا جميعاً أن نثبت في هذا الوضع الصعب، في المكان الذي اختاره هو لنا، "حسب قوتنا وقدراتنا". مثلاً عليّ أنا - علمت منه - أن أثبت في دور رب العائلة في المستقبل. واستفسر، هل أشعر في قرارة نفسي بالقوة والاستعداد لذلك. ورغم أني لم أفهم تماماً تسلسل فكرته التي أوصلتنا هنا، وخصوصاً ما قاله عن اليهود وذنبهم وعن ربهم، مع ذلك، امتلكتني كلماته بشكل ما. قلت له إذن: "نعم". بدا لي راضياً. حسناً، قال. كان يعلم دوماً بأنني ولد ذكي، أتمتع "بأحاسيس عميقة وشعور عالٍ بالمسؤولية"؛ ويعني ذلك بالنسبة له إلى حدٍ ما بعض العزاء خلال المصائب الكثيرة - كما توضح من كلماته. وأمسك الآن ذقني بأصابعه التي تغطي ظاهرها بقع الشعر وباطنها رطوبة الجسم الخفيفة ورفع وجهي وخاطبني بصوت خفيض مرتعش قليلاً: - يتهيأ أبوك لرحلة طويلة. أصليت من أجله؟ - كان في نظرته شيء من الصرامة، ربما كان ذلك ما أيقظ في داخلي شعوراً مربكاً بالتقصير تجاه أبي، لأنني لم أفكر في ذلك من تلقاء نفسي بكل تأكيد.

أما الآن وقد أثار في داخلي ذلك، بدأت فجأة أشعر به كحمل ثقيل، كأنه دَين علي، وحتى أتخلص من الثقل، قلت له: - لا -. قال: - تعال معي -.

تعين علي أن أرافقه إلى حجرتنا المطلة على الباحة. صلينا هنا بين بعض قطع الأثاث القديمة غير المستعملة. في البدء وضع العم لايوش طاقية سوداء صغيرة حريرية اللمعان على تلك النقطة الخلفية من رأسه التي يشكل فيها شعره الرصاصي المتناقص الكثافة فسحة صغيرة. كان علي أنا أيضاً أن أجلب طاقيتي من غرفة المدخل. عندئذ أخرج من داخل معطفه كُتيّباً أسود الجلد أحمر الحواف، ومن جيبه العليا نظارته. بعدها أخذ بقراءة الصلاة، وأنا اردد دائما هذا الجزء من النص الذي يقرأه. في البداية سارت الأمور على نحو حسن، لكني سرعان ما تعبت من هذا العمل، كذلك أربكني بعض الشيء أنني لم أفهم كلمة واحدة مما قلناه للرب، لأنه علينا التوسل إليه بالعبرية، لكنني لا أعرف هذه اللغة. بهذا، وحتى أتبعه، اضطررت إلى التركيز أكثر فأكثر على حركة شفاه العم لايوش، لم يبق في مخيلتي سوى منظر تلك الشفاه الغليظة المتشنجة الرطبة، والتمتمة غير المفهومة للغة مجهولة كنا ندمدمها نحن أنفسنا. وصورة ثانية، رأيتها خلال الشباك من فوق كتف العم لايوش: الشقيقة الكبرى وهي تسرع في تلك اللحظة عبر الممر العلوي الذي يقابلنا إلى شقتها. أعتقد أنني ارتبكت قليلاً في ترديد النص. لكن العم لايوش بدا راضياً بعد الانتهاء من الصلاة، وبدا على محياه تعبير شعرت معه أنا أيضاً بأننا قمنا بشيء من أجل أبي بالتأكيد. في الحقيقة، كان هذا أفضل من ذلك الشعور السابق، الثقيل اللجوج.

عدنا إلى الغرفة المطلة على الشارع. حل الغروب. أغلقنا على الأمسية الربيعية الرطبة المتزايدة الزرقة في الخارج الشبابيك التي لصق زجاجها بأشرطة الحماية من الغارات. بهذا حشرنا تماماً في الغرفة. أتعبتني الجلبة. وبدأ دخان السجائر يحرق عيني. تثاءبت كثيراً. هيأت أم زوجة أبي منضدة الطعام. جلبت عشاءنا معها في حقيبتها الكبيرة. وقد حصلت على اللحم من السوق السوداء. فهي قصت علينا ذلك في السابق عند وصولها. عندها دفع أبي ثمنه لها من محفظة نقوده الجلدية. كنا قد جلسنا جميعاً على الطاولة عندما قدم العمان شتاينر وفلايشمان. هما أيضاً أرادا توديع أبي. بدأ العم شتاينر مباشرة بالقول بأن "لا ينزعجن أحد منكم لوجودنا". قال: - اسمي شتاينر، تفضلوا بالبقاء جالسين-. لبس كالعادة نعاله المهترئ، وامتد كرشه المكور من خلال الصديري مفتوح الأزرار وتدلى من فمه عقب السيجار الأزلي ذي الرائحة الكريهة. رأسه أحمر كبير، وتصفيفة شعره المفروق كشعر الأطفال تنعكس بغرابة على وجهه. أما العم فلايشمان فقد توارى تماماً إلى جانبه، لأنه ضئيل الجسم، أنيق المظهر، شعره أبيض وبشرته تميل إلى اللون الرمادي، نظاراته تشبه عيون البوم ويعلو وجهه القلق دوماً. انحنى بجنب العم شتاينر بصمت، مطقطقاً أصابعه وكأنه يعتذر بسبب العم شتاينر، أو هكذا بدا. يلتصق الشيخان بعضهما ببعض دون انفصام، رغم الخلاف الأبدي بينهما، لأنه لا توجد مسألة واحدة يتفقان عليها. صافحا أبي واحداً بعد الآخر. وحتى أن العم شتاينر ربت على ظهر أبي. دعاه "الولد العجوز"، وحكى مزحته القديمة: - أبق رأسك واطئاً ولا تدع اليأس يفارقك. - قال - وهز العم فلايشمان رأسه

موافقاً-، وذكر أنهما سيهتمان بي وبـ"السيدة الشابة" (كما أسمى زوجة أبي) كما في الماضي. رمشت عيناه الصغيرتان. بعد ذلك سحب أبي نحو كرشه واحتضنه. عندما ذهبا، غرق كل شيء في قعقعة أدوات الطعام وضجيج الأحاديث وبأبخرة الأطعمة ودخان السجائر. ما عادت تصلني سوى نتف غير مترابطة من الوجوه أو الحركات، كما لو انفصل ذلك من الضباب المحيط بي، خصوصاً رأس أم زوجة أبي المهتز الأصفر بارز العظام وقد أخذت على عاتقها الاهتمام بكل الأواني؛ ثم هناك راحتا العم لايوش المرفوعتان أمامه في حركة رفض، لا يطلب من اللحم لأنه لحم خنزير، والدين يحرم ذلك؛ وهناك خدود شقيقة زوجة أبي السمينة وفكها الأسفل المتحرك وعيونها المدمعة؛ ثم ظهرت جمجمة العم فيلي العارية في دائرة الضوء الوردي للمصباح، وسمعت شذرات من جديد شرحه المتفائل؛ كذلك أذكر كلمات العم لايوش الاحتفالية التي استقبلت بصمت أصم، والتي طلب فيها عون الرب على هذا الأمر، حتى "نجلس سريعاً إلى هذه المنضدة العائلية جميعاً بسلام ومحبة وفي صحة".

أما أبي، فلم أره إلا نادراً، ولم يصلني من زوجة أبي سوى أنهم اهتموا واعتنوا بها كثيراً ، أكثر من اهتمامهم بأبي، وأن رأسها أوجعها، وسألها بعضهم، أترغب في حبة دواء أو كمادات: لكنها لم تطلب أياً منهما. غير أنني اضطررت إلى الانتباه إلى جدتي في فترات غير منتظمة، إلى عدد المرات التي أصبحت فيها عثرة في الطريق، وإلى اقتيادها المرة بعد المرة إلى الأريكة، وإلى شكاواها، وإلى عينيها اللتين لا تريان شيئاً واللتين بدتا مثل حشرتين غريبتين تتصببان العرق بسبب النظارة الغليظة المكبرة المغطاة بالدمع والمكسوة بالبخار. ثم في لحظة

معينة انفض الجميع من حول المائدة. عندها بدأ الوداع الأخير. لكن جدي وجدتي غادرا لوحدهما، قبل عائلة زوجة أبي. ربما كان أغرب ذكرياتي عن تلك الأمسية بأكملها هو الفعل الوحيد لجدي والذي أفصح فيه عن نفسه: عندما ألصق رأسه المدبب الصغير كرأس الطير للحظة لكن بوحشية تماماً وبطريقة لا عقلانية إلى سترة أبي، عند صدره. اهتز كل جسمه المتشنج. بعد ذلك تعجل في الخروج، وهو يقود جدتي من مرفقها. فسح الجميع أمامهما الطريق. بعد ذلك احتضنني أنا أيضاً أكثرهم، وشعرت بأثر الأفواه الملتصقة على خدودي. حل أخيراً صمت مباغت، فقد ذهبوا جميعهم.

عندها ودّعت أبي أنا أيضاً. أو هو الذي ودعني. لا أعلم. لا أذكر الظروف: لربما رافق أبي الضيوف مودعاً، لأنني بقيت وحدي برهة عند مائدة الطعام المغطاة بأنقاض العشاء، ولم أنتبه إلا عند عودة أبي. كان بمفرده. أراد توديعي. لن يكون هناك متسع من الوقت لذلك غداً في الفجر - كما قال. كرر هو الآخر على العموم الحديث عن مسؤوليتي ووصولي البلوغ وهو ما سمعته من العم لايوش مرة في هذه الأمسية، لكن دون ذكر الرب، وليس بمثل تلك الكلمات الجميلة، وباختصار شديد. ذكر أمي كذلك: كان يعتقد أنها قد تحاول "إغرائي لترك بيتي والذهاب إليها". أحسست أن هذه الفكرة تؤرقه كثيراً. فالاثنان تنافسا طويلاً بعضهما مع بعض في قضية امتلاكي قبل صدور قرار المحكمة لصالح أبي: والآن، وقد وجدت أن ذلك مفهوم تماماً، لا يريد أن يفقد حقوقه فيّ بسبب وضعه غير المناسب. لكنه لم يشر إلى القانون، بل إلى حسن تقديري، وإلى الفارق بين زوجة أبي التي "خلقت جواً عائلياً دافئاً"

لي، وبين أمي التي "أهملتني". أثار ذلك اهتمامي، لأنني علمت من أمي شيئاً مغايراً حول هذه التفصيلات: فهي تعتقد أن أبي كان من أخطأ. لهذا اضطرت إلى اختيار بعل آخر لها، يسمونه العم دِني (في الحقيقة: دَيْنَش)، الذي ذهب الأسبوع الماضي إلى العمل الإجباري هو الآخر. لكني لم أستطع معرفة أكثر من ذلك بدقة أبداً. وعاد أبي مرة أخرى إلى زوجته مذكراً: يعود الفضل إليها في إخراجي من مدرسة القاصرين الداخلية، وأن مكاني "هنا في البيت إلى جانبها". تحدث عنها طويلاً، والآن فقط عرفت لماذا لم تتواجد زوجة أبي معنا عند كلماته هذه: لكانت قد تضايقت منها بالتأكيد. أما أنا، فقد بدأت تتعبني بعض الشيء. وما عدت أعرف بم وعدت أبي عندما طلب مني ذلك. بيد أنني وجدت نفسي بين ذراعيه في اللحظة التالية، جاء احتضانه لي مفاجئاً دون أن أتهيأ له بعد سماعي كلماته. لا أعلم، هل انهمرت دموعي بسبب ذلك أم بسبب الإجهاد بكل بساطة، أو ربما لأنني تهيأت بشكل ما منذ كلمات زوجة أبي المبكرة والمنبهة في الصباح لأن تبدأ دموعي بالهطول في هذه اللحظة المعينة في كل الأحوال: لكن مهما كان السبب، فمن الحسن أن ذلك قد حصل، وشعرت بارتياح أبي لرؤية ذلك. بعد ذلك أرسلني لأنام. كنت متعباً جداً. لكن مع ذلك - كما فكرت - ودعنا المسكين إلى العمل الإجباري بذكرى يوم جميل على الأقل.

٢

مر شهران منذ توديعنا أبي. جاء الصيف. لكن العطلة الصيفية ابتدأت في المدرسة الثانوية منذ زمن طويل، في الربيع. عللوا ذلك بالحرب. كثيراً ما تأتي الطائرات لقصف المدينة، وسنوا منذ ذلك الحين قوانين جديدة بشأن اليهود. وأصبح لزاماً علي أن أعمل أنا أيضاً منذ أسبوعين. أبلغوني برسالة رسمية: " حصل على تعيين في وظيفة دائمة". عنونت الرسالة باسم " اليافع المتأهل المساعد جورج كُفَش"، من هذا عرفت أن للشباب القومي[٢] يداً في الأمر على الفور. وسمعت أيضاً أنهم يرسلون بمن هم ليسوا بعمر خدمة العمل الإجباري كامل القيمة، مثلي أنا، إلى المعامل وغيرها من الأماكن هذه الأيام. كان معي نحو ثمانية عشر يافعاً بعمري، في زهاء الخامسة عشرة، لأسباب مشابهة. موقع العمل كان في تْشَبَل[٣]، في شركة مساهمة اسمها "مجمع شَل لتكرير النفط". بهذا حصلت على امتياز في الحقيقة، لأن أصحاب النجوم الصفر كانوا يمنعون من مغادرة حدود المدينة. أما أنا فقد حصلت على هوية رسمية مختومة بختم آمر المعمل الحربي تعطيني حق "عبور حدود تْشَبَل الجمركية".

في الواقع لم يكن العمل متعباً بحد ذاته، لذلك كان ممتعاً لدرجة ما

بصحبة الأولاد: كان نوعاً من المساعدة في البناء. فقد تعرض الموقع النفطي للقصف الجوي، وعلينا إصلاح ما خربته الطائرات. وكان المشرف على العمل الذي يرأسنا طيباً في تعامله معنا: كان يحسب لنا أجوراً أسبوعية، مثلما كان يفعل مع عماله الاعتياديين. لكن زوجة أبي فرحت للهوية أكثر من أي شيء آخر. لأنها كانت قبل ذلك تقلق كثيراً كلما ذهبت في سبيلي لقضاء أمرٍ ما، كيف أبرز وثائق ثبوتيتي إن اقتضى الأمر. أما الآن فلا يوجد داعٍ للقلق علي، فالهوية تثبت أنني لا أعيش على هواي، بل أجلب فائدة للضرورات العسكرية في المصنع، ولهذا تقدير آخر، بالطبع. وكانت العائلة تشاطر هذا الرأي. إلا أخت زوجة أبي الكبرى ، فقد ناحت قليلاً لأنني سأقوم بعمل جسدي، وسألتني بعيون يغلبها الدمع: هل درست في الثانوية حتى يحصل ذلك؟ قلت لها بأنه مفيد للصحة. أعطاني العم فيلي الحق على الفور، وأشار العم لايوش: يجب أن نرضى بالمصير الذي خصه الرب لنا؛ بهذا صمتت. عندها استدعاني العم لايوش على انفراد وتبادل معي بضع كلمات جادة: وعظني بأن لا أنسى أنني لا امثل نفسي وحدي في موقع العمل، بل "كل جماعة اليهود"، وأن علي الانتباه لتصرفاتي من أجلهم أيضاً، لأن الحكم ينسحب عليهم جميعاً. والحق يقال، لم أفكر في ذلك. لكنني رأيت بأنه قد يكون على حق.

كانت الرسائل تصل في أوقات منتظمة من أبي في العمل الإجباري: الحمد لله فهو في صحة ويحتمل العمل، ويتعاملون معه - كما يكتب - بإنسانية. والعائلة راضية بمحتواها. والعم لايوش على هذا الرأي هو الآخر: كان الرب مع أبي إلى هذا الحين، ونبهني إلى الصلاة

اليومية حتى يستمر الحال كذلك، لأن الرب يصنع بنا جميعاً ما يشاء بحوله. أما العم فيلي فقد أكد لي: ما علينا سوى أن نتحمل "فترة قصيرة مؤقتة" - كما أوضح - لأن إنزال قوى الحلفاء "ختم مصير الألمان دون رجعة".

لم تبرز بين زوجة أبي وبيني أية خلافات لحد الآن. وقد اضطرت إلى الكسل، على العكس مني: فقد صدرت الأوامر بغلق المتجر، لأنه لا يعمل بالتجارة من ليس له دم نقي. ويبدو أن الورقة التي وضع عليها أبي بشخص السيد شُتُو رهانه جلبت الحظ، إذ أنه جاء بما يخص زوجة أبي من ربح المخزن الذي بعهدته كل أسبوع، تماماً كما عاهد أبي. وكان مضبوطاً في آخر مرة أيضاً عندما عدّ مبلغاً كبيراً ووضعه على المائدة، كما رأيت. قبل يد زوجة أبي، وتوجه نحوي أيضاً بكلمات ودودة. واستفسر بالتفصيل عن حال "السيد المدير"، كالعادة. كان على وشك أن يودعنا قبل أن يتذكر شيئاً. أخرج ظرفاً من حقيبته. بان على وجهه الإحراج قليلاً. - أرجو سيدتي الجليلة - قال - أن تعود عليكم بالفائدة-. كان في العلبة سمن وسكر ونحو ذلك. أشك أنه قد حصل عليها من السوق السوداء، لأنه قد قرأ بالتأكيد الإجراءات التي تفرض على اليهود الاكتفاء بحصص تموينية أصغر من الآن فصاعداً. حاولت زوجة أبي الممانعة في البداية، لكن السيد شُتُو كان حازماً في الأمر، وبالطبع لم يسعها الاعتراض على لفتته في آخر المطاف. سألتني عندما بقينا وحدنا، إن كان تصرفها بقبولها صحيحاً أم لا. وجدت أنه صحيح، لأنه لم يكن من الحكمة الإساءة إلى السيد شُتُو برفضها: ففي المحصلة النهائية أراد أن يفعل خيراً. كان رأيها مماثلاً، وقالت أيضاً بأنها تعتقد

أن أبي قد يوافقها على ذلك. لا أعتقد أنا أيضاً بنقيض ذلك. فوق ذلك، فهي تعرفه أحسن مني.

أزور أمي مرتين في كل أسبوع في العصارى التي خصصت لها كالعادة. كانت مشاكلي معها أكثر. فكما تنبأ أبي عن حق، لم تستطع التسليم بأن مكاني الحقيقي هو إلى جانب زوجة أبي. تقول إنني "أنتمي" لها هي، أمي. لكن المحكمة حكمت بي لأبي حسبما أعرف، وهكذا فإن قرار المحكمة هو النافذ. بيد أن أمي استفسرت مني يوم الأحد، كيف أرغب في العيش - لأنها تعتقد أن إرادتي هي الشيء المهم الوحيد، وكذلك، أأحبها. قلت لها: كيف لي ألا أحبها! لكن أمي شرحت لي، أن المحبة تعني "التمسك بشخص ما"، وأنها ترى بأنني أتمسك بزوجة أبي. حاولت إفهامها بأن رؤيتها خاطئة، لأنني لا أتمسك بها، بل، كما تعرف هي أيضاً - لأن أبي قرر ذلك بشأني. لكنها أجابت على ذلك بأن الأمر يتعلق بي وبحياتي، وهذا ما يجب علي أنا أن أُقرره، كذلك "ليست الكلمات بل الأفعال هي ما يُثبت المحبة". عدت منها وأنا مليء بالهموم: بالطبع لا أسمح بأن تعتقد أنني لا أحبها بالفعل - غير أنه من جانب آخر لم أعتبر ما قالته عن أهمية إرادتي جاداً تماماً، كذلك عن اتخاذي القرارات فيما يتعلق بي. في آخر الأمر هذا نزاعهما الخاص بهما. وإصداري حكماً على ذلك شيء محرج. فوق ذلك لا أستطيع سرقة أبي، بالذات الآن وهو في العمل الإجباري، المسكين. ومع ذلك صعدت إلى حافلة الترام بشعور غير مريح، لأنني ألتصق بالطبع بأمي، وحز في نفسي حقاً أنني لم أستطع فعل شيء لها اليوم.

ربما كان السبب وراء هذا الشعور السيئ هو تريثي في توديع أمي

التي ألحّت: سيتأخر الوقت - إذ يسمح بتجول حاملي النجمة الصفراء في الشوارع لغاية الساعة الثامنة مساءً فقط. غير أنني شرحت لها، بأنه بعد امتلاكي الهوية لا يوجد داع لتطبيق كل واحد من الأنظمة بصرامة شديدة.

ومع كل ذلك تشبثت في آخر فسحة من آخر عربة في الترام بشكل صحيح حسب التعليمات المتعلقة بذلك. كانت الساعة تقارب الثامنة عندما وصلت البيت، بدأوا يغلقون على بعض النوافذ بالألواح السوداء والنيلية، رغم أن الأمسية الصيفية لا تزال مضيئة. بدأت زوجة أبي تفقد صبرها، لكن الأمر لم يكن سوى قوة العادة، فها هي الهوية عندي. أمضينا المساء عند آل فلايشمان كما تعودنا. العجوزان بخير ولا يزالان يتناقشان كثيراً، لكنَّ الاثنين اتفقا معي في ذهابي إلى العمل، بسبب الهوية أيضاً، بالطبع. واختلفا قليلاً بسبب الحماس. فلا نعرف، زوجة أبي وأنا، الطريق إلى تْشبَل، بذلك طلبنا منهما أن يدلانا على الطريق في المرة الأولى. اقترح فلايشمان استعمال قطار الضواحي، بينما كان العم شتاينر إلى جانب استعمال الحافلة، لأن محطة الحافلة، كما قال، تقع عند الموقع النفطي مباشرة، بينما يتوجب المشي لمسافة من محطة قطار الضواحي - بعد ذلك تبين صدق ما قال. لكننا وقتئذ لم نكن نعرف ذلك، وغضب العم فلايشمان كثيراً: - تريد حضرتك أن يكون الحق معك على الدوام -. في آخر المطاف تطلب الأمر تدخل الزوجتين البدينتين. ضحكنا من ذلك كثيراً أنا وأنّاماريا.

حصل لي معها وضع خاص بعض الشيء. حدث ذلك بمناسبة الغارة الجوية الليلية أول أمس، يوم الجمعة، في الملجأ، أو على الأصح في ممر

مـهـجـور شبـه مظلم يتفـرع من قـبـو الملجأ. كل مـا أردت أن أُريهـا في الأصل هو كـيف تكون مـتـابعـة مـا يدور فـي الخـارج أكـثـر إثارة من هنا. لكن عندمـا سـمـعنا دوي قنبلة انفـجـرت قـريبـاً، بدأ كل جـسـدها بالارتعاش. شعرت به جيداً لأنها تعلقت بي لفزعها: التفت ذراعها حول رقبتي ودفنت وجهها في كتفي. بعد ذلك لم أعد أذكر سوى أنني بحثت عن فمها. علق في نفسي تذكار ضبابي للمسة دافئة ورطبة ولزجة بعض الشيء. وبالطبع نوع من التعجب المرح، إذ مع ذلك، كانت تلك أول قبلة لي مع بنت، ناهيك لم أحسب لها حساباً حينها.

تبين بعد ذلك بالأمس عند السلم أنها قد فوجئت جداً هي بدورها. اعـتـقـدت بأن - القنبلة كـانت السبب في كل ذلك -. كـانت مـحـقـة من حيث الجوهر. لاحقاً تبادلنا القبل مرة أخرى، عندها تعلمت منها كيف نجعل من هذه التجربة ذكرى أكثر دواماً، من خلال إعطاء لساننا دوراً معيناً.

كنت معها في الغرفة الثانية مساء اليوم لنشاهد أسماك الزينة: فقد اعتدنا مراقبة الأسماك في مرات أُخرى بالفعل. أما الآن فلم نذهب للرؤية فقط بطبيعة الحال. استعملنا لساننا كذلك. لكننا سرعان ما عدنا، لأن أنّاماريا خافت: قد يحس العجوزان بشيء. فيما بعد، وخلال الحديث، عرفت منها بعض الأشياء المثيرة عن أفكارها نحوي: ذكرت لي لم يخطر ببالها أنني "سأعني بالنسبة لها شيئاً آخر ذات مرة"، أكثر من "صديق حميم" فحسب. عندما تعرفت علي في البداية، رأت فيّ مراهقاً لا غير. لاحقاً، اعترفت لي أنها انتبهت إلي أكثر، وبدأ يستيقظ فيها شعور بالتفهم نحوي، ربما بسبب التشابه في حالنا مع أبوينا - فكرت

هكذا-، واستنتجت من بعض تعليقاتي أن تفكيرنا متشابه؛ لكنها لم تخمن أكثر من هذا في ذلك الوقت. فكرت قليلاً في غرابة ذلك، وقالت: - قُدّر أن يحصل هذا على ما يبدو-. بدا على وجهها تعبير غريب قارب القسوة، لم أناقش آراءها، رغم أنني أميل إلى الاتفاق مع ما قالته لي بالأمس، بأن القنبلة هي السبب. لكن بالطبع لا يمكن أن أعرف كل شيء، ورأيت أن الأمر يعجبها أفضل هكذا. وسرعان ما ودعنا بعضنا بعضاً، إذ كان عليَّ الذهاب غداً إلى العمل، وما أن أمسكتُ بيد البنت، حتى سببت بظفرها ألماً حاداً صغيراً لراحتي. فهمت أنها إنما قصدت سرّنا، وكأن وجهها قد قال "كل شيء على ما يرام".

لكنها تصرفت بشكل غريب في اليوم التالي. بعد الظهر، عندما عدت إلى البيت من العمل واغتسلت وأبدلت قميصاً وحذاءً ورتبت شعري بمشط مبلل، زرنا الشقيقتين - لأن أنّاماريا كانت قد عرفتني عليهما حسب خطتها القديمة. استقبلتنا أمهما بحفاوة. (كان الأب في العمل الإجباري). شقتهم راقية المظهر، فيها شرفة وسجاجيد وغرف كبيرة وواحدة صغيرة منفصلة للبنتين مؤثثة ببيانو وفيها العديد من الدمى وغيرها من الأشياء المناسبة لذوق البنات. غالباً ما اعتدنا لعب الورق، لكن الشقيقة الكبرى لم يكن عندها مزاج لتلك اللعبة اليوم. أرادت في البداية أن تحدثنا عن همٍ لها، عن سؤال يشغلها كثيراً: فنجمتها الصفراء تحملها على بعض التفكير. نبهتها في الواقع "نظرات الناس" إلى التغيير - فهي تعتقد أن الناس تغيروا في علاقتهم معها، وترى في سيمائهم أنهم "يكرهونها". تنبهت إلى ذلك صباح اليوم أيضاً عندما أرسلتها أمها للتسوق. لكني أعتقد أنها رأت ذلك بشيء من

المبالغة. فتجربتي على الأقل ليست بهذا الشكل بالضبط. مثلاً ثمة بعض مشرفي البناء في موقع العمل ممّن لا يطيقون اليهود كما يعرف الجميع: لكنهم مع ذلك تصادقوا تماماً معنا نحن الأولاد. في ذات الوقت لم يغير ذلك من آرائهم قيد أنملة، بالطبع. ثم خطر ببالي مثال الخباز، وحاولت أن أفسر للبنت أنهم لا يكرهونها هي في الواقع، أي هي لشخصها بالذات - ففي المحصلة هم لا يعرفونها -، بل بالأحرى الفكرة فقط، "اليهودي". عندها قالت إنها الأخرى فكرت في هذا من قبل، لأنها لا تعرف بالضبط ما يعنيه بالأساس. أنّاماريا قالت لها بأن الجميع يعرفون ذلك: هو دين من الأديان. لكن ليس هذا ما أثار اهتمامها، بل "جوهره". وقالت - في نهاية المطاف يجب أن يعرف الإنسان سبب كره الآخرين له -. أقرّت بأنها لم تفهم شيئاً من كل هذا في البداية، وآلمها بشدة رؤية الناس يحتقرونها "لمجرد كونها يهودية": عندها شعرت للمرة الأولى بوجود شيء يفصلها عن الناس - كما قالت -، وأن انتسابها آخر، وليس إلى هؤلاء. ثم أخذت تفكر، بدأت تبحث في الموضوع في الكتب وفي المحادثات، وهكذا توصلت إلى أنهم يكرهون فيها هذا بالتحديد. إذ أن رأيها كان "نحن اليهود نختلف عن الباقين"، وهذا الفارق هو الجوهر، هو السبب الذي يجعل الناس يكرهون اليهود. وذكرت أيضاً أن العيش "بوعي ذلك التفرد" شيء مميز، تشعر بسببه نوعاً من الاعتزاز في بعض الأحيان، وفي أحيان أكثر بنوعٍ من العار. أرادت أن تعرف: ما هو موقفنا من تفردنا، وتساءلت هل نحن فخورون بذلك أم خجلون منه. أختها الصغيرة وأنّاماريا لم تعرفا الجواب. وأنا أيضاً لم أر حتى الآن أسباباً لوجود مثل هذه المشاعر. وعلى أية حال، لا

يقـرر المرء بمفـرده هذا الفـرق المحـدد: فكمـا أعلم، هذه فـائدة النجـمـة الصـفراء بالذات. ذكرت ذلك لهـا. لكنهـا عـاندت: "نحمل في داخلنا" التفرد. لكني مع ذلك أعتقد أن ما نحمل في المظهر هو الأكثر جوهرية. تناقشنا حول ذلك طويلاً، لا أعرف لماذا، إذ أقـر حقيـقة أنني لم أشعـر بأهميـة الموضوع. لكني وجدت في منحى تفكيرها شيئاً مثيراً للسخط بشكل ما: أعـتقد أن كل ذلك ليس بهذا التعقيد. علاوة عن ذلك أردت أن أتفـوق في النقـاش بـالطبع. بدا أن أنّامـاريـا أرادت الحـديث مـرة أو مرتين، لكن لم يتسن لها ذلك ولو مرة واحدة، إذ لم نعد ننتبه لها نحن الاثنين كثيراً.

في آخـر الأمـر ضـربت مـثـلاً. كنت أفكر به أحيـاناً لمجـرد قـضـاء الوقت، ولهذا خطر ببـالي. وكذلك كان هناك كتاب، أشبـه برواية قرأتها منذ فترة ليست ببعيدة: تبادل متسول وأمير - إذا ما نحينا جانباً هذا الفـارق بينهـمـا - يشبـهـان في وجهـيـهـمـا وجسـديهـمـا بعضـهـمـا البعض بشكل واضح لدرجة التمـاثل، تبادلا مصيرهما لمجرد الفضول، فـأصبح المتسـول أميراً حقيقياً والأمير متسـولاً حقيقياً. طلبت من البنت محاولة تخيل الأمر بالعلاقة مع نفسهـا. يصعب احتمال وقوعه بالطبع، لكن الكثيـر من الأشيـاء قـابل للحـدوث. لنقل إن الحدث حصل مـعـهـا في طفولتها المبكرة، عندما لا يزال الإنسان لا يستطيع الحديث أو التذكر، لا يهم كيف، لكن - لنفترض - تبادلوها أو استبدلت بطفل عـائلة ثانيـة، عـائلة لا غـبـار على وثـائقـهـا من ناحـيـة العـرق: إذن في هذا الوضع الافتراضي ستشعر البنت الثانية بهذا الفارق، وستحمل بالطبع النجمة الصفراء كذلك، أما هي فسترى نفسهـا - وسيراها الآخرون بالطبع -

مثل الآخرين استناداً إلى معطياتها، ولن تفكر ولن تعلم بكل هذا الفارق. رأيت أن المثل أثر عليها. في البداية صمتت، وشعرت شيئاً فشيئاً أن شفتيها بدأتا تنفرجان ببطء لكن بنعومة بالغة وكأنها تريد قول شيء. لكن لم يحدث ذلك، بل شيء آخر أكثر غرابة: أجهشت بالبكاء. انحنت بوجهها على ذراعها الذي أسندته بعكسها إلى المنضدة، وتزايد ارتعاش كتفيها بهزات صغيرة. فوجئت بشدة، لم يكن هذا هدفي، ثم أن المشهد ذاته اربكني لحد ما. حاولت الانحناء فوقها، ومس شعرها وكتفها وذراعها قليلاً لأطلب منها: لا تبك. لكنها صرخت بمرارة وبصوت يزداد تقطعاً ما معناه، لو لم يكن لصفتنا هذه دور فيه، فكل شيء لا يزيد عن صدفة محضة، ولو كانت هي شخصاً آخر غير الذي اضطرت أن تكون، فإنه "لا معنى لكل ذلك"، وهذه فكرة "لا يمكن احتمالها" حسبما ترى. كنت مرتبكاً، إذ بدر الخطأ مني، لكني لم أقدّر كم كانت هذه الفكرة مهمة عندها. وكدت أن أقول لها ألاّ تهتم، فكل ذلك لا يعني شيئاً بالنسبة لي، وأنا لا أحتقرها بسبب ملتها؛ لكني شعرت فوراً أن ذلك القول مضحك بعض الشيء، بالتالي لم أتفوه به. ومع ذلك تضايقت لأنني لم أقله، لأنه كان ما شعرت به حقيقة في هذه اللحظة، بشكل مستقل تماماً عن وضعي أنا، وحتى يمكنني القول: بشكل حر. مع ذلك قد يكون رأيي مختلفاً في موقف آخر. لا أدري. وأسلمت كذلك بأنه ليس في وسعي تجربة ذلك. ورغم ذلك انزعجت. ولا أعرف بدقة ما السبب، لكن هذه هي المرة الأولى الذي يحدث فيها معي أن أشعر شعوراً أعتقد أنه يشبه الخزي.

لكني بالمقابل لم أتوصل إلى أنني جرحت أنّاماريا بشعوري هذا إلا

عند السلم، كما يبدو: فقد حدث آنئذ أنها تصرفت بشكل غريب. خاطبتها، لم تجبني. حاولت مسك ذراعها، لكنها انتزعت ذراعها من يدي، وتركتني عند السلم.

انتظرت إطلالتها في المساء التالي أيضاً دون جدوى. وهكذا لم أستطع الذهاب إلى الشقيقتين، لأننا ذهبنا سوية لحد الآن، وبالتأكيد سيتساءلن. ثم أنني اقتنعت بما قالته البنت يوم الأحد.

في المساء رأيتها عند آل فلايشمان. لكنها تحدثت معي في البداية ببرود محسوب، ولم ينفرد وجهها قليلاً إلا عندما أجبتها على ملاحظتها بأنها تتمنى أن أكون قد قضيت وقتاً ممتعاً عند الشقيقتين بالقول: لم أكن هناك. كانت متلهفة لمعرفة السبب، فأجبتها، وهذه كانت الحقيقة، بأنني لم أشأ الذهاب دونها: رأيت أن جوابي هذا أعجبها. بعد مضي بعض الوقت بدت ميالة إلى مشاهدة الأسماك بصحبتي- وعدنا من هناك متصالحين تماماً. لاحقاً، خلال الأمسية، لم تذكر البنت القضية إلا بتعليق واحد: - هذا كان أول خصام لنا -.

٣

في اليوم التالي حصلت لي حادثة غريبة. أفقت مبكراً في الصباح، وانطلقت إلى العمل كالعادة. بدا أن النهار سيكون حاراً، وكانت الحافلة مزدحمة بالمسافرين اليوم أيضاً. خلفنا البيوت في أطراف المدينة وراءنا، وعبرنا الجسر القصير غير المزخرف الذي يؤدي إلى جزيرة تْشَبَل: من هنا يقودنا الطريق عبر أرض منبسطة مكشوفة لمسافة، إلى الشمال بناية واطئة تشبه مرآب الطائرات، إلى اليمين بيوت المشاتل الزجاجية المتناثرة، وهنا توقفت الحافلة فجأة، سمعت بعدها نتفاً من صوت آمرٍ في الخارج نقله بعدها لي المحصل وبعض الركاب، إن كان هناك يهود في الحافلة فعليهم الترجل منها. فكرت أنهم يريدون التدقيق في الوثائق بشأن عبور حدود المدينة.

وبالتأكيد وجدت نفسي قبالة شرطي وجهاً لوجه في الشارع العام. ناولته تصريحي فوراً دون أن أنبس بكلمة. لكنه وبحركة قصيرة من يده أشار للحافلة بمتابعة سيرها. فبدأت أشك بأنه ربما لم يفهم جيداً طبيعة التصريح، وتهيأت لأن أشرح له بأنني أعمل في منشأة حربية - كما يرى-، وليس لدي وقت أضيعه؛ خلال ذلك امتلأ الشارع حولي بالأصوات والأولاد، أصحابي من معمل شَل. طلعوا إلينا من خلف السد

الترابي. وتبين أن الشرطي أمسك بهم في الحافلات السابقة، وقد ضحكوا كثيراً لوصولي أنا أيضاً. حتى الشرطي تبسم قليلاً، كمن يسهم في حفل مرح لكن عن بعد؛ فأدركت على التو أنه لا يجد مأخذاً علينا- حيث لا أساس لمثل ذلك، بالطبع. استفسرت من الأولاد، ما الأمر، لكنهم لم يكونوا قد عرفوا شيئاً حتى الآن.

ثم أوقف الشرطي الحافلات القادمة من المدينة كلها، فقد وقف أمامها على مسافة معينة ملوحاً براحته المرفوعة عالياً: خلال ذلك أرسلنا نحن إلى ما وراء السد الترابي. تكرر هذا المشهد كل مرة: دهشة الأولاد الجدد الأولى، التي تحولت إلى ضحكٍ في النهاية. بدا على الشرطي الرضا. مرت ربع ساعة تقريباً على هذا النحو. كان الصباح صيفياً رائقاً، وبدأت الشمس تدفئ العشب على جانب السد الترابي - وقد شعرنا بذلك عندما تمددنا عليه-. وفي البعد لاحت بوضوح خزانات الموقع النفطي السمينة من بين الأبخرة المزرقة المتصاعدة. خلفها مداخن المعامل، وخلف تلك بان بضبابية أكثر الشكل المدبب لبرج كنيسة. نزل الأولاد من الحافلات فرادى وجماعات. وصل فتى شهير كثير الحركة حلق شعره قصيراً فبدا كأنه شويكات سوداء: "الفرّاء" كما كان يكنّيه الجميع - لأنه اختار هذه الصنعة بخلاف الآخرين الذين قدموا من مدارس مختلفة. ثم الفتى المدخن: يكاد لا يراه المرء بدون السيجارة. صحيح كان الآخرون يدخنون أيضاً، وجربتها أنا أيضاً في الآونة الأخيرة حتى لا أتخلف عن الركب؛ لكنني تنبهت إلى أنه يمارس هذه العادة بشكل آخر يكاد يكون نهماً محموماً لا حدود له. عيناه غريبتا المظهر محمومتا التعبير. وهو صموت على الأغلب، له طبيعة عصية عن المنال بشكلٍ

ما؛ وهو ليس محبوباً بين الأولاد. لكنني سألته مع ذلك ذات يوم، ما الذي يجده في هذا التدخين الكثير. فكان رده المبتسر: - إنه أرخص من المأكل-. صقعت بعض الشيء، إذ لم أفكر في سببٍ كهذا. لكن تعبير نظراته المزدري بعض الشي والذي يكاد يكون مُحاكِماً عندما لاحظ حرجي هو ما فاجأني أكثر؛ شعرت بعدم الارتياح، بالتالي لم أسترسل في استجوابه أكثر. لكني فهمت الآن الحذر الذي أبداه الآخرون تجاهه. حيا الأولاد فتى آخر بهتاف أكثر انشراحاً: كل رفقائه الأقربين أطلقوا عليه لقب "زير النساء". وقد وجدت التسمية في محلها، بسبب شعره الغامق اللامع بنعومة وعيونه الرمادية الواسعة وعلى العموم بسبب طبعه المحبوب الناعم؛ ولم أعلم أن للتسمية معنى آخر في الواقع إلا في الآونة الأخيرة، وأُلصقت به لما يشاع عنه أنه يتنقل في حياته الخاصة بين الفتيات بشطارة. ثم جلبت إحدى الحافلات "روزي": اسمه في الواقع روزنِفَلد، لكن الجميع يختصرونه على هذا النحو. ويتمتع هذا بنفوذ في أوساط الأولاد لسبب ما، واعتدنا أن نميل إلى رأيه في قضايا المصلحة الجماعية؛ وهو من كان يمثلنا دوماً عند المشرف على العمل. سمعت أنه سيتخرج من مدرسة التجارة. يذكرني وجهه الذكي لكن الطويل بعض الشيء وشعره الأشقر المجعد ونظراته الجامدة قليلاً وعيناه الزرقاوان زرقة الماء بلوحات المتاحف العتيقة، التي نرى تحتها عنوان "الأمير المتكبر " أو شيئاً من هذا القبيل. كذلك وصل موسكوفيتش، الفتى الضئيل بوجهه غير المنتظم الذي يكاد يقرب القبح وأنفه العريض مرتفع الطرف، علاوة على نظارته الغليظة التي تشبه مكبر الصوت وكأنها نظارات جدتي - إلى آخره، وصل كل الفتيان. كان رأيهم مثلما كان رأيي تقريباً

أن القضية برمتها غير اعتيادية بعض الشيء، لكن بالتأكيد حصل خطأ ما أو شيء من هذا القبيل. استفسر "روزي" من الشرطي بعدما كلفه بعض الفتيان بذلك: ألا تحدث لنا مشكلة إن تأخرنا عن العمل، ومتى سيطلقنا إلى سبيلنا. لم يغضب الشرطي من السؤال بتاتاً، لكنه أجاب أن الأمر لا يتوقف عليه وعلى تقديره الشخصي. وبدا أنه لا يعرف أكثر مما نعرف نحن: ذكر شيئاً عن "أمر لاحق" يحل محل السابق الذي يتعين بموجبه عليه وعلينا الانتظار - شرح له على العموم. بدا لنا كل ذلك، وإن كان غير واضح، أمراً مقبولاً. وعلى أية حال، ندين للشرطي بالطاعة. ثم إننا وجدنا الأمر هيناً، فلم نجد سبباً للتعامل الجدي مع الشرطي بوجود وثائقنا وختم سلطات المعمل الحربي. أما هو- كما توضح من كلماته - فقد رأى أنه يتعامل مع "فتيان أذكياء" يتمنى الاعتماد على "انضباطهم" لاحقاً كذلك، كما أضاف؛ شعرت أنه أعجب بنا. وبدا لنا ودياً هو الآخر: كان شرطياً قصيراً لدرجة كبيرة، ليس عجوزاً ولا شاباً، في وجهه الذي لفحته الشمس عيون صافية فاتحة جداً. استنتجت من بعض المفردات التي استعملها أنه قد يتحدر من الريف.

الساعة الآن السابعة: يبدأ العمل في الموقع النفطي في هذا الوقت. لم تجلب الحافلات المزيد من الفتية، عندها سأل الشرطي: أينقص أحد منكم. عد "روزي" الحاضرين، وأبلغه: كلنا هنا. عندها رأى الشرطي ألا ننتظر أكثر هنا على حافة الطريق العام. بدا عليه الهم، وشعرت بأنه لم يحسب لنا حساباً مثلما لم نحسب نحن أيضاً حساباً له. حتى إنه تساءل: - ما أصنع بكم الآن؟ -، لكننا لم نقو على مساعدته في هذا بالطبع. تحلقنا حوله من غير مبالاة، ضاحكين، كما لو كنا في سفرة

مدرسية مع معلمنا، أما هو فوقف وسط مجموعتنا، يحك ذقنه وقد بدت على محياه علامات التفكير. في الختام اقترح أن نذهب إلى مكتب الجمارك.

رافقناه إلى بناية من طابق واحد متداعية قائمة على الطريق العام وحدها قريباً: كان هذا "مكتب الجمارك" - كما أعلنته لافتة عصف بها الدهر. أخرج الشرطي حلقة مفاتيح، واختار من بين المفاتيح الرنانة العديدة ما ناسب القفل. وجدنا في الداخل غرفة باردة واسعة لكنها مقفرة لحدٍ ما، مؤثثة ببعض المصاطب وبمنضدة طويلة عتيقة. فتح الشرطي غرفة أُخرى أصغر بكثير، شكلها كالمكتب. ورأيت عبر فسحة الباب سجادة ومنضدة مكتب عليها هاتف. سمعنا الشرطي يستعمل الهاتف في مكالمة قصيرة لكننا لم نتبين كلماته. لكني أعتقد أنه استعجل تلقي الأمر، لأنه قال عندما خرج (وأغلق الباب خلفه بعناية): - لا شيء. عبثاً، علينا الانتظار-. شجعنا على الجلوس والراحة. حتى إنه سألنا ألا نعرف لعبة جماعية. اقترح أحد الفتية، " الفرّاء" على ما أذكر، اقترح لعبة المحبس. غير أن هذه اللعبة لم ترق للشرطي، قال إنه توقع شيئاً أفضل من ذلك "من فتيان أذكياء" مثلنا. تبادل معنا الطرائف بعض الوقت بينما أحسست أنه كان يجتهد في تسليتنا لربما حتى لا يتسنى لنا الوقت الكافي لإرخاء الضبط كما ذكر في الطريق العام؛ لكن ثبت فشله في مثل هذا الأمر. إذ سرعان ما تركنا لحالنا بعد أن قال عليه الذهاب لشغله. عندما ذهب، سمعنا إغلاقه الباب علينا من الخارج.

أما ما حدث بعد هذا، فمن الصعب علي روايته. بدا أن علينا الانتظار طويلاً حتى يصل الأمر. من جانبنا لم نجد القضية مستعجلة

على الإطلاق: ففي نهاية المطاف ليس وقتنا نحن الذي يضيع. كنا كلنا متفقين في هذا: من الأفضل قضاء الوقت هنا في الغرفة الباردة من تصبب العرق في العمل. لا يوجد الكثير من الظل في الموقع النفطي. واستطاع "روزي" أن يحمل المشرف على العمل أن يسمح لنا بخلع قمصاننا. صحيح أن هذا لا يتفق ونص التعليمات، لأنه لا يمكن رؤية النجمة الصفراء علينا، لكن المشرف على العمل وافق لدواعٍ إنسانية مع ذلك. لكن جلد موسكوفيتش الشاحب الذي يشبه الورق هو الوحيد الذي عانى من ذلك، لأن بشرة ظهره وحده غدت حمراء، وضحكنا كثيراً لنتف الجلد الطويلة التي كان ينتزعها منه بعد ذلك.

إذن رتبنا أمورنا، جلسنا على المصاطب أو على أرضية مكتب الجمارك العارية، ببساطة: لكن من الصعب علي الحديث بم قضينا الوقت. على أية حال سمعنا العديد من الطرائف: ظهرت السجائر، ثم بمرور الوقت صرر الأكل. وتذكرنا المشرف على العمل: قلنا إنه سيتعجب كثيراً هذا الصباح، لأننا لم نأت إلى العمل. ظهرت مسامير الحدوات للعبة "الثور" كذلك. تعلمتها هنا، بين الأولاد: يرمي الفتى مسماراً إلى الأعلى، ويربح الذي يتمكن من قبض أكبر عدد منها الموجودة أمامه في الوقت الذي يسقط فيه الأول قبل أن يلتقطه هو الآخر. ربح "زير النساء" بأصابع يده النحيفة كل الدورات. وعلمني "روزي" أغنية غنيناها عدة مرات. المثير فيها أن نصها يمكن قلبه إلى ثلاث لغات، رغم أن الكلمات هي ذاتها على الدوام: لو لحقنا بها خاتمة صوت أس تبدو كأنها ألمانية، وإيطالية إذا لحقناها بـ يو، ويابانية إن لصقت بها تاكي. بالطبع كل هذا نوع من السخافة، لكنني تسليت بذلك أيما تسلية.

ثم رأيت بعض البالغين. جلب الشرطي هؤلاء من الحافلات أيضاً، بنفس الطريقة مثلنا. هكذا فهمت، فهو عندما يتركنا يكون على الطريق العام، ويقوم بنفس الانشغال كما في الصباح. واجتمع سبعة أو ثمانية رجال على هذا النحو. لكني رأيتهم قد سببوا للشرطي الكثير من الصداع: عبروا عن عدم تفهمهم، هزوا رؤوسهم، حاولوا الشرح وأروه وثائقهم، أزعجوه بالأسئلة. واستفسروا عنا أيضاً: من نحن وما نحن؟ لكنهم انشغلوا ببعضهم البعض بعد ذلك؛ أعطيناهم زوجاً من المصاطب، جلسوا عليها منكمشين أو داروا حولها بخطوات قصيرة. تحدثوا في العديد من الأمور، لكني لم انتبه إليهم كثيراً. حاولوا بالدرجة الأولى معرفة سبب الإجراءات التي يقوم بها الشرطي، وما هي عواقب هذا الحدث عليهم: واختلفوا في ذلك كما سمعت، فكان عدد الآراء بعددهم. اعتمد ذلك كما رأيت على نوع الوثائق التي حملوا، لأنهم جميعاً كانوا بالطبع يحملون أوراقاً تخولهم الذهاب إلى تْشَبَل كما فهمت، منهم من ذهب إلى شغله، ومنهم من ذهب للعمل في الخدمة المدنية العامة، مثلي.

لمحت بينهم بعض الوجوه المثيرة مع ذلك. مثلاً تنبهت إلى أن أحدهم لم يشترك في الحديث؛ بدلاً من ذلك كان يقرأ كتاباً بدا أنه كان معه. كان إنساناً طويلاً جداً ونحيفاً، عليه معطف مطري أصفر، على وجهه غير الحليق جعدتان عميقتان مظهرهما يشير إلى مزاج سيئ وبينهما فم حاد التقاطيع. اختار لنفسه محلاً للجلوس في نهاية إحدى المصاطب قرب الشباك، وأدار ظهره جزئياً للآخرين واضعاً ساقاً على أخرى: ربما كان ذلك ما جعل صورة مسافر اعتاد حجرات القطار تخطر ببالي، المسافر الذي لا يعتقد بفائدة الكلمة والسؤال والتعارف المعتاد بين رفاق

السفر العابرين، فتحمل الانتظار بسَكينة ضجرة إلى أن نصل هدفنا - أثار هذه الفكرة في داخلي على الأقل.

تنبهت إلى رجل حسن الطلعة أكبر سناً، فضي الفودين أصلع عند قمة الرأس فور وصوله - قبل الظهر بكثير -: احتج كثيراً عندما أدخله الشرطي القاعة. حتى إنه سأل، أيوجد هاتف هنا، وهل يستطيع "استخدامه"؟ بيد أن الشرطي أفهمه بأنه يأسف لكن الجهاز "يستعمل لأغراض الخدمة حصراً"؛ عندها صمت مع اهتزاز غاضب في وجهه. لاحقاً علمت، عندما أجاب مقتصداً في الكلمات بعد الاستفسار من الباقين، بأنه يعمل مثلنا في أحد معامل تْشَبَل: قال عن نفسه إنه "خبير"، لكنه لم يسترسل في تفصيل ذلك. بيد أنه بدا شديد الثقة بنفسه، ورأيت أن نظرته للأمور قد تكون مماثلة لنظرتنا عموماً، مع فارق، هو أن هذا التأخير قد أهانه. لاحظت أنه تحدث عن الشرطي دوماً باستصغار وبشيء من عدم الاهتمام. قال بأن الشرطي يحمل "توجيهات عامة على ما يبدو"، وهو على الأرجح "ينفذها باندفاعٍ زائد". لكنه رأى أن النظر في القضية سينجزه "المسؤولون عن الأمر"، ويأمل أن يحدث ذلك بأسرع وقت - أضاف-. بعد هذا لم أسمع صوته، ونسيت أمره. ولم أنتبه له بشكل عابر إلا بعد الظهر، لكنني كنت قد تعبت، فلم أنتبه إلى فقدانه صبره إلا بصعوبة: فمرة يجلس، وتارة يقوم، ومرة يعقد ذراعيه على صدره، ومرة خلف ظهره، وتارة ينظر إلى ساعته.

ثم كان هناك رجل غريب الشكل، بأنف مميز وحقيبة ظهر كبيرة يلبس ما يسمى "سروال غولف" وبسطالاً هائل الحجم؛ حتى نجمته الصفراء بدت عليه أكبر من المعتاد. لاح على هذا القلق أكثر من

الآخرين. تشكى للجميع من "سوء طالعه" بشكل خاص. وتمكنت تقريباً من حفظ حالته، لأنها كانت قصة بسيطة، وقد كررها عدة مرات. كان يود زيارة أمه "المريضة جداً" في قضاء تْشبَل - هكذا قصَّ علينا. طلب تصريحاً خاصاً من السلطات، كان معه، أرانا إياه. اقتصر التصريح على اليوم الجاري، لغاية الساعة الثانية بعد الظهر. لكن شيئاً اعترضه، وصفها قضية "لا تقبل التأجيل"، وأضاف "بسبب الصنعة". لكن كان هناك أناس آخرون في المكتب الحكومي، وهكذا لم يأته الدور إلا بعد وقت طويل. وقال - بدأ يشعر أن كل الرحلة باتت مهددة بالفشل. لذلك تعجل في ركوب الترام للوصول إلى آخر محطة للحافلة حسب خطته الأصلية. لكنه وزن أثناء المسير وقت الذهاب والإياب مع الموعد النهائي المسموح به، وحسب حسابه: أصبح من المجازفة المباشرة بالرحلة. وعند وصوله نهاية خط الترام رأى أن حافلة منتصف النهار لم تنطلق بعد. وكما علمنا منه، فكر عندها: - كم من الجهد مبذول في هذه الوريقة الصغيرة! .. ومسكينة أمي، تنتظرني - أضاف-. ذكر أن السيدة العجوز سببت له ولزوجته الكثير من الهم. فهم يطلبون منها منذ وقت طويل أن تنتقل عندهم، في المدينة. لكن الأم مانعت وأصرت، إلى أن مضى الوقت وفات الأوان. هزّ رأسه كثيراً، لأنه كان يعتقد أن السيدة العجوز كانت متشبثة ببيتها "بأي ثمن". - رغم أنه لا يحوي حتى على مرافق صحية - علق على ذلك. لكن - استرسل في حديثه - يجب أنه نفهمها، لأنها أمه. والمسكينة مريضة ومتقدمة في السن، أضاف. وقال، "إنه شعر، لن يغفر لنفسه" إن ضاعت هذه الفرصة. وهكذا صعد إلى الحافلة. هنا صمت برهة. رفع يده، ثم أرخاها ببطء في حركة تنم عن

العجز، بينما ظهرت على جبينه آلاف الغضون الصغيرة المستفسرة: كان أشبه بحيوانٍ قارضٍ حزينٍ سقط في فخ. ماذا تعتقدون - سأل الباقين - أيلقى ما لا يسر جراء ذلك؟ وهل يأخذون في الاعتبار أن تخطيه الوقت المسموح حصل دون إرادة منه؟ ترى، بم ستفكر أمه التي أخطرها بمجيئه، وزوجته وطفلاه في البيت إن لم يعد في الساعة الثانية؟ لاحظت من نظراته بالدرجة الأولى، أنه كان ينتظر بشأن هذه التساؤلات رأياً أو تصريحاً من الرجل السابق مهيب المنظر، "الخبير". لكن هذا لم ينتبه له كثيراً، كما رأيت: كانت في يده سيجارة استلها منذ برهة، وضرب نهايتها على غطاء محفظته الملتمعة بانعكاس فضي منقوش بحروف وخطوط. رأيت في وجهه تعبيراً مستطرقاً غارقاً في فكرة ما بعيدة، وبدا أنه لم يسمع شيئاً من كل القصة. وعاد صاحبنا إلى سوء طالعه: لو وصل نهاية خط الحافلة متأخراً خمس دقائق لما أدرك حافلة منتصف النهار؛ لو لم يجدها واقفة، فلن ينتظر التالية؛ وهكذا - مفترضين أن كل هذا يحدث "بسبب فارق خمس دقائق" - "لما جلس هنا، بل في بيته" - كرر في شرحه.

ثم أتذكر كذلك رجلاً بوجه الفقمة: قوي الجسد ممتلئاً، عليه شوارب سوداء ونظارة ذهبية الإطار، وأراد "الحديث" مع الشرطي على الدوام. هو الآخر لم يفلت من انتباهي عندما حاول ذلك على انفراد، بعيداً عن الآخرين بعض الشيء، عند إحدى الزوايا أو الباب قدر الإمكان. - السيد الشرطي - سمعت أحياناً صوته المختنق الأبح -، هل أستطيع التحدث مع حضرتك؟ - أو: - من فضلك أيها السيد الشرطي .. كلمة واحدة، لو سمحت .. - إلى أن سأله الشرطي عن مبتغاه. عندها بدأ

يتردد. في البدء جال بنظارته الملتمعة حواليه سريعاً في شك. ورغم أنهما كانا في الزاوية القريبة مني هذه المرة، لم أفهم شيئاً من الدمدمة الخافتة: بدا أنه يحاول بقوة إثبات شيء ما. ثم ظهرت على محياه ابتسامة أكثر خصوصية فيها بعض الحلاوة. في نفس الوقت انحنى على الشرطي مقترباً قليلاً في البداية، ثم زاد من تقربه شيئاً فشيئاً. وخلال ذلك وفي نفس الوقت انتبهت إلى حركة غريبة قام بها. لم أفهم الأمر بشكل واضح: في البداية رأيت أنه تهيأ لمد يده في جيبه الداخلي لأخذ شيء ما. وخلت من أهميتها أن حركته ترنو إلى أنه يود إبراز وثيقة هامة، وثيقة غير اعتيادية أو خاصة ليريها للشرطي. لكني انتظرت دون طائل، لأن حركته هذه لم ينجزها إلى النهاية. لكنه بالمقابل لم يتوقف عنها تماماً: بالأحرى تعلقت حركته، فجأة، أكاد أقول إنه أوقفها وهي في عنفوانها. في النهاية أشار بيده من الخارج على صدره ومررها عليه وعبث بأصابعه بعض الوقت، كما لو كان يبحث عن شقٍ ينفذ عبره إلى ما تحت معطفه. خلال ذلك كان يتحدث، وتسمرت ابتسامته على وجهه. كل هذا لم يستغرق سوى ثوان معدودات، تقريباً. ولم أر بعدها سوى أن الشرطي أنهى المحادثة بسرعة وثقة واضحة، حتى إنه عنّفه بعض الشيء كما لاحظت: ورغم أني لم أفهم الكثير مما حدث، بدا لي بشكل يصعب تفسيره، أن مسحة من الشك شابت تصرفه.

لم أعد أذكر الوجوه والحوادث الأخرى كثيراً. على أية حال، خفت حدة قدرتي على الملاحظة بمرور الوقت. يمكنني أن أقول فيما عدا ذلك، إن الشرطي استمر في التعامل الطيب معنا نحن الأولاد. لكن حسبما أحسست غدا تعامله مع البالغين أقل لطافة. وبحلول ما بعد الظهر بدأ التعب يأخذه

هو الآخر. وكثيراً ما جاء للتبرد بيننا أو في غرفته دون أن يهتم للحافلات التي تذهب خلال ذلك الوقت. سمعت أنه حاول استعمال الهاتف بعض المرات، وأبلغنا في بعض الأحيان النتيجة: - لا شيء بعد -، بيد أن عدم الرضا بدأ ينعكس على وجهه أكثر فأكثر. وأتذكر شيئاً آخر. حدث ذلك بعد الظهر بقليل: زاره زميل له، شرطي آخر جاء على دراجة هوائية. أوقفها في الخارج، وأسندها إلى الحائط. ثم انزوى الاثنان في الغرفة وأغلقا الباب وراءهما بأحكام. لم يخرجا إلا بعد مرور وقت طويل. ودعا بعضهما البعض طويلاً عند الباب. لم يتحدثا، لكنهما بينما كانا ينظران لبعضهما البعض، هزا رأسيهما بطريقة تشبه ما رأيته في مكتب أبي في الماضي بعد أن تباحث التجار في شأن الأوقات الصعبة وحالة السوق الراكدة. بالطبع، اقتنعت أن ذلك غير محتمل عند رجال الشرطة: لكن مع ذلك، هذه الذكريات هي ما خطر ببالي عند رؤية وجهيهما، نفس المزاج المعروف المهموم بعض الشيء، ونفس التسليم القسري باستحالة تغيير مصير الأمور. لكني بدأت أحس بالإعياء: ولم أعد أذكر من الوقت المتبقي سوى أنني شعرت بحرارة الجو، وضجرت، ونعست قليلاً.

يمكنني القول إن النهار انقضى كله. وجاء الأمر أخيراً، في الساعة الرابعة تقريباً، بالضبط كما وعدنا الشرطي. نصّ بأن ننطلق لمقابلة "السلطات العليا" من أجل إبراز وثائقنا - هكذا أعلمنا الشرطي. أبلغوه الأمر بالهاتف، فقد سمعنا أصواتاً انطلقت من غرفته تشير إلى حدوث تغيير ما: رن الجهاز عدة مرات باستعجال، ثم طلب هو أيضاً الخط حتى يتحدث وينجز بعض القضايا لفترة قصيرة. ورغم أنهم لم يبلغوه بشكل كامل ومضبوط، قال الشرطي كذلك إن الأمر لا يتعدى حسب تقديره

هذه الشكليات البسيطة كما يبدو، على الأقل من وجهة نظر القانون في الحالات الواضحة والتي لا تقبل الشك مثلما هي حالتنا.

انطلق الطابور منتظماً بصفوف ثلاثة عائداً صوب المدينة، في آن واحد من كل نقاط الحدود في المنطقة - كما تأكد لنا ذلك خلال الطريق. فعندما عبرنا الجسر التقينا عند بعض المنعطفات وتقاطعات الطرق بجماعات أخرى من قليل أو كثير من ناس يضعون على صدورهم نجوماً صفراء برفقة شرطي أو شرطيين، بل ثلاثة من رجال الشرطة في إحدى المرات. تعرفت على الشرطي صاحب الدراجة بين واحدة من هذه الجماعات. ولاحظت أيضاً أن رجال الشرطة حيى بعضهم البعض بنفس التحية القصيرة التي تشبه تحيات العمل، كما لو أنهم تحسبوا مقدماً لهذه اللقاءات، وفهمت عندها بالضبط الإجراءات التي قام بها شرطينا عبر الهاتف: هكذا نسق بعضهم الموعد مع بعض على ما يبدو. وفي آخر المطاف وجدت نفسي أسير وسط طابور كبير أحاط به من الجانبين رجال شرطة تفصل بينهم بعض المسافة. كانت عصرية صيفية صافية، امتلأت الشوارع بالجموع الملونة كما هي الحال في مثل هذه الساعة دوماً؛ لكنى لم أر ذلك إلا بشكل ضبابي. وسرعان ما فقدت إحساسي بالاتجاهات، لأننا قطعنا شوارع غريبة لا أعرفها على الأغلب. ثم إن تزايد الشوارع التي مررنا بها وتعاظم حركة المرور، وخاصة ذلك الشعور الثقيل الذي يفرزه طابور متراص يغذ الخطى في تلك الظروف، كل ذلك شغل انتباهي بشدة، وسرعان ما أجهدني. لا أذكر من طريقنا الطويل سوى فضول السابلين على الأرصفة، الفضول العاجل المتردد الذي يكاد يكون خلسة عند رؤية طابورنا (سلاّني الأمر في البداية، لكني لم أعد أهتم له بمرور

الوقت)، وبالطبع أتذكر كذلك مشهداً لاحقاً، يثير الاضطراب. سرنا وقتها في شارع عريض من شوارع أطراف المدينة كثير الحركة؛ يتلاطم حولنا سيل الزحام وضجيجه لا يحتمل؛ وفي لحظة ما شقت عربة ترام صفوفنا، أمامي بقليل لكن لا أعرف كيف. اضطررنا للتوقف لتلك اللحظة التي عَبَرَتنا خلالها - عندها لمحت فجأة التماع قطعة ثياب صفراء، في الأمام، وسط غمامة الغبار والضوضاء ودخان السيارات: كان ذلك "المسافر". قفز قفزة طويلة واحدة، اختفى بعدها بين زحمة العربات والناس. صعقت بشدة: كل ذلك لم ينسجم مع تصرفه في مكتب الجمارك بشكلٍ ما كما قدّرت. بيد أنني شعرت بشيء آخر خلال ذلك، بالمفاجأة السارة لبساطة ذلك الأمر: رأيت كذلك بعض الجسورين الذين حذوا حذوه هناك في الأمام. تلفّتُ حولي أنا أيضاً، كنوع من المشاركة في اللعبة لا غير، إن صح القول - لأنني لم أعثر على سبب للهرب بجلدي -، وأعتقد أنه كان هناك متسع من الوقت الكافي للقيام بذلك: ورغم هذا، أثبت الشعور بالاستقامة أنه الأقوى بين دواخلي. بعد ذلك تصرف رجال الشرطة، وانغلق الطابور حولي مجدداً.

سرنا لبعض الوقت، بعد ذلك حصل كل شيء فجأة وبمنتهى السرعة، وبشكل يثير الدهشة قليلاً. انعطفنا في شارع ما، فرأيت أننا قد وصلنا، لأن الطريق استمر بعد بوابة فتح مصراعاها على وسعهما. وانتبهت عندها إلى أن أشخاصاً آخرين حلوا محل رجال الشرطة على جانبي الطابور بعد دخولنا البوابة ملابسهم كالجنود، لكن قبعاتهم زينها ريش: كانوا جندرمة. اقتادونا في متاهات بين أبنية كئيبة أعمق فأعمق حتى ساحة فسيحة نثرت بحصى أبيض ظهرت فجأة - شيء من قبيل ساحة ثكنات، على ما يبدو. لمحت فوراً شكل شخص طويل صارم المظهر

وهو يجد في مسيره نحونا من البناية المقابلة. ارتدى جزمة طويلة الساق وبذلة رسمية تليق بجسمه ونجوماً ذهبية وحزاماً جلدياً شُدّ مائلاً على صدره. رأيت في إحدى يديه عصاً نحيفة مثل تلك التي يستعملها الخيالة كان يضرب بها ساق جزمته المدهونة اللامعة بشكل متواصل. بعد مضي دقيقة، وبينما كنا في صفوف صامتة ننتظر، وجدت كذلك أنه شخصٌ وسيمٌ، مفتول العضلات، ويذكّرني قليلاً بأبطال الأفلام الجذابين، ملامحه رجولية، شواربه بنية قصيرة حُددت بشكل عصري تتلاءم كثيراً مع وجهه الذي اسمر من الشمس. عندما اقترب أكثر، سمّرتنا إيعازات الجندرمة في مكاننا. وبقي في مخيلتي بعد هذا انطباعان تلا بعضهما البعض بسرعة: فاجأني الصوت الأجش لصاحب عصا الخيالة الذي يشبه صوت منادٍ في الأسواق بعد رؤية مظهره الخارجي الأنيق بحيث لم أعد أذكر الكثير من كلماته، لربما لهذا السبب. أذكر مع ذلك، أنه يعتزم القيام بـ "الفحص" - وقد استعمل هذا التعبير- في قضيتنا غداً، بعدها استدار إلى جندرمته وأوعز إليهم بصوت ملأ الساحة أن يأخذوا لحين ذلك "كل عصابة اليهود" حيثما يستحقون حسب رأيه، أي إلى إسطبل الخيول، ويغلقوا عليهم هناك لقضاء الليل. انطباعي الثاني كان الهرج الذي علا فيه صوت الإيعازات والارتباك، وترتيبات الجندرمة الذين أفاقوا فجأة وساقونا وهم يصرخون. لم أعرف إلى أين أتجه، أذكر فقط أنني خلال كل ذلك كنت أرغب في الضحك، من جهة بسبب التعجب والارتباك ومن ذلك الشعور بأنني وجدت نفسي بدون تحسب مسبق في لجة مسرحية خيالية لا أعرف فيها دوري بالضبط، من جانب آخر بسبب فكرة عابرة مرقت مسرعة في مخيلتي: كان صورة وجه زوجة أبي عندما تتيقن هذا المساء بأنها تنتظرني على العشاء دون طائل.

٤

في القطار كان الماء أكثر شيء افتقدناه. بدا أن خزين الطعام كافٍ لفترة طويلة؛ لكن لم يكن هناك ما نشرب، وهذا شيء مزعج بالتأكيد. قال الناس في القطار فوراً: العطش الأول يزول سريعاً. وفي الآخر نبدأ بنسيانه: عندها يظهر مجدداً - في ذلك الوقت لا يمكن أن تجد سبباً لنسيانه، حسبما قالوا. افترض العارفون أن ستة أو سبعة أيام حتى لو أخذنا الطقس الحار في الحسبان هي الوقت الذي يمكن للمرء أن يبقى دون ماء، شرط أن يكون في صحة كاملة ولا يتعرق كثيراً ولا يأكل لحماً أو توابل قدر الإمكان. شجعونا لهذا الحين - هناك متسع من الوقت؛ كل شيء يعتمد على طول الطريق، أضافوا.

كنت متلهفاً لمعرفة ذلك: لم يقولوا لنا شيئاً في معمل الآجر، أشاروا فقط إلى أن من لديه الرغبة يمكنه التقدم للعمل، في ألمانيا. ومثل الأولاد الآخرين وغيرهم في معمل الآجر، وجدت الفكرة جذابة أنا أيضاً. علاوة على ذلك - كما قال أناس من الهيئة المسماة "المجلس اليهودي" حسبما تعلنه الأشرطة على أذرعهم -سينقلون الجميع من معمل الآجر إلى ألمانيا بشكل أو آخر، بمعسول الكلام أو بالقوة، عاجلاً أم آجلاً، وسيكون للمتطوعين الأوائل مكانٍ أفضل، فوق ذلك سينعمون

بمزايا السفر ستين شخصاً في العربة الواحدة، بينما سيتحتم على ما لا يقل عن ثمانين أن يجدوا لهم مكاناً في العربة، نظراً للنقص في العربات - كما شرحوا للجميع: في الحقيقة لم يتوفر مجال للتفكير، ووجدت ذلك أنا أيضاً.

لكنني لم أناقش صحة الحجج الأخرى التي تناولت ضيق المكان في معمل الآجر ونتائج ذلك البادية على مجال الصحة، زيادة على مشاكل الإطعام المتكاثرة: هذا صحيح، وأشهد على ذلك أنا أيضاً. عندما وصلنا من ثُكنة الجندرمة (ذكر الكثير من البالغين أنها "ثُكنة أندراشي للجندرمة")، وجدنا أن كل زوايا معمل الآجر قد حشرت بالناس. وجدت بينهم رجالاً ونساء وأطفالاً من مختلف الأعمار وعدداً لا يحصى من كبار السن، من الجنسين. تعثرت بالأغطية والأكياس وكل أنواع الحقائب والصرر والرزم حيثما وضعت قدمي. كل هذا وغيره من صغائر الهم والإزعاج والبلايا وما يرافق حياة الجماعة من هذا القبيل أتعبني على ما يبدو بدون مفر بالطبع. وجاء فوق كل هذا الشعور الغبي بالفراغ والجمود، والضجر كذلك؛ لا أذكر من الأيام الخمسة التي قضيتها هنا الشيء الكثير، لا أذكر حوادث الأيام كلاً على حدة، وبمجموعها أكاد لا أذكر سوى بعض التفاصيل. أذكر في كل الأحوال الارتياح لوجود جميع الأولاد حولي: "روزي"، "زير النساء"، " الفرّاء"، الولد المدخن، موسكوفيتش وجميع الآخرين. رأيت أن أحداً منهم لم ينقص: هم أيضاً كانوا يتحلون بالاستقامة. لم يحصل لي شأن يذكر مع الجندرمة في معمل الآجر: إذ لم أرهم على الأغلب إلا خارج السور يحرسون، وقد اختلطوا هنا وهناك برجال الشرطة. تحدثوا عن هؤلاء أيضاً في معمل

الآجر، وقالوا إنه يمكن التفاهم معهم بشكل أفضل من الجندرمة، ويميلون إلى التعامل الإنساني مقابل اتفاقات أولية معينة، أو نقود أو حتى أي شيء آخر ثمين. بالدرجة الأولى كلفهم الكثيرون بتوصيل رسائل أو أخبار حسبما سمعت، لا بل إن بعض الناس أكدوا أنه حتى فرصة الهرب ممكنة أحياناً عن طريقهم: لكنهم أضافوا أن ذلك أمر نادر وفيه مجازفة؛ وكان من الصعب السماع عن شيء مؤكد حول ذلك. لكني تذكرت وفهمت بشكل مضبوط تقريباً على ما أعتقد ما أراد الرجل ذو وجه الفقمة التحدث به مع شرطينا في مكتب الجمارك. وهكذا عرفت أيضاً أن شرطينا كان مستقيماً بالمقابل. هذه الحقيقة فسرت ما رأيت، إذ التقيت في زحمة الوجوه الغريبة في معمل الآجر بضع مرات الرجل ذا وجه الفقمة وأنا أتخايل في الساحة أو أقف في طابور أمام المطبخ العمومي.

ووجدت أيضاً الرجل عاثر الحظ، وهو كذلك من بين وجوه مكتب الجمارك: غالباً ما جلس بين "الشباب" كي "يترفه قليلاً" - حسبما قال. وقد وجد مكاناً للنوم قريباً منا على ما يبدو، في واحدة من الأبنية الكثيرة المتشابهة المسقفة بألواح عازلة لكن المفتوحة من جوانبها الأربعة المتناثرة في الساحة، والتي كانت تستعمل في الأصل لتجفيف الآجر كما سمعت. بدا عليه التعب، وبانت على وجهه بقع ملونة من أورام وكدمات، وعلمت منه أيضاً أن ذلك كان نتيجة التحقيق معه عند الجندرمة: فقد عثروا على أدوية وأغذية في حقيبة ظهره. وفشلت محاولات تفسيره سبب ذلك: كانت بقايا خزين قديم له كان ينوي تقديمها لأمه المريضة، فقد اتهموه كما هو واضح بممارسة الاتجار بها في السوق

السوداء. لم تشفع له الموافقة التي يحمل، ولا كونه يحترم القانون دوماً ولم يخرق منه حرفاً أبداً، كما قص علي. - أسمعتم شيئاً؟ ما سيجري لنا؟ - اعتاد الاستفسار. وذكر عائلته مجدداً، وبالطبع حظه العاثر. كم من الجهد بذله للحصول على الموافقة، وكم سعد بها - استذكر وهو يهز رأسه-؛ بالتأكيد لم يتوقع "هذه الخاتمة" للأمر. كل شيء انقلب خلال الدقائق الخمس تلك. لولا حظه السيئ ... لو الحافلة لم .. - سمعت هذه الأفكار منه. غير أنه كان راضياً على العموم بالعقاب الذي لاقاه.

- جاء دوري في النهاية، ربما كان ذلك لحسن حظي - حكى لي - فقد بدأوا يستعجلون-. في المحصلة النهائية فإنه "قد تجنب الأسوأ" - أجملَ كلامه، وأضاف أنه "رأى حالات أقبح" عند الجندرمة، وكان هذا صحيحاً، إذ تذكرت ذلك أنا أيضاً. حذرنا الجندرمة في صباح يوم التحقيق - لا يصدقن أحد منكم أنه يستطيع إخفاء ذنوبه أو نقوده أو أشياءه الذهبية والثمينة عن أعيننا. وعندما جاء دوري، تعين أن أضع أنا أيضاً أمامهم على منضدة نقوداً وساعة وسكينة جيب وكل ما أملك.

وفتشني من الإبط حتى نهاية سروالي القصير دركي ضخم بحركات سريعة لاحت فيها الخبرة. في الطرف الثاني للمنضدة رأيت الملازم الأول - فقد تبين من كلام الجندرمة بين بعضهم البعض أن اسم صاحب عصا الخيالة كان الملازم أول سَكال. لمحت على الفور دركياً بقميص قصير الكم وشوارب قصيرة مظهره كالقصّاب يقف إلى يساره وبيده شيء أسطواني الشكل يثير الضحك لأنه يذكرني بشوبك المطبخ. كان الملازم الأول في غاية اللطف: سألني عن وثائقي، لكنني لم ألمس أي تأثير بدا عليه لرؤية هويتي الشخصية. فوجئت، بيد أنني رأيت أنه من الأذكى

ألاّ أحتج على أي شيء بطبيعة الحال - خاصة لو وضعنا في الحسبان حركة الدركي صاحب الشوارب القصيرة المتوعدة بدون لبس، الداعية للانصراف بسرعة وبلا اعتراض.

بعد هذا أخرجنا الجندرمة من الثُكنة جميعنا، وحشرونا في عربات ترام خاصة في البداية، ونقلونا إلى ظهر سفينة عند نقطة معينة على الدانوب، وسرنا على الأقدام لمسافة بعد أن رست سفينتنا - هكذا وصلت في الواقع إلى معمل الآجر، بشكل أدق إلى "معمل آجر بوداكالاس[٤]" كما عرفت في عين الموقع.

سمعت الكثير عن الرحلة في ظهيرة التقدم للتطوع. وتواجد الأشخاص ذوي شريط الذراع في كل مكان، وأعطوا أجوبة على كل الأسئلة. توجهوا على الأغلب إلى الشباب والمتحمسين والذين كانوا وحيدين. لكنهم أكدوا لمن استفسر منهم كذلك أن هناك مجالاً للنساء والصغار والمسنين، ويمكنهم أخذ كل أمتعتهم معهم. لكن السؤال الرئيسي بنظرهم كان: أنرتب الأمر فيما بيننا بما يمكن من التعامل الإنساني، أم ننتظر لحين يطبق الجندرمة القرار علينا؟ إذ أنهم شرحوا لنا: يجب على الشحنة أن تنطلق في كل الأحوال، وفي حال عدم اكتمال لائحتهم، سينجز الجندرمة تجميع الناس: وبالتأكيد رأى الكثيرون، حتى أنا، أن الحالة الأولى هي الأفضل بالنسبة لنا كما هو واضح.

ووصلت مسامعي سريعاً الكثير من الآراء المختلفة عن الألمان كذلك. فقد قال الكثيرون، خاصة بين كبار السن الذين يتمتعون بالخبرة، بأن الألمان مهما كان رأيهم في اليهود، فهم في الجوهر - كما يعرف ذلك الجميع - ناس نظيفون شرفاء يحبون النظام والدقة والعمل، ويحترمون

في الآخرين من يجدون فيه هذه الصفات؛ وهذا توافق كثيراً أو بالكامل مع ما كنت أعرفه عنهم، وفكرت بأنني سأجد عندهم منفعة في ما تعلمته في الثانوية من بعض لغتهم. لكن بالدرجة الأولى أملت في الحصول من العمل على الانتظام والانشغال والانطباعات الجديدة وبعض المزاح: ولكن في الجوهر كنت أودُّ الحصول على حياة أغنى معنى تلائم مزاجي أكثر من هذه التي نحيا هنا، كما وعدونا وكما تصورنا نحن الفتيان فيما بيننا بشكل طبيعي؛ إلى جانب ذلك خطر ببالي أنه بهذه الطريقة سأرى عالماً آخر. وبصراحة، لو نظرت إلى بعض أحداث الأيام الأخيرة: إلى الجندرمة، لكن بالدرجة الأولى إلى بطاقتي الشخصية، وبالأخص إلى العدالة، لم يقعدني حب الوطن، لو أخذنا هذا الشعور في نظر الاعتبار.

وكان هناك المتشككون، الذين اطلعوا على الأمور بشكل آخر، وادعوا معرفة خصال ثانية للألمان؛ وآخرون طلبوا منهم نصيحة أفضل؛ وآخرون غيرهم دعوا إلى الانصياع لكلمة العقل وضرب المثل والتصرف اللائق أمام السلطات بدلاً من المشاحنات - تجادلوا من حولي في الساحة بشأن كل هذه الحجج والحجج المضادة، ومختلف الأخبار والمعطيات والمعلومات دون توقف، في جماعات لا تلبث أن تتجمع من جديد على الدوام بعد أن تتفكك وتنحل. وسمعتهم يذكرون الرب أيضاً بين جملة ما يذكرون، و"مشيئته اللا محدودة" - حسبما عبر عن ذلك أحدهم. وكما تحدث العم لايوش يوماً، تحدث هذا أيضاً عن القدر، قدر اليهود، وأن تفسير سبب البلايا التي هبطت علينا هو "ابتعادنا عن الرب"، تماماً كما قال العم لايوش. ومع ذلك أثار بعض اهتمامي بوقفته

القوية المماثلة لقوة بدنه، وبوجهه غير الاعتيادي الذي ميزه أنف نحيف لكن منحنٍ بقوس كبير وعيون لامعة جداً مدمعة وشوارب جميلة زينتها شعيرات بيضاء وذقن مدور قصير نما معها. وجدت أن الكثيرين تحلقوا حوله وكانوا متلهفين لسماع كلماته. ولم أعلم إلا لاحقاً، بأنه كان رجل دين، لأنني سمعتهم يلقبونه "السيد الحاخام". واختزنت بعض كلماته وتعابيره الغريبة، مثلاً في هذا الموضع الذي قال فيه "لأن العين التي ترى والقلب الذي يشعر" يدفعانه إلى ذلك التنازل حيث "يمكننا النقاش هنا على الأرض في مقدار الحكم" - وعندها تحشرج صوته الذي اعتاد أن يكون صافياً مدوياً، واختنق للحظة، بينما أدمعت عيناه أكثر من المعتاد بشكل ما؛ لا أدري لماذا انتابني هذا الشعور الغريب أنه كان يود قول شيء آخر في الأصل، وكلماته هذه فاجأته هو ذاته قليلاً. لكنه واصل كلامه بأنه "لا يريد إطراء نفسه" كما عبّر. يعرف تماماً، ويكفي أن ينظر حوله "في هذا المكان التعس ويمحص في الوجوه التعسة"، حتى يقتنع بمقدار ثقل مسؤولياته - كما قال، وفاجأني رثاؤه هذا، لأنه هو ذاته كان في عين هذا المكان -. لكن ليس من أهدافه أن "يكسب الأرواح إلى الخالق الأزلي" لأنه لا حاجة لذلك، فكل أرواحنا تنبع منه، كما قال. إلى جانب كل ذلك دعانا كلنا: - لا تخاصموا الرب! -، ليس لأن ذلك خطيئة بالدرجة الأولى، بل على الأقل لأن هذا الدرب "يقود إلى نفي المعنى السامي للحياة"، إذ أننا لا نستطيع العيش مع "هذا النفي في قلوبنا". لربما كان مثل هذا القلب من دون ثقل، لأنه فارغ، كأنه بادية مقفرة، كما قال؛ لكنه ثقيل، ومع ذلك فالطريق الوحيد لنيل العزاء هو رؤية حكمة الخالق الأزلي اللامحدودة حتى في المصائب، لأنه وكما قال

حرفياً: "ستأتي لحظه انتصاره، وسيتمرغ البعض بالندم ويستنجدون به وهم في التراب، أولئك الذين تناسوا عظمته". هكذا فهو يقول لنا الآن، علينا أن نؤمن بقدوم رحمته ("وليكن هذا الإيمان سندنا وينبوع قوتنا الذي لا ينضب في ساعة الامتحان هذه") وبهذا حدد لنا السبيل الوحيد لشكل معيشنا على الإطلاق. وأسمى هذا السبيل "نفي النفي" لأننا من دون أمل "نضيع" - أما الأمل فلا نستطيع اغترافه إلا من الإيمان، ومن اتكالنا الصلب على رأفة الرب بنا وفوزنا برحمته. كانت محاججته واضحة وأقر بذلك، بيد أنني لاحظت أنه لم يقل في خاتمة المطاف ما الذي علينا أن نفعل بالضبط، ولم يكن قادراً على تقديم نصيحة جيدة لمن استعجلوا طلب نصيحته: أيتقدمون للسفر الآن أم يبقون؟ - ورأيت هنا أيضاً الرجل عاثر الحظ عدة مرات: يظهر تارة في هذه المجموعة، وتارة في أخرى. لكني لاحظت أن النظرات القلقة لعينيه اللتين لا تزالان متورمتين قليلاً جالت على الدوام حول الجماعات الأخرى ومرّت على الناس الآخرين دون كلل. وسمعت صوته مرة أو مرتين عندما يستوقف شخصاً ما ليسأله بوجه متفحص متوتر مطقطقاً أصابعه: "عفواً، أتسافرون أنتم كذلك؟"، و: "لماذا؟"، و: "أتعتقدون أن ذلك أفضل، إن سمحتم بهذا السؤال؟".

في تلك اللحظة - أذكر - جاء شخص آخر أعرفه من مكتب الجمارك: تقدم "الخبير" للسفر. خلال أيام معمل الآجر لمحته هو الآخر عدة مرات. حمل مظهره مع ذلك آثار هيئته المحترمة السابقة دون أدنى شك، رغم أن ثيابه كانت مجعدة واختفت ربطة عنقه وغلب ذقنه شيب رمادي. وتجلى وصوله على الفور بجلبة، وتحلقت حوله جمهرة من الناس

المتلهفين، وانهالت عليه الأسئلة التي حاصروه بها. وسرعان ما علمت أنا أيضاً تمكنه من الحديث إلى ضابط ألماني. حدث الأمر أمام مكاتب القيادة والجندرمة وغيرها من سلطات التحقيق، حيث لاحظت في الأيام الأخيرة أنا أيضاً اختفاء أو ظهور زي رسمي ألماني بسرعة البصر. وفهمت أنه حاول قبل ذاك الحديث مع الجندرمة. حاول "الاتصال بشركته" كما قال. لكننا علمنا أن الجندرمة "رفضوا باستمرار" حصوله على هذا الحق، في الوقت الذي "يدور فيه الحديث عن معمل حربي"، وأن "إدارة الإنتاج مستحيلة بدونه"، وهو شيء اعترفت به السلطات، مع أنهم "سلبوه" في مركز الجندرمة الوثيقة التي تثبت ذلك أسوة بغيرها من الأشياء: فهمت كل ذلك بصعوبة، لأنه قاله بشكل متقطع بين أجوبته على الأسئلة التي قاطعت بعضها البعض. بدا عليه السخط الشديد. لكنه علق بقوله "لا يرغب في ذكر تفاصيل القضية". ولهذا السبب توجه إلى الضابط الألماني. كان الضابط يتهيأ للانصراف لتوه. علمنا منه أنه كان قريباً بالصدفة. - وقفت أمامه - قال. كان هناك الكثير ممن شهد الواقعة، وذكروا كذلك جرأته. غير أنه، وبهزة من كتفه، قال تعليقاً على ذلك إن الوصول إلى نتائج لا يتم دون مجازفة، وإنه "يريد أخيراً الحديث مع شخص مسؤول" في كل الأحوال. أنا مهندس - استمر في حديثه. - وألماني كامل - أضاف. كل هذا قاله للضابط الألماني كذلك. شرح له كيف "عطلوه عن عمله معنوياً وفعلياً"، وبحسب كلماته: "دون أي سبب أو مقتضى قانوني، حتى في ظل الأحكام النافذة الآن أيضاً". - لكن من يجني فائدة ذلك؟ - وجه السؤال للضابط الألماني. قال له كما أوضح لنا نحن أيضاً الآن. - لا أطمع في مكاسب أو امتيازات، لكنني رجل

مهم ولدي صنعة مهمة: أرغب في العمل حسب مؤهلاتي، هذا كل ما أريد -. بعد هذا أعطاه الضابط نصيحة، بأن يسجل اسمه مع المتقدمين للسفر. لم يعطه "وعداً كبيراً"، لكنه طمأنه: ألمانيا في حاجة ماسة للجميع الآن، وبالخصوص لخبرة أمثاله من المؤهلين. ولذلك يشعر بأن ما قاله الضابط من "موضوعية" يحمل "صراحة وواقعية" - عبر عن ذلك بهذه الكلمات. وخص "أسلوب" الضابط كذلك بالكلمات التالية: على العكس من "وقاحة" الجندرمة، فقد وجده "رصيناً، معتدلاً، ولا غبار عليه من كل الجوانب" كما وصفه. وأقر في جوابٍ على سؤال آخر "من البديهي لا توجد ضمانات أخرى" عدا انطباعاته عن هذا الضابط: لكنه قال، عليه الاكتفاء بهذا في هذه اللحظة، ولا يعتقد أنه أخطأ. - بشرط - أضاف - ألاّ تكون قدرتي على الفراسة قد خانتني-، أو بالأحرى، بقدر تعلق الأمر بي، فإن هذه الحالة بعيدة الاحتمال.

عندما غادر، رأيت الرجل عاثر الحظ فجأة وهو ينسل من بين الجماعة كدمية تتحرك بالزنبركات، ويتبعه بخط مائل ليصل أمامه. وخمنت من الانفعال والتصميم البادين على وجهه: هذه المرة خاطبه، ليس كما في مكتب الجمارك. غير أنه بعد ذلك تعثر وتصادم في استعجاله مع رجل ضخم طويل ذي شارة على ذراعه وبيده القرطاس والقلم. توقف هذا على الفور واستدار، تفحصه من الرأس حتى القدمين، انحنى باتجاهه وسأله شيئاً - بعد ذلك لا أعرف ما حدث، لأن "روزي" صاح: جاء دورنا.

بعد ذلك لا أزال أذكر، عندما عدنا مع الأولاد نحو مضاجعنا في الخلف، حل الغروب الصيفي الدافئ الوديع في هذا اليوم الأخير

واصطبغت السماء فوق التلال بالحمرة. في الجانب المعاكس، باتجاه النهر، رأيت في تلك اللحظة من فوق ألواح السياج سقوف طابور عربات القطار المحلي الخضر وهي تعدو مسرعة: كنت تعباً، وبالطبع بعد تسجيل الأسماء كنت منفعلاً بعض الشيء. وكذلك الأولاد، بدا عليهم الارتياح عموماً. وحتى الرجل عاثر الحظ انبثق بيننا على نحوٍ ما، وقال بوجه فيه مسحة احتفالية رغم الاستفسارات التي علته، بأن اسمه غدا على اللائحة. وافقناه، ووجدت أنه استحسن ذلك - لكنني لم أعد أستمع له بعدها. هنا في هذا المكان الخلفي كان معمل الآجر أكثر هدوءاً. ومع أنني رأيت هنا أيضاً جماعات صغيرة تتشاور فيما بينها، كان الناس يتهيئون لقضاء الليل أو يتعشون أو يحرسون متاعهم، أو بكل بساطة كانوا يجلسون، هكذا، في الأمسية، بصمت. دنونا من زوج وزوجه. رأيتهما مراراً، ولكثرة ما رأيتهما عرفتهما جيداً. الزوجة ضئيلة، ناعمة الملامح، رقيقة الجسد، والزوج نحيف يرتدي نظارات، ناقص الأسنان، دائم الحركة، متهيئ دائماً، جبينه كثير العرق على الدوام. كان شديد الانشغال الآن أيضاً: أقعى يجمع حقائبهما ويشدها كلها إلى بعض بالأحزمة في عجلة بمعونة زوجته، وبدا أنه لا يهتم إلا بعمله هذا، دون أي شيء آخر. غير أن الرجل عاثر الحظ توقف وراءه، وبدا أنه يعرفه هو الآخر، لأنه استفسر منه بعد دقيقة: إذن قررا السفر كما يبدو؟ عندها نظر للحظة واحدة إلى الخلف وألقى عليه نظرة واحدة من فوق نظاراته وهو يرمش ويتصبب عرقاً، بوجه انكمش مجهداً حتى من ضياء المساء، وأجابه بسؤال وحيد مباغت: - يتحتم علينا الذهاب، أليس كذلك؟...
- وكم كانت هذه الملاحظة بسيطة، وفي نهاية المطاف صحيحة بنفس القدر كما شعرت.

في الصباح الباكر من اليوم التالي أطلقونا إلى سبيلنا. انطلق القطار من رصيف الخط المحلي أمام البوابة في طقس صيفي رائق - قطار شحن، عرباته حمراء بلون الآجر المفخور، محكمة السقوف والأبواب. في الداخل نحن الستين، المتاع، وبالطبع حمولة مؤونة الطريق التي قدمها الرجال ذوو شرائط الذراع: أكوام من الخبز ومعلبات لحم كبيرة، وهي أشياء ثمينة نادرة إن نظرت إليها بعين معمل الآجر. لكني خبرت منذ الأمس مدى اهتمامهم بنا وانتباههم وحتى يمكنني القول بدرجة ما احترامهم لنا، نحن المقبلين على السفر، وهذه الوفرة ربما كانت نوعاً من المكافأة كما شعرت. كان هناك الجندرمة، ببنادقهم، وتجهمهم، أزرار معاطفهم مقفلة حتى الحنك - كما لو أنهم يحرسون بضاعة مرغوبة دون أن يتمكنوا من مسّها، بسبب سلطة أعلى منهم بالتأكيد كما فكرت: الألمان. بعدها أغلقوا علينا الأبواب المنزلقة، وعلقوا عليها في الخارج شيئاً، تلت ذلك إشارات وصافرات وانشغال عمال السكك ثم رجة: انطلقنا. اتخذنا مع الأولاد مواضع جيدة، هنا في الثلث الأول للعربة بعد أن احتللناه فور الصعود، وهناك فتحتان مرتفعتان على الجانبين أشبه بشباكين سدتا بأسلاك شائكة بإحكام. وسرعان ما طرح في عربتنا سؤال الماء وبالتالي مدة السفر.

فيما عدا ذلك لا أستطيع الحديث عن الرحلة بإسهاب. وكما كان الحال سابقاً في مكتب الجمارك أو مؤخراً في معمل الآجر، كان علينا قضاء الوقت بشكلٍ ما. وبالطبع كان الأمر هنا أصعب بمقدار ما فرضته الظروف. من جانب آخر كان الوعي بالهدف، هذه الفكرة بأن كل مرحلة من الطريق وإن قُطعت ببطء في سيرٍ متهادٍ متعب أو رجوع إلى الخلف

أو بعد طول وقوف تقربنا أكثر من الهدف، هو ما أعاننا في تجاوز كل المحن والصعوبات. لم نفقد صبرنا فيما بيننا. طمأننا "روزي" دوماً: لا يستغرق الطريق من وقت إلا ما يكفي للوصول. وأغضبوا "زير النساء" كثيراً بسبب بنت مع أهلها موجودة معنا - كما عرف الأولاد -، تعرف عليها في معمل الآجر، ومن أجلها اختفى كثيراً في آخر العربة، وعلى الخصوص في أول الأمر، وتناقل الأولاد الكثير من الأخبار حول ذلك. وهذا الولد المدخن: حتى هنا أخرج من جيبه شيئاً مريباً كالتراب وقطعة ورق ما وعود ثقاب، انحنى على لهبها بنهم الطائر الجارح، حتى في الليل أحياناً. سمعت من موسكوفيتش (الذي سالت من جبينه دون انقطاع جداول من عرق وسخام وجرت على نظارته وأنفه القصير وشفتيه الغليظتين - كما هو الحال معنا جميعاً، ومعي أيضاً بطبيعة الحال) ومن الآخرين كذلك حتى في اليوم الثالث كلمة مرحة أو ملاحظة، ومن "الفرّاء" سمعت طرائف باهتة، ولو بلسان ثقيل الحركة. لا أعرف كيف اكتشف أحد البالغين أن هدف رحلتنا هو محل اسمه على وجه التحديد "Waldsee"[5] : لو كنت عطشان أو ضايقني الحر، فالوعد الذي يحمله الاسم سبب لي راحة فورية. ونبّه الكثير منا من تململ لضيق المكان، وعن حق: ليتذكر، أن الدفعة القادمة ستتألف من ثمانين راكب. ولو فكرت ملياً بالأمر، كنت في مكان أضيق من هذا: في حظيرة خيول الجندرمة، حيث تمكنّا من حل مشكلة المكان بالاتفاق، وجلسنا جميعاً متربعين. جلست في القطار بوضع أكثر راحة. وإن رغبت، كان بإمكاني القيام، حتى السير بضع خطوات - باتجاه الإناء مثلاً: ومكانُهُ كان في الزاوية اليمنى من آخر العربة. في البدء اتخذنا قراراً باستعماله للتبول

فقط. لكن بمرور الوقت، بدأ الكثير منا يضطر إلى اكتشاف أسبقية أوامر الطبيعة على تعهداتنا، والتصرف على هذا النحو كذلك، نحن الأولاد، والرجال، وحتى بين النساء كما هو واضح بالطبع.

لم يسبب الدركي الكثير من العناء في آخر المطاف. في البداية فزعت منه بعض الشيء: ظهر وجهه فجاء فوق رأسي بالضبط، عند فتحة الشباك الأيسر، حتى إنه أضاء بمصباح جيبه نحونا في أمسية اليوم الأول، أو بالأحرى في ليله، خلال توقف طويل آخر. لكن سرعان ما تبين أن نيته حسنة: - يا ناس - أراد أن يبلغنا هذا الخبر - وصلتم إلى الحدود المجرية! - هذه المرة أراد أن يوجه لنا نداء، بالأحرى طلباً. كانت رغبته أن نعطيه نقوداً أو أشياء ثمينة إن كانت لا تزال بحوزتنا. إذ قال - حيث تذهبون، لن تكون ثمة حاجة إلى ما هو ثمين-. وما نمتلك سيأخذه الألمان في كل الأحوال، كما أكد لنا. وأضاف من فوق، عند فتحة الشباك- إذن لماذا لا يقع في أيادٍ مجرية؟- وبعد برهة صمت شعرت أنها احتفالية بعض الشيء، استطرد فجأة بصوت دافئ حميمي بنبرة متسامحة تنسينا كل شيء: - أنتم أيضاً مجريون، في آخر الأمر!- اقتنع صوت رجالي جهير من مكان ما داخل العربة بعد بعض الوشوشة والمداولات بهذه الحجج، بشرط أن نحصل من الدركي على بعض الماء مقابل ذلك، وبدا أنه راغب بذلك "رغم المنع" كما قال. لكنهما لم يتوصلا إلى اتفاق، لأن الصوت أراد الماء أولاً، والدركي أراد الحصول على الشيء أولاً، ولم يتنازل أي منهما عن تسلسله. في الآخر انتابت الدركي نوبة غضب: -يهود قذرون، تتاجرون حتى بأقدس الأمور!- قال هذه الملاحظة. وتمنى لنا أمنية بصوت خنقه الغضب

والكراهية: -إذن، لتفطسوا عطشاً!- الأمر الذي حصل فعلاً فيما بعد، على الأقل هذا ما قالوه في عربتنا. في الواقع اضطررت أنا أيضاً لسماع الصوت الآتي من العربة خلفنا بدءاً من عصر اليوم الثاني: لم يكن صوتاً لطيفاً على الإطلاق. السيدة العجوز مريضة - قالوا ذلك في عربتنا، ويبدو أنها جُنت، دون شك بسبب العطش. بدا هذا التفسير مقنعاً. ولم أر إلا الآن كم كان على حق أولئك الذين قالوا في البداية: من حسن حظنا أن عربتنا لا تنقل أطفالاً ولا شيوخاً، ونأمل أيضاً ألا يكون معنا مرضى. في صباح اليوم الثالث همدت المرأة العجوز. عندئذ قالوا: ماتت، لأنها لم تحصل على الماء. لكننا كنا نعرف: كانت مريضة وعجوزاً، وهكذا اعتبر الجميع، ومنهم أنا، الحادثة مفهومة إذا ما نظرنا إلى محصلتها.

أنا أجزم: طول الانتظار لا يساعد على الفرح - على الأقل هذه كانت تجربتي عندما وصلنا بالفعل. ربما كنت تعباً، أو ربما أنساني الفكرة هذه في الآخر السعي والتلهف إلى الهدف: بالأحرى بقيت متعكر المزاج بشكل ما. وقد فات عليّ كل الحدث بعض الشيء. أذكر أنني أفقت فجأة، أفترض بسبب زعيق صفارات الإنذار الأخرق؛ وقد دل الضياء الضعيف المتسلل من الخارج على بزوغ فجر اليوم الرابع. آلمني العصعص بعض الشيء، في المكان الذي لامس أرضية العربة. كان القطار متوقفاً، كما هو الحال غالباً، ودائماً عند الغارات الجوية. كانت الشبابيك مزدحمة بالناس كما هو الحال دوماً في هذه الأوقات. كل واحد منهم خال رؤية شيء- وهذا أيضاً غدا عادة دائمة في هذه الأيام. بعد برهة وصلت أنا أيضاً الشباك: لم أرَ شيئاً. كان الفجر بارداً وطري

الرائحة في الخارج، امتدت فوق الحقول الفسيحة كتل رمادية من ضباب، وفجأة، دون سابق إنذار وصل شعاع أحمر نحيف حاد كصوت النفير من مكانٍ ما خلفنا، عندها فهمت: ما رأيت هو شروق الشمس. كان جميلاً، ومثيراً بمجمله: هناك في البيت، تجدني في مثل هذا الوقت وأنا لا أزال أغط في النوم. لمحت أمامي بناية، على اليسار، لعلها محطة قطار نائية أو بشائر محطة قطار كبيرة. كانت صغيرة ورمادية وخالية من الناس، شبابيكها مغلقة وسقفها شديد الانحدار لدرجة مضحكة، كسقوف هذه الأصقاع التي رأيتها بالأمس فقط: لأول مرة تجسدت ملامحها تحت ناظري في العتمة الضبابية، ثم تحولت من الرمادي إلى البنفسجي، في ذات الوقت تلألأت الشبابيك الصدئة عندما مستها الشعاع الأولى. تنبه إليها الآخرون، ونقلت ذلك أنا أيضاً للمتجمعين خلفنا. سألوني، هل أرى اسم المكان عليها. رأيت في الضوء الذي بدأ لتوه كلمتين على الجانب القصير المقابل لاتجاه المسير أمامنا عند المساحة الواقعة تحت السقف: "آوشفيتس-بيركناو" - هذا ما قرأت مكتوباً بحروف الألمان القوطية المعقوفة، بشارحة متموجة مزدوجة بينهما. لكني عبثاً بحثت في معارفي الجغرافية، وتبين أن الآخرين ليسوا أكثر اطلاعاً مني. بعد ذلك جلست، لأن الواقفين خلفي طلبوا مكاني، ثم إن الوقت كان لا يزال مبكراً وأنا نعسان، سرعان ما غفوت مجدداً.

بعدها أيقظني حراك وهياج. كانت الشمس في الخارج تصب شعاعها بكامل البهاء. وحتى القطار بدأ يغذ السير. سألت الأولاد، أين نحن، فقالوا لا نزال في عين المكان، تحركنا الآن للتو: إذن أيقظتني رجّة انطلاق القطار على ما يبدو. لكن- أضافوا - نرى أمامنا دون شك

معامل وأماكن سكن. بعد دقيقة أعلن المحتشدون على الشبابيك وشعرت أنا كذلك من الظلال أننا مررنا من تحت قوسٍ أشبه ببوابة. بعد دقيقة أخرى توقف القطار، عندها أعلمونا باهتياج شديد رؤيتهم محطة قطار وجنوداً وأناساً. بدأ الكثيرون بلملمة أغراضهم وتزرير ملابسهم، وأخذ البعض، خصوصاً النساء، يرتبون أنفسهم ويتجملون ويمشطون بارتجال. سمعت في الخارج اقتراب خليط ضوضاء وقرقعة وصرير أبواب وانهمار ركاب من القطار، وتعين أن أقتنع الآن بدون شك أننا وصلنا هدفنا بالتأكيد. فرحت، بشكل طبيعي، لكني شعرت بأن فرحتي اليوم مختلفة عن فرحتي لو حدث الأمر بالأمس، أو بدرجة أكبر أول أمس. سمعت بعدها صوت ارتطام أداة على باب عربتنا، تبع ذلك فتح شخص ما، بالأحرى أشخاص ما الأبوابَ الثقيلة بزحلقتها جانباً.

أول ما سمعت كان صوتهم. تحدثوا بالألمانية أو بلغة تشبهها كثيراً، كما بدا، هكذا دفعة واحدة. وكما فهمت، كانوا يريدون منا الترجل. وبدلاً من ذلك اندفعوا هم بيننا؛ لم أر شيئاً لحد الآن. وسرعان ما ذاع الخبر، الحقائب والأمتعة ستبقى هنا. فيما بعد قالوا، بعد الترجمة ونقل الخبر من لسانٍ إلى لسان، إن الجميع سيسترجعون ملكيتهم، لكن في البداية ينتظر الأغراض التعقيم، أما نحن فينتظرنا حمام: بالتأكيد، حان الوقت لذلك، عرفت أنا أيضاً. عندها اقتربوا مني وسط الهرج وأخيراً رأيت بعيني أنا كذلك ناس هذا المكان. دهشت كثيراً، إذ رأيت مساجين حقيقيين، بملابس الأشرار، حليقي الرؤوس، بقبعة مدورة لأول مرة في حياتي- على الأقل بهذا القرب. بالطبع تراجعت فوراً إلى الخلف لأبتعد عنهم قليلاً. أجاب بعضهم عن أسئلة الناس، فيما جال آخرون العربة،

بينما نقل غيرهم الأمتعة بخبرة حمالي الحقائب المتمرسين، وكل ذلك جرى في خفة عجيبة كخفة الثعلب. على صدر كل منهم هناك مثلث أصفر إلى جانب الرقم الاعتيادي للمساجين، ورغم أن فك رمز اللون لم يستعص علي، فقد صدمني اللون فجأة بشكلٍ ما؛ فقد نسيت كل هذه القضية لحدٍ ما خلال الطريق. ولم تكن وجوههم باعثة على الثقة: آذان منتصبة، أنوف طويلة، عيون غائرة صغيرة ماكرة النظرات. وبالتأكيد، بدوا كيهود من كل النواحي. وجدتهم مثيرين للريبة، غريبي الشكل على العموم. ووجدت أنهم أثيروا كثيراً عندما رأونا نحن الأولاد. بدأوا على الفور بالتهامس السريع، المحموم، عندها توصلت إلى هذا الاكتشاف المذهل، بأن اليهود لا يتكلمون العبرية فقط على ما يبدو، حسبما ظننت إلى هذه اللحظة: - ريدس دي يديش، ريدس دي يديش، ريدس دي يديش[6]؟ - كما تبينت سؤالهم ببطء. قلت أنا، وقال الأولاد أيضاً: - Nein[7] - .شعرت أنهم لم يكونوا راضين. عندها استفسروا عن أعمارنا - وقد فهمت ذلك استناداً إلى الألمانية -. قلنا لهم: - ,Vierzehn fünfzehn[8] - ؛ كل حسب عمره. اعترضوا بشدة على الفور، بيدهم، برأسهم، بكل جسدهم: - تسَشْتْساين - همسوا من كل صوب -، تسشتساين[9]. - تعجبت، وسألت أحدهم: Warum[10]؟ - فيلست دي آربايتن؟ هل أرغب في العمل، سألني، بينما حفرت النظرات الباردة لعينيه المحاطتين بالأخاديد والتجاعيد عميقاً في عينيّ. قلت له: - Natürlich - بالطبع، إذ إنني لم آت إلى هنا إلا لهذا السبب. عندها لم يمسك بيده الصفراء العظمية القاسية ذراعي فحسب بل هزها بقوة، وقال: إذن "تسشتساين... فَرْشتايست دي؟ تسشتساين!..[11] " رأيته

غاضباً، وأن الأمر شديد الأهمية بالنسبة له، وبعدما تداولنا مع الأولاد على عجل، بشيء من البهجة، وافقت: ليكن عمري ست عشرة. بالإضافة إلى ذلك، يجب ألاّ يتواجد بيننا - مهما قالوا وبصرف النظر عن الحقيقة القائمة- توائم؛ وبشكل خاص: "يَيدّر آربايتن، نيشت كا ميده، نيشت كا كْرَنك"[١٢] - هذا ما علمت منهم، خلال هذه الدقيقة غير الكاملة ربما، التي وصلت خلالها من مكاني حتى باب العربة، وقفزت منها أخيراً إلى ضوء الشمس، في الهواء الطلق.

قبل كل شيء، لمحت ما يشبه ساحة منبسطة شاسعة. سرعان ما أُصبت ببعض العمى جراء الفضاء المفاجئ، جراء بياض السماء والسهل على حد سواء الذي بهر تألقه عيني. لكن لم يسنح لي وقت للتأمل: ساد حولي هرج ومرج وقعقعة وكلمات ونتف من أحداث وترتيبات. سمعت، أن النساء سينفصلن عنا لفترة، إذ لا يمكن أن نستحم معهن تحت نفس السقف؛ في حين انتظرت سيارات في البعد الشيوخ والضعفاء والأمهات اللائى يرضعن صغاراً وكذلك الذين أُنهكوا بسبب مشقة الطريق. أبلغنا بكل هذا سجناء آخرون. غير أنني انتبهت هنا في الخارج إلى جنود ألمان بقبعات خضر وياقات خضر حركات أذرعهم تشير إلى الطريق يرقبون بعيونهم كل شيء من الخلف: ارتحت قليلاً لرؤيتهم، لأنهم كانوا بملابسهم الأنيقة ومظهرهم المرتب الوحيدين الذين يشع منهم الثبات والهدوء في خضم كل هذه الفوضى. سمعت فوراً نصيحة الكثير من البالغين بيننا، واتفقت معها: لنجتهد في طلب خاطرهم، ونختصر الأسئلة والوداع بذكاء، حتى لا يعتبرنا الألمان جماعة شاذة. يصعب علي الحديث عما جرى بعد ذلك: أخذني وجرفني وانتزعني تيار متموج يفور

كالهريسة. زعق خلفي باستمرار صوت امرأة تبلغ شخصاً ما أن "حقيبة صغيرة" بقيت معها. أمامي سيدة مسنة مشوشة المظهر تتعثر، وسمعت تفسيرات شاب قصير: - اسمعي الكلام، أمي، إذ أننا سنلتقي سريعاً. Nicht war, Herr Offizier, wir werden uns bald wieder.. استدار تعلوه ابتسامة حميمة نحو ضابط ألماني بجواره، على طريقة البالغين عندما يتضامنون. وعلى الفور انتبهت لصراخ طفلٍ وسخٍ خصلات شعره ملفلفة ألبس على طريقة دمى واجهات عرض المتاجر، وهو يجهد في تشنجات ورعشات غريبة في التخلص من يدي امرأة شقراء، يبدو أنها أمه. - أريد الذهاب مع بابا! أريد الذهاب مع بابا! - صرخ وولول وزعق، وهو يضرب ويدوس بحذائه الأبيض على الحصى الأبيض والغبار الأبيض بشكل مضحك. خلال ذلك اجتهدت في اللحاق بخطى الأولاد، وأنا أتبع نداءات وإشارات "روزي" المنطلقة بين الحين والآخر - بينما اندفعت سيدة ضخمة بثوب صيفي مزهر بدون أكمام وهي تخترق الجموع بصخب في الاتجاه الذي توجد فيه السيارات. ثم وجدت أمامي لبعض الوقت سيداً عجوزاً ضئيل الحجم بقبعة وربطة عنق سوداوين وهو يلف ويدور والناس حوله يتدافعون، يبحث حواليه بوجه فاحص، وينادي على زوجه بين الفينة والأخرى: - إلونكا! إلونكاي![١٢] - كذلك التصق وجهاً وفماً وكامل جسديْ رجل طويل بارز عظام الوجه وامرأة طويلة الشعر سمراء، مسببين للجميع إزعاجاً طفيفاً، إلى أن أنتزع التيار البشري المرأة - أو بالأحرى التي لا تزال بنتاً- وأخذها معه وابتلعها، رغم أنها في ابتعادها جهدت لكي ترتفع قليلاً وتلوح مودعة بإشارة واسعة من يدها.

كل هذه الصور والأصوات والحوادث أربكتني، دوختني بعض

الشيء داخل هذه الدوامة الواحدة التي جُبلت من مشاعر غريبة ملونة، أكاد أقول مجنونة؛ لهذا لم أعد قادراً على الانتباه إلى أشياء أُخرى أكثر أهمية. مثلاً يصعب علي القول: هل كانت جهودنا أم جهود الجنود أم جهود السجناء أم نتيجة الجهود كلها مجتمعة هي ما خلق حولي في الختام طابوراً واحداً طويلاً منتظماً من خمسة صفوف فقط من الرجال، تحرك معي بتناسق، خطوة خطوة، إلى الأمام. هناك الحمام - أكدوا على ذلك مرة أُخرى - لكن قبله هناك الفحص الطبي ينتظرنا جميعاً - حسبما عرفت. قالوا، ولم يكن تفهم ذلك صعباً علي بالطبع: هو فحص يشبه اختبار الأهلية أو التجنيد، من منظور العمل، كما هو واضح.

استطعت التقاط أنفاسي. تنادى الأولاد بجانبي وأمامي وورائي وأشار بعضنا لبعض: الجميع هنا. الجو حار. جلت ببصري حولي استبين أين نحن حقيقة. كانت محطة قطار مرتبة. تحت أقدامنا كسر صخور صغيرة كالعادة في مثل هذه الأماكن، قريب منّا شريط عشبي وفيه زهور صفراء، طريق معبد أبيض ناصع يمتد إلى مدى البصر. انتبهت كذلك إلى أن هذا الشارع يفصله عن الأراضي الشاسعة الواقعة خلفه صف من الأعمدة المتماثلة الانحناء وبينها أسلاك معدنية لامعة ذات أشواك. كان من السهل علي الاكتشاف: من البديهي يعيش السجناء هناك. والآن بدأت بالاهتمام بهم أول مرة -ربما لتوفر الوقت اللازم لذلك للمرة الأولى-، ونما فضولي لمعرفة أي ذنب اقترفوا.

الأبعاد واتساع هذا السهل فاجآني مرة أُخرى، كلما جلت ببصري. غير أنني - وسط كثرة الناس وفي هذا النور الباهر - لم أتمكن من الحصول على صورة دقيقة عنه: لم أتمكن من تمييز ما يشبه البنايات

المنبطحة على الأرض في البعد والمنصات التي تشبه مكامن الصيد هنا وهناك والأبراج والمداخن إلا بشق الأنفس. الأولاد والبالغون الذين أحاطوا بي أشاروا إلى شيء فوقنا - جسم طويل بلا حراك يلمع بصرامة مغروزاً في الأبخرة البيض للسماء الفاقعة اللون الصافية. كان منطاد زبلين، بحق. اتفق من حولي في التفسير على الدفاع الجوي: عندها خطر ببالي صوت صفارات الإنذار في الصباح. ومع ذلك لم يبد أي أثر للارتباك أو الخوف على الجنود الألمان حولنا. تذكرت الهلع الذي يسري عندنا في البلد في مثل هذا الوقت، هذا الهدوء الهازئ وهذه المنعة جعلت من الاحترام الذي تحدثوا به عن الألمان عندنا في الوطن أمراً مفهوماً أمامي. لم ألحظ على ياقاتهم الخطين المشابهين للبرق إلا الآن. بهذا استنتجت أنهم ينتمون إلى وحدات الأس أس الشهيرة التي سمعت عنها الكثير في البلد. أعلن أنني لم أجدهم خطرين على الإطلاق: تمشوا بروية جيئة وذهاباً، حاموا على طول الطوابير، أجابوا على الأسئلة، هزّوا رؤوسهم، حتى إنهم طبطبوا على ظهور أو أكتاف بعضنا بصدق.

لاحظت شيئاً آخر في الدقائق الخاوية لهذا الانتظار. رأيت جنوداً ألمان حتى هناك في البلد، بالطبع. لكنهم كانوا دوماً متعجلين، منغلقين، مشغولي الوجه ودوماً بلباس كامل الأناقة. أما هنا فالأمر مختلف، فهم أكثر إهمالاً، كانوا -وهذا ما لاحظت- يتحركون بحرية أكبر لحد ما كما لو كانوا في بيتهم. لاحظت فوارق طفيفة أخرى، خوذ وجزمات وبدلات ألين أو أقسى، أكثر التماعاً أو أخرى مناسبة للعمل. على جنب كل منهم هناك سلاح، لكن ذلك أمر طبيعي عند الجنود، بالتأكيد. لكني رأيت علاوة على ذلك عصي في أيادي الكثير منهم،

نهايتها معقوفة أشبه بعصي السير، وهذا ما فاجأني، إذ أنهم جميعاً سالمو الأطراف، وبدوا رجالاً في عزٍّ قوتهم. لكنني تمكنت من رؤية هذا الشيء بإمعان عن قرب. فقد انتبهت إلى أحدهم واقفاً أمامي موجهاً نصف ظهره نحوي، وقد وضعه خلفه بشكل أفقي عند خاصرته، وبدأ يلوي نهايتيه بحركة تنم عن ضجر. اقتربت منه أكثر سوية مع الطابور. عندها فقط رأيت أنه لم يصنع من خشب بل من جلد، وهو ليس عصا، بل سوط. كان شعوراً غريباً بعض الشيء - لكني لم أشهد واقعة لجأوا فيها إلى استعماله، ثم إن هناك الكثير من المساجين حوالينا، كما أرى.

خلال ذلك سمعت نداءات لم أهتم لها، أحدها - أذكر - طلبوا أن يتقدم من له خبرة في صنعة تصليح المكائن، وآخر طلب تقدم التوائم، ومن له عاهة بدنية، وحتى الأقزام، مما أثار بيننا موجة من المرح، بعدها بحثوا عن الأطفال، لأنهم يعاملون معاملة خاصة كما أشيع، وتنتظرهم الدراسة وغيرها من التسهيلات بدلاً من العمل. شجعنا بعض البالغين في الصف قربنا: لا تضيعوا الفرصة. لكني تذكرت نصيحة السجناء عند القطار، ثم إنني أرغب في العمل وليس العيش على طريقة الأطفال، بطبيعة الحال.

بمرور الوقت سرنا مسافة كبيرة إلى أمام. انتبهت فجأة إلى تكاثر الجنود والمساجين حولنا. وتشكلت الصفوف الخمسة في هيئة صف واحد عند نقطة ما. في ذات الوقت دعينا إلى خلع المعاطف والقمصان كي نتقدم قبالة الطبيب عراة الجذع. شعرت بتسارع الخطو. ولمحت تجمعين منفصلين، هناك إلى أمام. إلى اليمين تجمع كبير شديد التنوع، وآخر أصغر أكثر اتساقاً لحد ما، حيث رأيت بضعة أولاد من جماعتنا إلى

اليـــسـار مني. وبدا على الفـور أن هؤلاء - بنظري على الأقل - هم المؤهلون. وبين ذلك توجهت أنا أيضاً بخطى متسارعة بخط مستقيم نحو تلك النقطة الثابتة حيث بدت بين فوضى الأشكال الغادية والقادمة ملامح بزة نظامية خالية من العيوب، مع قبعة الضباط الألمان العالية المقوسة؛ بعدها تعجبت كثيراً للسرعة التي وصلني فيها الدور.

الفحص ذاته لم يستغرق أكثر من ثانيتين أو ثلاث (تقريباً). كان موسكوفيتش أمامي في الدور - غير أن الطبيب أشار له بيده نحو الاتجاه الآخر على الفور، بحركة من أحد أصابعه. سمعته يحاول شرح شيء ما: - ...Arbeiten... Sechzehn[١٤] - لكن امتدت نحوه يد من مكانٍ ما، فوجدت نفسي في مكانه على الفور. ورأيت أن الطبيب تفحصني بإمعانٍ أكثر، نظر نحوي بنظرة فاحصة جدية وباهتمام. نفخت صدري عندها لأريه قفصي الصدري، وأذكر أنني تبسمت قليلاً بسبب موسكوفيتش. شعرت على الفور بالثقة في الطبيب، لأن مظهره كان بهياً، ووجهه الطويل الحليق كان ودياً، شفاهه نحيفة وعيناه زرقاء أو رمادية، في كل الأحوال فاتحة، طيبة النظرات. تمعنت فيه جيداً بينما وضع يديه المحميتين بقفازين على جانبي وجهي وجذب بإبهاميه الجلد تحت جفنيّ عيني إلى الأسفل قليلاً في حركة معهودة عرفتها من الأطباء عندنا. في نفس الوقت سألني بصوت خفيض لكن واضح ينم عن رجل مثقف: - ?Wie viel Jahre alt bist du[١٥] - لكن بصورة تكاد تكون عرضية. قلت له: .-Sechzehn - هز رأسه موافقاً بيسر، لكن ذلك بدا وكأنه للجواب الملائم أكثر مما لو كان للحقيقة -هذا كان انطباعي الفوري وقتها على الأقل. ملاحظتي الثانية عنه، بالأحرى إحساسي العابر، وقد

يكون خاطئاً، أنه بدا راضياً، أو يكاد يكون قد تحرر من عبءٍ ما؛ شعرت بأنه أُعجب بي. عندها دفع وجهي بيده مشيراً بيده الثانية إلى الجهة الأخرى من الشارع، نحو جماعة المؤهلين. انتظرني الأولاد منتصرين وهم يضحكون من الفرح. وعند رؤيتي هذه الوجوه المتلألئة فهمت الفارق الذي يفصل بين مجموعتنا والمجموعة الأخرى على الجانب الثاني: كان النجاح، إذا ما كان شعوري صائباً.

لبست قميصي إذن، وتبادلنا بضع كلمات مع الأولاد، وبدأت بالانتظار مجدداً. من هنا رأيت العمل الجاري في الجانب الثاني من الشارع بمنظور جديد. هدر فيض الناس بسيلٍ لا ينقطع، انحصر في مجرى ضيق، تسارع، ثم تفرع إلى فرعين قبالة الطبيب. وصل الأولاد تباعاً، وبدأت أنا أيضاً في استقبالهم، بالطبع. في البعد طابور آخر: لمحت النساء كذلك. حولهن أيضاً ثمة جنود ومساجين، أمامهن طبيب أيضاً، وهناك حدث كل شيء بنفس الطريقة، عدا أنهن لم يخلعن ثيابهن، وهذا أمر مفهوم كما أعتقد بالطبع. كل شيء تحرك، كل شيء عمل، الجميع في أماكنهم وأنجزوا مهمتهم بدقة، في بهجة، كالماكنة المزيتة. رأيت الابتسامة على الكثير من الوجوه، متواضعة أو متأكدة، من دون ارتياب، أو متوقعة النتيجة سلفاً - مع ذلك وفي جوهرها مماثلة تقريباً لتلك التي أحسست بها قبل قليل وقد علت وجهي. بنفس هذه البسمة توجهت امرأة سمراء جميلة جداً كما أرى من هنا بقرط أذن مدور، وهي تحمل معطفاً مطرياً مشدوداً إلى صدرها نحو جندي بسؤال، وبمثل هذا البسمة خطا رجل أسمر جميل الوجه نحو الطبيب: كان مؤهلاً. وسرعان ما تبينت كيف عمل الطبيب. وصل رجل مسن - واضح:

الجانب الآخر. شاب - هنا، نحونا. رجل آخر، بكرش، ومع ذلك انتصبت قامته بشدة: دون فائدة - لكن لا، أرسله الطبيب مع ذلك إلى هنا، ولم أكن راضياً تماماً، لأنني من ناحيتي اعتبرته مسناً بعض الشيء. وتعين علي كذلك الاستنتاج أن غالبية الرجال كانوا غير حليقين، لذلك لا يتركون في النفس انطباعاً حسناً. بهذا اضطررت للنظر بعين الطبيب لفهم كم كان بينهم من لا ينفع للعمل بسبب كبر سنه أو لأسباب أُخرى. أحدهم نحيف جداً، الآخر سمين جداً، وآخر قررت أنه مريض بالأعصاب لأن عيونه كانت ترتعش وذكّرني أنفه وفمه بالأرنب المذعور وهو يكشّر على الدوام - ومع ذلك شعر بواجبه في الابتسام عن طيب خاطر وهو يسرع بخطى حثيثة غريبة كمسير البط نحو جماعة غير المؤهلين. وأتى آخر - حمل معطفه وقميصه بيده وأرخى حمالة سرواله على فخذيه، وبدا الجلد على ذراعيه وصدره رخواً، وأحيانا متهدلاً. وعندما وصل عند الطبيب - أشار هذا فوراً إلى جماعة غير المؤهلين بالطبع- ارتسم على هذا المحيا الذي غطاه الشعر تعبير معين، وعلت شفتيه اليابستين المتشققتين ابتسامة أليفة حركت ذاكرتي بشكلٍ ما: كما لو كان يود أن يقول شيئاً للطبيب، كما لاحظت. لكن هذا لم يعد ينظر إليه، بل وجه انتباهه إلى التالي، وامتدت يد سحبته من الطريق، هي ذاتها التي اقتلعت موسكوفيتش قبل قليل. قام بحركة، استدار؛ علا وجهه تعبير ينم عن الصعقة والسخط: نعم، كان "الخبير"، لم أخطئ.

بعدها انتظرنا دقيقة أو دقيقتين. لا يزال أمام الطبيب كثيرون، كنا نحن الأولاد والناس هنا قرابة أربعين، حسب تقديري، عندما نادونا: ننطلق للاستحمام. تقدم جندي نحونا، لسرعته لم أره من أين جاء، كان

قصيراً، متقدماً في السن، مسالم المظهر، وعنده بندقية - رأيت فيه الجندي المكلف. - !Los, ge' ma' vorne[16] أوعز لنا، أو شيء من هذا القبيل، ليس وفق قواعد كتب اللغة كما استنتجت. وكيفما كانت، كان وقعها على أذني رائعاً، إذ كنت والأولاد قد فقدنا الصبر، وأقول الحقيقة ليس بسبب الصابون، بل الماء، بالطبع. قادنا الطريق خلال بوابة من أسلاك إلى الداخل، إلى مكان ما خلف السياج، حيث يوجد الحمام على ما يبدو: انطلقنا بمجموعات متفرقة ونحن نتحدث، دون استعجال، نعاين ما حوالينا، وخطا خلفنا الجندي بصمت، بدون همّة. امتد تحت أقدامنا من جديد طريق أبيض معبد دون أي عيب، امتد أمامنا كل السهل الواسع لدرجة الإنهاك وفوقه الهواء الساخن يتراقص ويتذبذب. حتى إنني قلقت: قد يكون الحمام بعيداً جداً، لكن تبين أن البناية لا تبعد عن المحطة سوى مسير عشرة دقائق. خلال هذا الطريق القصير رأيت من المحيط ما أعجبني. سررت كثيراً على الخصوص لملعب كرة القدم الذي وقع إلى يمين الطريق في المرج. العشب الأخضر، العوارض، الأهداف البيض اللازمة للعب، حدود الساحة المرسومة بالأبيض - كل شيء كان في محله، مُغرِياً، طرياً، بحالة ممتازة، في أحسن تنظيم. حتى إننا نحن الأولاد قلنا جميعاً: بعد العمل نأتي للعب الكرة هنا. ما رأينا بعد بضع خطوات على يسار الطريق سبب لنا سعادة أكبر: صنبور ماء، دون أدنى شك، من النوع المعهود على جوانب الطرق. حاولت لوحة موجودة بجانبه تحذيرنا بحروف حمراء: "Kein Trinkwasser"[17] - غير أن ذلك لم يمنع أياً منا في تلك اللحظة، بالطبع. كان الجندي شديد الصبر، وأقول إنني لم أشرب ماءً بهذا النهم منذ زمن، رغم بقاء طعم مادة

كيمياوية حريفة في فمي تجلب الغثيان. رأينا خلال مسيرنا بيوتاً، هي نفسها التي لمحتها من المحطة. وحقيقة، كانت أبنية غريبة عند رؤيتها عن قرب، طويلة، واطئة، غير محددة اللون، فوق سقوفها وعلى امتدادها برزت أجهزة هي ربما للتهوية أو الإنارة. أحاط بكل منها شارع صغير مغطى بحصى أحمر، وفصلت كل بناية عن الطريق الرئيسي بقطعة أرض معتنى بها، زرع في بعضها ولشدة دهشتي بعض الخضار والملفوف، وزرعت الزهور بكل ألوانها في الأصص. كل شيء نظيف، مرتب وجميل - وبالتأكيد: علي أن أعترف، كانوا على حق في معمل الآجر. شيء واحد كان ناقصاً، وقد توصلت إليه: لم أعثر على أي أثر للحركة أو الحياة فيما حولنا. لكنني فكرت، ذلك أمر طبيعي، فهذا وقت العمل بالنسبة للسكان في نهاية المطاف.

رأيت في الحمام (وجدناه في ساحة بعد انعطافنا إلى اليسار خلف سور من الأسلاك بعد بوابة أسلاك جديدة) أنهم تهيئوا لاستقبالنا، وشرحوا لنا كل شيء مقدماً بكل طيب خاطر: أول قاعة دخلنا كانت تشبه مدخلاً بأرضية من حجر. كان هنا أناس كثيرون عرفت فيهم من كان معنا في قطارنا. ومن هنا فهمت أن العمل يجري بدون توقف على ما أعتقد، و يجلبون الناس في جماعات متتالية من المحطة إلى هنا للاستحمام على ما يبدو. وكان هنا في عوننا سجين آخر، في غاية التهذيب - كما وجدته -. لبس بذلة السجناء المخططة هو الآخر، لكن أكتافها كانت محشوة، تضيق عند الخصر، ويمكنني أن أقول بكل شجاعة: إنها كانت مفصلة ومكوية على آخر طراز بشكل يلفت النظر، وإلى جانب ذلك كان شعره الأسود اللامع المصفوف بعناية يشبه شعر أيٍ

منا، نحن الناس الأحرار. استقبلنا واقفاً في النهاية البعيدة من القاعة على اليمين من جندي جلس خلف منضدة صغيرة. الجندي ذاته كان صغير الحجم، مرح المظهر وفي غاية السمنة، كرشه يبدأ من رقبته، وحولها لغد يمتد حتى ياقته، وفي وجهه المتجعد الأصفر الأملط عيون مسلية الشكل صغيرة عبارة عن شقين صغيرين: مظهره يذكر لحدٍ ما بالأقزام الذين بحثوا عنهم بيننا في المحطة. مع ذلك كانت على رأسه قبعة جديرة بالاحترام، على المنضدة حافظة أوراق جديدة لامعة، بجنبها سوط صنع من جلد أبيض مظفور اضطررت للاعتراف بجمال صناعته، هو ملكه الشخصي على ما يبدو. راقبت كل ذلك بشكل مريح عبر الفجوات بين الأكتاف والرؤوس الكثيرة بينما اجتهدنا نحن القادمين الجدد في اتخاذ موطئ والانتظام بشكل ما في المكان المحشو بالبشر. خلال ذات الوقت انسل السجين عبر باب أمامنا إلى الخارج ثم عاد ليبلغ الجندي شيئاً ما بشكل خصوصي وهو يكاد ينحني على أذنه تماماً. بدا على الجندي الرضا، وعلى الفور ارتفع صوته الحاد اللاهث، بالأحرى الشبيه بصوت طفل أو امرأة، وهو يجيبه ببضع جمل. عندها، وبعد أن استوى في جلسته، رفع إحدى يديه عالياً، فطلب السجين منا "الهدوء والانتباه" - الآن مررت أنا أيضاً ولأول مرة بهذه التجربة التي يرددها الكثيرون، كيف يجلب في الغربة سماع الكلام المجري ذوي الطعم المحلي فرحاً مفاجئاً: هكذا وقفت إذن وجهاً لوجه مع مواطنٍ لي. وحزنت من أجله قليلاً على الفور، فقد رأيت أنه لا يزال شاباً يافعاً، وذكياً، وعلى الرغم من أنه سجين، علي أن أعترف بأنه رجل محبوب الوجه، وطمعت في أن أسأله من أين أتى وكيف وبأي ذنب سجن؛ لكن لغاية هذا الحين أفهمنا

أنه ينوي توضيح مهماتنا والتعريف برغبات "Herr Oberscharführer"[١٨] فيما يتعلق بنا. وأضاف: لو نجتهد في ذلك، وهو ما يتوقعونه منّا، فإن كل شيء سيسير "بسرعة ونعومة"، ورغم أن ذلك أمر يتوافق مع مصلحتنا بالدرجة الأولى برأيه، فقد أكد لنا أنه في نفس الوقت رغبة "Herr Ober" - كما أسماه هذه المرة بشكل مختصر منحياً إلى جنب التعابير الرسمية، وبحميمية كما شعرت.

بعدها سمعنا منه عن بضعة أشياء بسيطة، جلية في مثل هذا الموقف بينما وافق الجندي بهزات رأسه النشيطة على كلماته - وهو في نهاية المطاف ليس أكثر من سجين - وصادق عليها أمامنا بوجهه الودود وعينيه المبتهجتين وهو ينظر نحونا مرة، ونحوه مرة أُخرى. علمنا مثلاً أننا سننزع ملابسنا في الغرفة التالية، أي "المنزع"، ونعلق جميع ملابسنا على المشاجب الموجودة هناك. سنجد على المشاجب أرقاماً. وسيعقمون ملابسنا بينما نستحم. وليس هناك من داعٍ - كما رأى، وأعتقد أنه على حق - للتأكيد على أهمية نقش كل واحد منا رقم المشجب الذي علق عليه ملابسه في ذاكرته نقشاً. ولم أواجه صعوبة في رؤية فائدة توجيهه بأنه من "المستحسن" ربط فردتي أحذيتنا بعضها ببعض "لتجنب اختلاطها"، كما أضاف. بعدها يهتم بنا حلاقون، حسبما وعد، ليتبعه الاستحمام ذاته.

لكن قبل كل شيء - استكمل حديثه على هذا النحو- ليتقدم أولئك الذين لا تزال بحوزتهم نقود أو ذهب أو حجر كريم أو أي شيء ذو قيمة، وليضعوه طواعية "أمانةً عند الهَر أوبر"، فهذه هي آخر فرصة لنا "للتخلص من أشيائنا بدون عقاب". إذ حسبما شرح لنا فالتجارة وكل

أنواع البيع والشراء وبالتالي امتلاك أي شيء ذي قيمة أو إدخاله في "اللاغَر[١٩] ممنوع منعاً باتاً" - وقد استعمل هذا التعبير الجديد لكن المفهوم تماماً من معناه الألماني. وبعد الاستحمام سيصورون الجميع "بالأشعة السينية"، باستعمال "جهاز خاص لهذا الغرض" - كما علمنا منه وسط هزات رأس الجندي التعبيرية، بمزاج رائق واضح للعين، حيث أعطى توكيداً خاصاً لكلمة "الأشعة السينية" غير قابل للتأويل، الكلمة التي فهمها هو أيضاً كما هو واضح. وخطر ببالي: يبدو أن معلومات الدركي مضبوطة إذن. من جانبه لم يضف السجين إلى ذلك سوى أن محاولة التهريب التي يعاقب مرتكبها "بأشد العقوبات" والتي سنخاطر نحن جميعاً من جرائها بشرفنا أمام السلطات الألمانية بحسب رأيه، "تخلو من الهدف أو المعنى". بلا شك، ورغم أن المسألة لم تمسني شخصياً، وجدت أنه محق في ذلك. حل صمت قصير، شعرت قبيل نهايته أنه غدا ثقيلاً بعض الشيء. بعد حركة في الصفوف الأمامية: طلب أحدهم فسح الطريق، وخرج شخص وضع شيئاً على لوح المنضدة وعاد مسرعاً. قال له الجندي شيئاً: بدا وكأنه مديحٌ. وضع الشيء - وهو حاجة صغيرة، لم أتمكن من رؤيتها عن بعد - في درج المنضدة سريعاً، بعدما تفحصها وكأنه خمّن قيمتها بنظرة خاطفة. بدا عليه الرضا، كما رأيته. بعد ذلك حل صمت آخر، لكنه أقصر من السابق، تلته حركة مجدداً، وخرج مرة أخرى شخص ثانٍ - بعد ذلك تقدم الناس بدون توقف وبشجاعة أكبر وبسرعة أكبر نحو المنضدة ووضعوا أشياء لامعة أو مقعقعة أو رنانة أو مخشخشة على المساحة الخالية بين السوط وحافظة الأوراق. جرى كل ذلك - فيما عدا وقع الخطوات وصوت الأشياء وكذلك

تعليقات الجندي الحادة القصيرة رائقة المزاج والمشجعة في كل مرة - في جوٍ من الصمت التام. ولاحظت كذلك أن الجندي اتبع بالضبط نفس الخطوات مع كل حاجة جديدة. وحتى لو وضع شخص ما حاجتين أمامه على المنضدة مرة واحدة، فهو يفحصهن كلاً على حدة - أحياناً بهزة رأس تنم عن تقدير - فيلتقط إحدى الحاجتين، ويسحب الدُرج، ويضعها فيه؛ ثم يغلق الدُرج بدفعة من كرشه غالباً، حتى ينصرف للقطعة التالية ويكرر معها نفس الشيء بالضبط. تعجبت كثيراً لما أخرج من الجيوب هكذا، في واقع الحال بعد الجندرمة. لكن ما صعقني كذلك هو هذا الاستعجال واستجماع الشجاعة المفاجئ عند الناس بعد أن تحملوا كل المتاعب والصعاب التي تلازم الاحتفاظ بهذه الأشياء لحد هذا الوقت. ولهذا ربما رأيت نفس التعبير الخجول والاحتفالي بعض الشيء، لكن الذي ينم عن انفراج يلوح بوضوح على غالبية الوجوه في عودتها. في آخر المطاف نقف الآن هنا على أعتاب حياة جديدة، وأقر بأن هذا وضع جديد تماماً، يختلف عن الحال عند الجندرمة بطبيعة الأمر. لم يستغرق كل هذا الحدث أكثر من ثلاث أو أربع دقائق على التقريب، فيما لو أردت أن أكون دقيقاً.

لا أستطيع الحديث عما دار بعد ذلك بإسهاب: في الجوهر، كل شيء سار وفق توجيهات السجين. فتحت البوابةُ المقابلة، ودلفنا إلى مكان أُثث بمصاطب طويلة فوقها مشاجب. وجدت الرقم على الفور، وكررته مع نفسي عدة مرات حتى لا أنساه. ربطت حذائي كما نصحنا السجين. تلت قاعة فسيحة واطئة السقف مضاءة بالمصابيح بشكل شديد: بين الجدران وعلى امتدادها دارت الأمواس وزأرت ماكينات قص

الشعر التي تعمل بالكهرباء، واشتغل الحلاقون - وجميعهم من السجناء. صرت أنا من نصيب أحدهم على اليمين. لأتفضل بالجلوس على المقعد أمامه - قال ذلك على ما يبدو لأنني لم أفهم لغته. وضع الماكينة على رقبتي فوراً وقص شعري - كل شعري تماماً حتى الجلد. ثم أمسك بموسٍ بيده: لأقف، وأرفع يدي إلى أعلى - أراني -، بعدها خربش بالموس هناك تحت إبطي. بعد ذلك جلس هو أمامي على المقعد. ودون نبس كلمة أمسك بعضوي ذاك الذي هو الأكثر حساسية، وانتزع بموسه كل الغابة حوله، كل شعرة هناك، كل الفخر الرجولي الصغير الذي أملك، والذي نبت منذ زمنٍ غير بعيد. قد يكون من دون سبب، لكن خسارتي هذه أوجعتني أكثر من خسارة شعري. فوجئت، وكنت كذلك ممتعضاً قليلاً - لكني اقتنعت، من المضحك بالأساس أن أنزعج من أمرٍ تافهٍ مثل هذا. ثم إنني رأيت أن الجميع مروا بنفس الشيء، حتى الأولاد، وبدأنا على الفور نقول لـ"زير النساء": ما العمل الآن مع البنات؟

لكنهم صاحوا، إلى الأمام: يجيء الآن الحمام. عند الباب أمامي وضع سجين قطعة صابون بنية صغيرة في يد "روزي"، وقال وأرانا كذلك: لثلاثة أفراد. وجدنا في الحمام شبكة خشبية زلقة تحت أقدامنا، وشبكة أنابيب فوق رؤوسنا فيها الكثير من مرشاشات المياه. تجمع هنا الكثير من الناس العرايا، الذين لم تكن رائحتهم كالعطر بالذات. ووجدت أن الماء انهمر فجأة، وحده، بعد أن انشغل الجميع بضمنهم أنا نفسي في البحث عن صنابير المياه. لم يكن تدفق الماء غزيراً، لكن برودته كانت منعشة، وجدتها مناسبة لي تماماً في هذا القيظ. قبل كل شيء عببت منه، ووجدت مرة أخرى أن طعمه مماثل لذلك عند صنبور

الماء: بعد ذلك فقط تمتعت بالماء وهو ينهمر على بشرتي. وتصاعدت حولي مختلف الأصوات البهيجة والطرطشة والغرغرة: كانت دقيقة مرحة، خالية من الهم. أثرنا نحن الأولاد غضب بعضنا البعض بسبب رؤوسنا الحليقة. وتبين أنّ الصابون: للأسف قليل الرغوة، وفيه الكثير من الحبيبات التي تسبب خدوش. ومع ذلك رأيت رجلاً بديناً بعض الشيء، - تلفلفت على صدره وظهره بعض الشعرات التي لم تحلق كما يظهر - وهو يحك جسده بالصابون طويلاً، بحركات احتفالية، أكاد أقول طقسية. عندما نظرت إليه افتقدت عيناي فيه شيئاً ما - عدا شعره بالطبع. تنبهت إلى أن البشرة عند ذقنه وحول فمه أكثر بياضاً، وقد امتلأت بالجروح الحمر الطرية. كان حاخام معمل الآجر، فقد عرفته: إذن، أتى هو الآخر. غدا وجهه بدون لحية أقل غرابة: وجدت فيه إنساناً بسيطاً كبير الأنف، مظهره في الأساس مظهر إنسان اعتيادي. كان يصوبن ساقه بهمة عندما انقطع الماء فجأة بنفس سرعة بدء انهماره قبل قليل: عندها نظر إلى الأعلى بتعجب، بعدها نظر إلى الأسفل أمامه، لكن بخشوع، كمن يسلّم بإرادة القرار السامي ويفهمها وينحني في نفس الوقت أمامها.

ولم يعد ثمة ما أفعله أنا الآخر: أخذت ودُفعت وأخرجت. وصلنا إلى مكان سيئ الإضاءة، حيث أعطى سجين في يد كل منا منديلاً، لا - تبين أنه منشفة، قائلاً: تُرجع بعد الاستعمال. وضع آخر على رأسي وتحت إبطي وعند تلك المنطقة الحساسة بما يشبه الفرشاة سائلاً مريب اللون يثير حكة تشير رائحته التي تزكم الأنف إلى أنه مادة معقمة، لكن كل ذلك حصل بحركة مفاجئة تماماً وشديدة السرعة وماهرة. بعد ذلك وصلنا إلى ممر على يمينه شباكان مضاءان تلاهما ثالث يطل على غرفة من دون باب: وقف في كل منها سجين وزع ملابس داخلية. تسلمت -

مثل الجميع - قميصاً بعمر جدي كان ذات يوم مخططاً بخطوط بيضاء على خلفية زرقاء، خالياً من الياقة وأزرارها، وسروالاً داخلياً طويلاً لا يصلح إلا للعجائز على الأغلب، مشقوقاً من عند الكعب، وخيطي سروال حقيقيين، بذلة بالية المظهر، لكنها نسخة مماثلة لبذلة السجناء من الكتان بخطوط زرقاء وبيضاء - بذلة سجناء نظامية كيفما أراها؛ ثم اخترت شخصياً في الغرفة المفتوحة حذاء غريباً من كومة جاء فجأة على مقاسي تقريباً: أسفله من خشب مبطن بالكتان ولا يشد بشريط بل بثلاثة أزرار في الجانب. ولا أنسى قطعتي القماش الرماديتين، اللتين خلتهما منديلين، وبالطبع في الختام قطعة لا غنى عنها: قبعة السجين اللينة المدورة البالية المخططة بالعرض. ترددت بعض الشيء - لكن لم يكن في وسعي الانتظار وسط صخب الأصوات التي استعجلتنا وارتداء الملابس المرتبك والمحموم الذي جرى حولي، إذ لم أرغب في التخلف عن الجميع بالطبع. كان السروال عريضاً وينقصه الحزام أو شيء يمسكه، فاضطررت لعقده في عجلة من أمري، وتبين من بين خصائص الحذاء غير المتوقعة أنه لا ينثني. خلال ذلك ولكي تتحرر يدي، وضعت القبعة على رأسي. أكمل الأولاد جميعهم لبس ملابسهم: نظر بعضنا إلى بعض طويلاً ونحن لا نعرف، أنضحك أم نتعجب. لكن لم يسنح وقت لأي منهما: وجدنا أنفسنا في الخارج، في الهواء الطلق مجدداً. لا أعلم من قرر، ولا ما حصل - لا أذكر سوى تزايد ضغط ما عليّ، وجرفتني موجة، دفعتني، متعثراً بحذائي الجديد وسط غمامة من غبار تلاحقني ضربات مكتومة غريبة كصوت الصفعات على الظهور، نسير إلى أمام، نحو ساحات جديدة، بوابات جديدة، ممرات من أسلاك وأسوار متشابكة، وفي الآخر انفتحت وانغلقت وتداخلت بعضها في بعض واختلطت في تشوش أمام عيني.

٥

ليس هناك سجين لا يتعجب قليلاً في هذا الموقف: في هذه الباحة التي وصلنا إليها أخيراً من الحمام، نظر الأولاد فيما بينهم طويلاً، تعجب بعضنا لبعض ودرنا حول بعضنا البعض. لكني تنبهت إلى رجل بدا شاباً هنا بقربنا وهو يتفحص ويتلمس كل ثيابه من فوق إلى أسفل بإمعان وانتباه عميق ويتردد في نفس الوقت، كما لو أراد التأكد من نوعية نسيجها أو حقيقتها. بعدها رفع بصره كمن يخطر بباله تعليق مفاجئ، لكنه لا يرى حواليه سوى نفس الثياب، لذلك لا يقول في خاتمة المطاف شيئاً – كان هذا بالطبع شعوري في تلك اللحظة، وقد أكون خاطئاً. تعرفت عليه رغم رأسه الحليق وقصر ثياب السجناء على قامته الفارعة، من وجهه بارز العظام، ورأيت فيه العاشق الذي لم يشأ ترك يد حبيبته سوداء الشعر إلا بصعوبة قبل نحو ساعة من الآن – لأن هذا كان مقدار الوقت الذي انقضى منذ وصولنا حتى تحولنا. غير أنني ندمت هنا جداً لشيء واحد فقط. ذات مرة سحبت من الرف في البيت دون تعيين كتاباً منسياً لا أحد يعلم متى قُرأ آخر مرة، يعلوه الغبار. كان كاتبه سجيناً، ولم أقرأه إلى آخره لأنني لم استطع مسايرة فكرته تماماً، ثم إن لأبطاله أسماء ثلاثية مغالية في الطول، غير قابلة للحفظ، وأخيراً لأنني

لم أهتم به لمقدار ذرة، لأنني، والحق يقال، أتقزز من حياة السجناء: بهذا بقيت جاهلاً بالأمر عند حالة الضرورة. لم أحفظ منه سوى أن السجين كاتب هذا الكتاب كان يتذكر أيام سجنه الأولى، أي البعيدة عن وقت كتابة الكتاب، بصورة أفضل من اللاحقة، أي التي هي أقرب إلى زمن كتابة الكتاب. في ذلك الوقت بدا لي هذا مريباً، واعتبرته شيئاً من المبالغة إلى درجة ما. ومع ذلك أعتقد أنه كتب الحقيقة: فأنا أيضاً أتذكر اليوم الأول بأدق ما يمكن، بالفعل بصورة أدق من اليوم الذي تلاه، إذا ما أمعنت في التفكير.

في البداية شعرت بنفسي من قبيل الضيف على العبودية لا أكثر، بشكل يمكن تفسيره حسب عادتنا جميعاً، عادة الطبيعة البشرية المخادعة، كما أعتقد. بدت الباحة وكل المنطقة التي لوحتها الشمس هنا جرداء لحد ما، لم أعثر على أثر لساحة كرة القدم أو مزرعة الخضار أو العشب أو صفوف أصص الزهور. كل ما وجدت هو بناية خشبية غير مزينة من الخارج أشبه بحظيرة: هي بيتنا على ما يبدو. لا ندخلها - كما سمعت - إلا في وقت النوم إذا ما جن الليل. أمامها وخلفها صف طويل من الحظائر المشابهة على امتداد البصر، في جهة اليسار هناك صف آخر مماثل تماماً، بمسافات وفواصل ثابتة من الأمام والخلف والجوانب. ويوجد خلف ذلك الشارع العريض المعبد اللامع - أو بالأحرى الشارع المعبد الآخر المماثل له، لأن الطريق الذي قادنا من الحمام إلى هنا عبر شوارع وساحات وأبنية متماثلة في هذه المنطقة المنبسطة الشاسعة يصعب تمييزه، على الأقل بالنسبة لي. وهناك حيث تقاطع الطريق العريض مع الطريق القادم من بين الحظائر، أغلق السير عمود بعارضة يشبه لعب الأطفال

جميل أحمر أبيض رقيق. إلى يمينه سياج الأسلاك الشائكة المعروف، الذي عرفت بدهشة أنه مكهرب، وفعلاً، عندها تعرفت إلى الرؤوس الخزفية البيض على أعمدة الكونكريت، التي تشبه تلك على أعمدة الكهرباء والبرق عندنا. لمَستها قاتلة - كما أكدوا -: على العموم، يكفي تقربك من التربة الرخوة للممشى الضيق الممتد بحذائها حتى يطلقوا عليك النار دون إنذار أو كلمة تحذير واحدة من أبراج الحراسة (وقد أروني إياها وعرفت فيها ما خلته مكامن صيد عند محطة القطار) - كما حذرنا من كل صوب أولئك الأكثر اطلاعاً باعتداد ومباهاة. وسرعان ما وصل المتطوعون وسط ضجة كبيرة ينوءون بثقل القدور الحمر بلون الآجر. قبلها ذاع الخبر الذي نقل ونشر وأُذيع بالطول والعرض في كل الساحة: - سنحصل سريعاً على حساء ساخن!- أنا أيضاً وجدت أنه قد حان الوقت لذلك، دون شك، لكن ما أثار عجبي هو هذا الكم من الوجوه المشرقة، هذا الامتنان، هذا الفرح الخاص الذي يكاد يقرب من الفرح الساذج الذي استقبلوا به الخبر: لربما شعرت هكذا، لم يفرحوا للحساء بقدر فرحهم للعناية ذاتها بالأساس، بعد كل هذه المفاجآت الأولى - هذا كان شعوري على الأقل. ووجدت كذلك على أغلب الاحتمالات أن مصدر الخبر هو هذا الرجل، السجين، الذي بدا أنه مرشدنا في هذا المكان، إن لم أقل: مضيفنا هنا. لديه هو أيضاً، مثلما كان للسجين في الحمام، بذلة على مقاسه، شعره طويل بشكل بدا لي غريباً، عليه قبعة من قماش ثخين نسميها هناك "قبعة باسكية"، على قدميه حذاء جميل أصفر، وعلى ذراعه شريط أحمر أبرز سلطاته على الفور، وبدأت أفهم: على ما يبدو علي تصحيح المثل القائل "ليس الملابس ما

يصنع الإنسان" والذي تعلمناه في البلد. كذلك كان على صدره مثلث أحمر اللون - وأوضح هذا للجميع على الفور أنه هنا ليس بسبب عرقه، بل لمجرد نمط تفكيره، كما عرفت بعد قليل. كان لطيفاً معنا، رغم شحة كلامه الموزون، شرح لنا كل شيء مهم، ولم أجد عندئذ في هذا أي غرابة، ففي آخر المطاف وصل هنا قبلنا - هكذا فكرت. كان رجلاً طويلاً، بالأحرى نحيفاً، متغضناً قليلاً، مرهقاً قليلاً، على العموم ودود الوجه. تنبهت كذلك أنه غالباً ما ينزوي وحده، ولاحظت عليه أحياناً نظرات تعجب وعدم فهم، وابتسامات على طرف فمه مع هزة رأس، كما لو أنه يتعجب منا، لا أعرف لماذا. بعد ذلك قالوا إنه من سلوفاكيا. وتحدث بعض منا لغته، وغالباً ما تحلقوا حوله في جماعة صغيرة.

وزع الحساء علينا بنفسه، بمغرفة طويلة الساق غريبة، بالأحرى مخروطية الشكل، ساعده في ذلك مساعدان لم يكونا كذلك من بيننا، أعطانا أواني مزججة بطبقة حمراء مع ملعقة أكل هرمة - واحدة لشخصين، لأن الخزين ضئيل حسبما أفهمونا: ولهذا السبب أيضاً - أضافوا - يجب إعادة الأواني لهم فوراً عقب الانتهاء منها. بعد بعض الوقت وصلني الدور. حصلت على الحساء والقصعة والملعقة مع " الفرا ء" سوية: لم أفرح لذلك، لأنه لم يكن من عاداتي أبداً أن آكل مع آخرين من إناءٍ واحد بأدوات أكل واحدة، لكن الحاجة تفرض ذلك أحيانا كما أرى. تذوقه هو أولاً، ثم أعطانيه فوراً. كان وجهه غريباً لحد ما. سألته، ما طعمه، قال تذوقه. لكني رأيت الأولاد حولي يمتقع وجه بعضهم في حين ينفجر البعض الآخر بالضحك وهم يتبادلون النظرات. إذن تذوقته أنا أيضاً: اضطررت أن أكتشف وبكل أسف أنه غير قابل للأكل

بالتـأكيد. سـألت " الفرا ء"، مـا العـمل، فـقال قدر مـا يتعلق الأمر به، أستطيع أن أكبه بكل ثقة. في نفس الوقت بلغ سمعي شرحٌ من الخلف بصوت مرح: - هذا ما يسمى dörgemüze[٢٠] - كما وضح. لمحت رجلاً بديناً أكبر سناً، تحت أنفه بياض دل على شوارب سابقة، يلوح الفهم على وجهه. وقف حولنا بعض الناس بوجوه عابسة، يعتصرون في أيديهم القصعة والملاعق، فقص عليهم أنه شارك في الحرب العالمية السابقة لهذه، وكان ضابطاً. "كانت هناك فرص كافية لأن يتعرف على هذا المأكل" على الجبهة مع جنود ألمان "تعاركنا إلى جانبهم" - حسب تعبيره. برأيه أنه ليس سوى "خضار مجففة". والمعدة المجرية غير معتادة عليها، قالها مع ابتسامة متفهمة، متسامحة بطريقة ما. لكنه ادعى بأنه من الممكن، لا بل يجب التعود عليها برأيه، لأنها تحوي على الكثير من "المواد المغذية والفيتامينات"، وشرح أن توفرها ينبع من طريقة التجفيف وخبرة الألمان في ذلك. -على أية حال يقول القانون الأساسي عند الجندي الجيد: يجب أكل كل شيء يعطى اليوم، فمن يدري، هل يعطون غداً شيئاً أم لا- قالها بابتسامة جديدة. بعدها شرع فعلاً بتناول حصته بالملعقة بهدوء، بحركة منتظمة بدون أي تكشير إلى أن أتى على آخر قطرة من الحساء. رغم ذلك سكبت حصتي عند حائط المبنى الخشبي، تماماً كما فعل بعض البالغين والأولاد الآخرين. لكنني شعرت بالحرج بعد أن تنبهت إلى نظرات مرشدنا، وقلقت إن كان قد أُزعج ربما؛ لكن خيل لي أنني تعرفت في وجهه على نفس التعبير المميز وتلك الابتسامة غير محددة المعالم. بعدها أعدت القصعة، وحصلت بدلها على قطعة خبز ثخينة عليها مادة بيضاء تشبه مكعبات اللعب في شكلها وحجمها:

زبدة - لا، مارغرين، كما قالوا. أكلتها، مع أنني لم أر مثل هذا الخبز من قبل: مكعب الشكل، وكأن قشرته ولبه عجنا على السواء من طينٍ أسود، فيه أعواد قش وحبيبات تنسحق وتطقطق تحت الأضراس؛ لكنه كان خبزاً، ثم أنني جعت خلال السفر الطويل. ولم أجد وسيلة لطلي المارغرين على الخبز سوى إصبعي، هكذا، على طريقة روبنسون، إن أمكن القول، بنفس الطريقة التي فعلها الآخرون. بعدها نظرت حولي بحثاً عن ماء للشرب، لكن عبثاً كما توضح بشكل مثير للإزعاج: استشطت غضباً، سنعطش من جديد، كما في القطار.

عندها تعين الانتباه إلى الرائحة بشكل جدي. من الصعب تحديد طبيعتها: كانت حلوة المذاق ولزجة بشكل ما، وفيها رائحة المادة الكيمياوية التي تعرفنا عليها، لكن كل ذلك في خليطٍ جعلني أتخوف من أن تستأذن قطعة الخبز السالفة في العودة إلى حنجرتي. لم يكن الاستنتاج صعباً: المذنب هو مدخنة، هناك على اليسار باتجاه الطريق المعبد، على مسافة بعيدة منه. كانت مدخنة معمل كما بدت على الفور، وهكذا فهم الناس من مرشدنا، معمل جلود، مثلما خمّن الكثيرون منا على الفور. وبالتأكيد خطر ببالي أننا عندما كنا نذهب في الآحاد السالفة مع أبي إلى مباراة كرة القدم في أُويْبَشت[٢١]، كان الترام يمر بالقرب من معملٍ للجلود حيث تعودت تكميم أنفي في هذا الشطر من الطريق على الدوام. وشاع أننا لن نعمل في هذا المعمل، لحسن الحظ: إن سار كل شيء على ما يرام، ولم نصب بالتيفوس أو بالزحار أو بغيره، سيأخذوننا قريباً إلى مكانٍ آخر أكثر ألفة كما طمأنونا. ولهذا لازلنا لا نحمل على ملابسنا وخصوصاً على جلودنا رقماً، كما هو الحال مثلاً مع

مرشدنا، "آمر البلوك"، كما أسموه الآن. وبالمناسبة، تحقق الكثيرون من هذا الرقم بعيونهم: كتب بحبر أخضر فاقع على المعصم لا يمحى، كما شاع، استعملت إبرة خاصة للنخس، للوشم كما أسموه. وبلغت مسامعي في ذات الوقت تقريباً قصة المتطوعين الذين جلبوا الحساء. هم أيضاً رأوا الأرقام محفورة في جلود السجناء القدماء في المطبخ. تناقلوا حولي من فم لفم وكرروا واحتاروا في إيجاد تفسير للجواب الذي أعطاه أحد هؤلاء السجناء رداً على سؤال وجهه أحدنا: ما هذا؟ – Himmlische Telephon-nummer - ، أي "رقم تلفون سماوي"، قال ذلك هذا السجين كما زُعم. رأيت أن الأمر شغل بال الجميع عموماً، ورغم أني لم أصبح أوسع علماً بعد سماع الكلمات هذه، تحتم علي أن استغربها أنا أيضاً. على كل حال أخذ الناس يحومون حول آمر البلوك ومساعديه يمطرونهم بالأسئلة ويستنطقونهم، ويتبادلون المعلومات فيما بينهم بسرعة، مثلاً، هل انتشر وباء؟ – نعم – كما تردد الجواب؛ ماذا يحصل للمرضى؟ – يموتون –؛ والموتى؟ – يحرقونهم – كما علمنا. في الحقيقة تبين ببطء دون أن أتمكن من معرفة كيف ولماذا أن هذه المدخنة التي تقابلنا هي ليست مدخنة معمل جلود بل في واقع الأمر مدخنة "كريماتوريوم" أي محرقة الجثث كما شرحوا لي معنى الكلمة. عندها تفحصتها بشكل أعمق: كانت مدخنة بدينة قصيرة مربعة، كأن قمتها قطعت فجأة. ويمكنني أن أقول إنني لم أشعر بأي شيء عدا عن نوع من الاحترام – وبالطبع عدا الرائحة التي انغرزنا فيها حقيقة وكأنها عجين لزج أو مستنقع. لكننا وجدنا مدخنة أخرى مماثلة على بعد، ثم ثالثة، وبمزيد من التعجب رابعة عند حافة السماء الناصعة، وقد نفثت اثنتان منها دخاناً يشبه دخان الأولى، وربما

كان أولئك على حق عندما بدأوا يشكون في دخانٍ ملتوٍ تصاعد خلف أغصان غابة هزيلة بعيدة، وخطر ببالهم، عن حق برأيي: هل انتشر الوباء بهذا الحجم، حتى يكون هناك هذا العدد الكبير من الموتى؟

يمكنني القول إن كل شيء توضح أمامي بدقة تقريباً وبشكل عام حتى قبل حلول ليل اليوم الأول. وخلال ذلك زرنا بيت الراحة - وهو محل فيه ثلاثة صفوف من المنصات كخشبة المسرح على امتداد طوله، وفي كل صف صفان من الثقوب، أي ستة صفوف بمجموعها: كان علينا الجلوس فوق واحدة منها والتصويب فيها بحسب الحاجة. وفي الحالتين لا يسنح الكثير من الوقت، إذ سرعان ما يظهر سجين غاضب، هذه المرة بشريط ذراع أسود، وبيده عصا تبدو ثقيلة، وكيفما كنت عليك الانصراف. وتسكع هنا بعض السجناء القدماء الآخرون الاعتياديون: بدا أنهم أكثر وداعة، وتبين أنهم مستعدون لتقديم بعض الشروح. كان علينا قطع طريق ليست قصيرة في الذهاب والإياب بإشرافٍ من آمر البلوك، وقادنا الطريق قرب مستوطن غريب: خلف سور الأسلاك الشائكة هناك الثكنات المعتادة وبينها نساء عجيبات (وأشحت بوجهي عن إحداهن فوراً بعد أن رأيت شيئاً تدلى من ثوبها المفتوح وقد التصق به بتشنج طفل رضيع تألق رأسه الأقرع تحت الشمس)، ورجال أكثر غرابة بملابس رثة، لكنها مع ذلك تشبه تلك التي يلبسها الناس هناك في الخارج، في الحياة الحرة، إن يسعني القول. عند الإياب أصبحت متيقناً أنا أيضاً: هذا هو معسكر الغجر. فوجئت بعض الشيء: هناك في البلد كانت تصوراتي عن الغجر متحفظة مثل الجميع تقريباً، بالطبع، لكني لم أسمع لحد الآن بأنهم كلهم مجرمون. في تلك اللحظة وصلت عربة خلف سورهم

سحبها أطفال صغار، على أكتافهم سيور كأنهم خيول صغيرة، مشى بجنبهم رجل بشوارب غليظة وبيده سوط. غطيت الحمولة بالبطانيات، لكن من بين الشقوق والخرق استرق الخبز النظر بوضوح، زيادة على ذلك كان خبزاً أبيض دون ريب: واستنتجت من هذا أيضاً أنهم يعلون عنا بدرجة مع ذلك. وعلق خلال هذه الجولة منظر آخر بذهني: مر على الجانب الثاني من الطريق رجل بملابس بيضاء وعلى جانب سرواله الأبيض شريط أحمر وعلى رأسه قبعة فنانين سوداء هائلة كتلك التي اعتمرها الفنانون في القرون الوسطى كما بدا في لوحاتهم، وفي يده عصا غليظة معقوفة المقبض ضخمة وهو ينظر ذات اليمين وذات اليسار على امتداد الطريق، وكان من الصعب جداً أن أصدق أن هذا السيد المحترم هو - كما يدّعون - سجين مثلنا، فحسب.

اقسم: خلال هذا الطريق لم أتحدث مع أي شخص غريب. ومع ذلك، تبدأ في الواقع معارفي الدقيقة منذ ذلك الحين. في هذه اللحظة يحترق أمامنا هناك رفاق السفر من قطارنا، كل هؤلاء الذين صعدوا الشاحنة، الذين ثبت أنهم غير لائقين بنظر الطبيب بسبب الشيخوخة أو لأي سبب آخر، كل الأطفال ومعهم الأمهات الحاليات أو المستقبليات اللائى بانت عليهن علامات الحمل، كما قالوا. هم أيضاً ذهبوا من المحطة إلى الاستحمام. أبلغوهم هم أيضاً عن المشاجب والأرقام، والاستحمام بنفس الطريقة مثلنا تماماً. كذلك كان هناك الحلاقون - كما ادّعوا -، وتسلموا الصابون بيدهم. بعدها دخلوا هم أيضاً إلى الحمام، حيث وجدت هناك - كما سمعت - الأنابيب ومرشاشات المياه: لكن لم ينسكب منها الماء بل الغاز. لم يصبح كل هذا جزءاً من وعيي دفعة واحدة، بل بجرعات

صغيرة، اكتمل على الدوام بتفاصيل جديدة، شككت ببعضها ووافقت على غيرها، وأدغمت بها أخرى جديدة. كانوا لطيفين جداً معهم في الوقت ذاته - كما سمعت -، اهتموا بهم، وأحاطوهم بالمحبة، الأطفال يلعبون الكرة ويغنون، والمكان الذين يخنقونهم فيه جميل جداً، يحيط به العشب والبساتين ومشاتل الزهور: لهذا السبب أثار كل هذا في داخلي شعوراً بنوع من الدعابة، بشيء من قبيل مقالب التلاميذ. وعزز من ذلك الشعور، إذا ما فكرت في الأمر ملياً، براعتهم في حملي على تغيير ملابسي بفكرة المشجب والرقم الذي عليه، أو تخويفهم من أخفى ممتلكات بالأشعة السينية وهو ما بقي مجرد وعيد لا غير. وبالطبع سلّمت بأن كل هذا ليس بمزحة تماماً لو نظرت إليه من زاوية ثانية، فقد تأكدت من النتيجة بعيني - إن لم يخنّي التعبير، وبالدرجة الأولى بتزايد الغثيان في معدتي؛ لكن هذا كان شعوري، وبالأساس - أو هكذا تصورت على الأقل - كل شيء ما كان ليجري على نحو مغاير تماماً. فلغاية الأمر اجتمعوا هنا، وقد أقول أعملوا فكرهم في أغلب الاحتمالات، وإن لم يكونوا تلاميذ بطبيعة الحال، بل رجالاً بالغين ناضجين، وربما، بل من المؤكد هم سادة محترمون يرتدون بذلات أنيقة عليها نياشين ويدخنون السيجار، من المحتمل أن يكونوا جميعاً قادة، لا يستطيع أحد إزعاجهم في هذه الدقيقة - هكذا تصورتهم. يبتكر أحدهم الغاز: وعلى الفور يبتكر الآخر الحمام، والثالث الصابون، والرابع يضيف الزهور إليها، وهكذا. لربما ناقشوا فكرة ما طويلاً، عدلوا عليها، في حين فرحوا بأخرى على الفور، وقفزوا (لا أعرف لماذا، لكني أصر: قفزوا) وهم يدقون كفوف بعضهم ببعض - بالإمكان تصور كل ذلك،

على الأقل بالنسبة إلي. بعد ذلك تتحول فكرة القادة إلى واقع بفعل الكثير من الأيادي المتحمسة وبعد المزيد من النشاط البالغ، ولا يمكن أن يرقى أدنى شك في نجاح العرض. هذا كان مآل السيدة العجوز التي استمعت لكلمة ابنها، دون شك، والطفل ذي الحذاء الأبيض وأمه الشقراء والسيدة البدينة والسيد المسن ذي القبعة السوداء أو مريض الأعصاب أمام الطبيب. خطر ببالي "الخبير": لابد أن المسكين قد اندهش كثيراً، على ما أظن. وقال "روزي"، بهزة رأس مفعمة بالأسى: -مسكين موسكوفيتش -، وكنا جميعاً على نفس الرأي. وصرخ "زير النساء":- يا يسوع ومريم! - فقد علمنا منه أن تخمين الأولاد كان صحيحاً: إذ حدث بينه وبين البنت من معمل الآجر "كل شيء"، وقد فكر الآن في نتائج عمله ذاك على البنت التي ستتضح مع مرور الزمن. شاطرناه قلقه، إلى جانب المصاب الثقيل الذي أصابه رأينا على وجهه تعبيراً آخر عن إحساس يصعب تفسيره، وقد نظر إليه الأولاد في تلك الدقيقة بنوع من الاحترام، وهو أمر لم يكن من الصعب علي فهمه بالطبع.

شغل تفكيري في ذلك اليوم شيء آخر كذلك، فقد علمت أن هذا المكان، هذه المؤسسة، موجودة منذ سنوات عديدة، تعمل يوماً بعد يوم بنفس الشكل - ورغم أنني اقتنعت بأن هذه الفكرة قد تنطوي على بعض المغالاة - لكني فكرت مع ذلك: كأنها كانت تنتظرني. في كل الأحوال فإن آمر البلوك يعيش هنا منذ أربع سنوات - كثير كان من ذكر هذا بتقدير خاص، أكاد أقول برجفة. عندها تذكرت أن تلك السنة كانت فائقة الأهمية بالنسبة إلي أنا أيضاً، فقد تقدمت للدراسة في المدرسة الثانوية في هذا العام بالذات. لا تزال أحداث حفل الافتتاح عالقة بذهني

بشكل جيد - كنت هناك ببذلة زرقاء غامقة مطرزة، مجرية، تعرف باسم زي "بوتشكاي". وقد حفظت كلمات المدير - كان رجلاً محترماً، مظهره كمظهر آمر إن فكرت الآن به، عليه نظارات صارمة وشوارب بيضاء جميلة. في الختام استشهد بأحد حكماء العصر القديم واقتبس هذه الكلمات: "non scolae sed vitae discimus" - "لا ندرس من أجل المدرسة، بل من أجل الحياة". استناداً إلى ذلك كان علي إذن أن أتعلم عن آوشفيتس حصراً، هذا كان رأيي. كان عليهم شرح كل شيء بشكل مكشوف وواضح وبأمانة. لكن خلال السنوات الأربع التي قضيتها هناك في المدرسة لم ينبسوا عن ذلك بكلمة واحدة. غير أنني توصلت بالطبع إلى أن ذلك سيكون محرجاً، علاوة على ذلك فهو لا يمت إلى الثقافة بصلة، كما فهمت. من مساوئ ذلك تبينت اضطراري للتعلم هنا، مثلاً لأن أعرف أننا في "Konzentrationslager" أي "معسكر اعتقال"، لكن معسكرات الاعتقال ليست متشابهة، كما شرحوا لنا. هذا مثلاً "Vernichtungslager"، أي "معسكر إبادة"، كما أوضحوا. أضافوا إلى ذلك فوراً، أن الأمر يختلف تماماً في "Arbeitslager"، أي "معسكرات العمل": الحياة هناك سهلة كما وصلت الأخبار، لا يوجد مجال لمقارنة الظروف والتغذية، وهذا أمر مفهوم، فهناك حتى الهدف يختلف. إذن، سنذهب نحن أيضاً إلى مثل هذا المكان، إن لم يحدث شيء - كما اعترفوا حولي- فهنا في آوشفيتس يمكن أن يحدث أي شيء. وواصلوا شرحهم: لا ينصحوننا أبداً إعلان المرض. وعلى العموم فمستشفى المعسكر يقع في هذا الاتجاه، تحت واحدة من المداخن، التي يسميها المطلعون على الأمور "رقم ٢" اختصاراً. يكمن الخطر في الماء، الماء غير

المغلي، مثل ذلك الذي شربت في طريقنا من المحطة إلى الحمام - لكني لم أكن أعرف. بالتأكيد كانت هناك اللوحة، لا جدال في ذلك، ومع ذلك ربما كان على الجندي أن ينبهنا. لكن مهلاً - خطر ببالي - يجب النظر إلى النتيجة: الحمد للرب، أرى أنني بخير، ولم أسمع من الأولاد شكوى لحد الآن.

فيما بعد عقدت صداقة مع المزيد من المعلومات والمناظر والعادات الأخرى في هذا اليوم. ويمكنني القول على العموم إنني سمعت أخباراً أكثر بعد الظهر، تحدثوا كثيراً عن التوقعات التي تمس مستقبلنا، الاحتمالات والآمال بصدد المدخنة هنا. أحياناً لم نشعر بها، وكأنها لم تكن موجودة: كل شيء يعتمد على اتجاه الريح، كما توضح لدى الكثيرين. في ذلك اليوم رأيت النساء لأول مرة. أشار إليهن الناس المتجمعون المتجمهرون باضطراب عند السور الشائك: كنّ هناك بالتأكيد، لكن كان من الصعب تبينهن، وبالدرجة الأولى أن أرى فيهن نساء في الطرف الثاني من حقل طيني التربة يمتد أمامنا في البعد. حتى إنني فزعت قليلاً لرؤيتهن، ولاحظت أن الناس حولي قد وجموا جميعهم بعد الابتهاج الأول واهتياج الاكتشاف. لم تطرق مسامعي سوى ملاحظة رنت قربي مكتومة ومرتعشة بعض الشيء: - حليقات الرأس-. وفي هذا الصمت المطبق تبينت أنا أيضاً للمرة الأولى مع شيء من أمواج النسيم الصيفي الخفيفة: موسيقى مرحة تجلب السكينة رغم خفوتها ووهنها وصعوبة سماعها، لكنها موسيقى من دون شك، فاجأت الجميع وفاجأتني أنا أيضاً بهذا الشكل وبمصاحبة هذا المشهد. للمرة الأولى وقفت أمام ثُكنتنا دون أن أعرف لِمَ أنتظر في آخر صفٍ من تشكيلٍ بعشرة

صفوف - تماماً مثل كل الثكنات الأخرى التي انتظر أمامها جميع السجناء، إلى جانبينا، وأمامنا وخلفنا، على امتداد البصر -، وخلعت للمرة الأولى قبعتي، كما أوعزوا لنا، بينما تبين في هواء المغيب اللين طيف جنود ثلاثة انزلقوا ببطء دون صوت على دراجات فوق الطريق الرئيسي: مشهد جميل، كان علي أن أشعر: مشهد صارم لحدٍ ما. عندها خطر ببالي: لم ألتق بجنود منذ وقت طويل. تعجبت طويلاً كيف أتعرف على هؤلاء عند الجانب الآخر للحاجز وكأنهم في علو شاهق لا يطال، الذين استمعوا بصرامة وبرود - بينما كتب أحدهم شيئاً في مفكرة مستطيلة - إلى ما قاله لهم آمر مجموعتنا في هذا الجانب (وقد حمل هو الآخر قبعته بيده)؛ ثم أكملوا سيرهم على الطريق الرئيسي مبتعدين دون كلمة أو صوت أو إيماءة، كيف أتعرف على هؤلاء الجبابرة المشؤومين الذين كانوا في الصباح هم أنفسهم أعضاء الفيلق المرح الطيب الذين رحبوا بنا عند القطار. في نفس الوقت سمعت همساً ورأيت إلى يميني حافة وجه وصدرٍ منتفخ: كان الضابط السابق. همس دون أن تتحرك شفتاه:- التعداد المسائي-، مع هزة رأس صغيرة وابتسامة وبوجه ينم عن المعرفة كأن كل شيء هنا يحدث بطريقة مفهومة وبوضوح تام ويلائم مزاجه لحدٍ ما. وعندها رأيت لون الليل هنا لأول مرة - وقد هطل علينا ونحن في الحال هذه -، وشهدت ظاهرة من ظواهره: نيران إغريقية وألعاب نارية فعلية من لهب وشرار على امتداد حافة السماء اليسرى. تهامس حولي الناس ودمدموا وكرروا: - المحارق!.. - لكن هذه المرة بنوعٍ من الدهشة أمام الظاهرة الطبيعية فحسب. ثم: "abtreten"[٢٢]، وكدت أن أشعر بالجوع قليلاً، لكنني علمت في الواقع أن عشاءنا كان

الخبز، وقد أكلته في الصباح. وتبين أن ثكنتنا، "البلوك"، عارية من الداخل تماماً، هي مكان خالٍ من أي أثاث أو أجهزة وحتى بدون إضاءة، مبلط بالأسمنت حيث ثبت أن طريقة النوم لا تحل إلا بشكلٍ مشابه لما جرى في حظيرة الجندرمة: أسندت ظهري إلى ساقي أحد الأولاد الجالسين خلفي، بينما استند آخر إلى ركبتي؛ ولكثرة ما خبرت وتعلمت وجمعت من انطباعات تعبت ونعست، سرعان ما غططت في نوم عميق.

لم يتبق في ذاكرتي عن الأيام التالية سوى القليل من التفاصيل - كما هو الحال تقريباً مع معمل الآجر -، بالأحرى القليل من الظلال أو بعض المشاعر، أكاد أقول انطباع عام عنها. لكن يصعب علي تحديد ذلك بدقة. ففي هذه الأيام كذلك حصلت على المزيد من المعلومات والخبرة ورأيت المزيد من المشاهد. مسّني في هذه الأيام الشعور البارد الغريب الذي أحسست به للمرة الأولى عند رؤية النسوة عدة مرات، فقد حدث أن وجدت نفسي أحياناً في حلقة من وجوه عبست وتغضنت، بين أناس ينظر بعضهم لبعض وقد تصلبت تقاطيعهم وطفقوا يسألون بعضهم البعض: - ماذا تقولون؟ ماذا تقولون؟-، لا جواب عندها، أو دوماً ذاته: -مريع-. لكن ليست هذه هي الكلمة، ليس هذا هو الشعور الدقيق الذي يمكنني أن أصف به آوشفيتس - بقدر تعلق الأمر بي بالطبع -. بين المئات من سكان ثكنتنا كان هناك الرجل عاثر الحظ أيضاً. كان شكله غريباً بشكل ما في ملابس السجين المهلهلة وقبعته العريضة المنزلقة على جبينه الكرّة بعد الأخرى. - ماذا تقولون - سأل هو أيضاً-، ماذا تقولون؟... - لكن لم يكن بوسعنا أن نقول شيئاً، بالطبع. بعد ذلك لم أعد أتمكن من متابعة كلماته المشوشة غير المترابطة. التفكير غير مسموح به، أي مع ذلك،

يمكن ويجب أن نفكر في شيء على الدوام، في أولئك الذين "تركهم في البيت"، أولئك الذين يجب "أن يكون قوياً" من أجلهم لأنهم ينتظرونه: زوجته وطفلاه الصغيران - هذا كان جوهرها تقريباً كما فهمت. لكن الصعوبة الرئيسية هنا كانت مماثلة في جوهرها لتلك في مكتب الجمارك أو القطار أو معمل الآجر: طول الأيام. ابتدأت مبكراً، بعد فجر وسط الصيف المبكر بقليل. عندها فقط علمت كم باردة هي الصباحات في آوشفيتس: تقرفصنا نحن الأولاد بجنب المبنى المطل على السياج الشائك، ملتصقين بعضنا ببعض، ندفئ بعضنا بعضاً وأمامنا الشمس الحمراء لا تزال مائلة. لكن بعد بضع ساعات غدونا نبحث عن فيء نتظلل به. على أي حال، مر الوقت هنا أيضاً، وكان معنا " الفراء" كذلك، وأطلقنا طريفة أو طريفتين، وتلاقفنا هنا الحصى بدلاً من مسامير الحدوات، وكالعادة ربحها منّا "زير النساء" على الدوام، وهنا أيضاً صاح بنا "روزي": - لنغنّ الآن باليابانية!- فيما عدا ذلك اقتصر البرنامج اليومي على رحلتين للمرافق وواحدة في الصباح إلى مبنى المغاسل (وهو مبنى مشابه، لكن بدلاً من المنصات هناك ثلاثة صفوف طولية من الأحواض القصديرية فوق كل واحد منها أنبوب حديدي يقطر الماء من الثقوب الكثيرة عليه)، توزيع الطعام، في المساء التعداد، وبالطبع تبادل الأخبار - كان علي أن أكتفي بهذا. تضاف إلى هذا الانطباعات: مثل حالة "Blocksperre"، أي "حصار البلوك" في الليلة الثانية - عندها رأيت آمرنا للمرة الأولى وقد نفذ صبره بشدة، لا بل أقول وقد اهتاج-، مع كل الأصوات البعيدة المتسربة، وتخالط الأصوات التي خلنا أن نميز بينها الصراخ ونباح الكلاب ولعلعة الرصاص إن

استرقنا السمع جيداً في الظلمة الخانقة للبناية؛ أو منظر مسيرة أخرى للعائدين من العمل عبر السور الشائك ، كما ادعوا حولي أن ما يحملون على النقالات المصنوعة بعجالة هناك خلف ثلة المعتقلين هم موتى مضطجعون، وتعين أن أصدق لأنني خلتها كذلك، بالتأكيد. كل هذا أعطى لمخيلتي على الدوام الكثير من العمل، بطبيعة الحال، من جانبٍ آخر - كما أفترض - ليس بما يكفي لملئ كل اليوم الطويل الخالي من الانشغال. بهذا أدركت أنه يمكن الضجر حتى في آوشفيتش، على ما يبدو - بشرط أن يكون المرء متميزاً. انتظرنا، ترقبنا - لو فكرت في الأمر، كي لا يحدث شيء في الواقع. هذا الملل، سوية مع هذا الترقب الغريب: أعتقد أن هذا هو الانطباع التقريبي، نعم، هذا ما يعنيه آوشفيتس حقيقة -بالنسبة إلي بالطبع.

ويجب أن أقر بشيء آخر: في اليوم الثاني تناولت الحساء، لا بل إنني انتظرت وصوله في اليوم الثالث. كان علي أن أتعجب من نظام الأكل في آوشفيتس. وصل في الصباح مبكراً سائل ما، القهوة، كما قالوا. جلبوا الغداء، أي الحساء بوقت مبكر لدرجة عجيبة، وزعوه في التاسعة تقريباً. بعد ذلك لا يحدث أي شيء بهذا الخصوص حتى وصول الخبز والمارغرين مع المغيب، قبل التعداد بساعة: هكذا وبحلول اليوم الثالث عقدت صداقة معقولة مع الشعور المزعج بالجوع، وكل الأولاد اشتكوا من ذلك أيضاً. الولد المدخن وحده ذكر هذه الملاحظة، أن هذا الشعور ليس بجديد عليه، وأنه يفتقد إلى السجائر بالأحرى - وإلى جانب أسلوبه المعتاد القصير الغريب بدا على وجهه كذلك تعبير يقرب من الشعور بالتشفّي، وقد أغاظني في تلك اللحظة، لذلك أسكته الأولاد بهذه السرعة كما أعتقد.

ومهما تعجبت للأمر فإن واقع الحال يقول إني أمضيت ثلاثة أيام كاملة لا غير في آوشفيتس، بعد أن عددتها على أصابعي. في أمسية اليوم الرابع كنت على متن قطار مرة أُخرى، في عربة من عربات الشحن المعتادة. الهدف كان "بوخنفالد "- كما علمنا - ، ورغم أني أصبحت الآن أكثر حذراً بعض الشيء مع مثل هذه الأسماء الموحية بالأمل، فإن هذا الود وظلال الدفء التي لا تخطئها العين، وألوان مشاعر الحنان وأحلام اليقظة وبعض الحسد التي بدت كلها على وجوه بعض المعتقلين بين أولئك الذين ودعونا لا يمكن أن تكون مجرد خطأ فحسب، هكذا شعرت. وتعين عليّ أيضاً أن أرى بينهم الكثير من المعتقلين القدماء غزيري الخبرة، وكذلك الوجهاء كما أشارت إلى ذلك أشرطة الأذرع والقبعات والأحذية. هم الذين جهزوا عند القطار كل شيء، لم أر إلا بضعة جنود بعيداً، عند نهاية أرصفة التحميل، كانوا جنوداً برتب واطئة، لم يذكّرني أي شيء في هذا المكان الهادئ وفي الألوان الوديعة لهذه الأمسية الرائقة بتلك المحطة الفوارة المشحونة بالانفعالات وبالأنوار وبالحركة وبالضجيج وبالنشاط النابض في كل زاوية من زواياها، والتي نزلت فيها يوماً، أو بعبارة أدق قبل ثلاثة أيام ونصف اليوم، سوى ضخامتها.

لا أستطيع الحديث عن هذه الرحلة أكثر من سابقتها: كل شيء جرى حسب الطريقة المعتادة. لم يكن عددنا الآن ستين، بل ثمانين، بيد أنه لم تكن هناك أمتعة، وبالطبع لم يتعين علينا الاهتمام بالنساء. وجد الإناء هنا أيضاً، وشعرنا أيضاً بالحر وبالعطش كذلك، لكننا تعرضنا إلى غواية أقل، أقصد فيما يتعلق بحقل الغذاء: وزعوا الحصة عند القطار -

قطعة خبز أكبر من المعتاد وقطعتي مارغرين وقطعة من شيء آخر ذكرني بنقانق اللحم عندنا، المسمى "Wurst" - أكلتها على الفور حال استلامها، أولاً، لأنني كنت جائعاً، ثم لم أجد في الواقع مكاناً أخزنها فيه، وفوق ذلك لم يخبرنا أحد بأن الطريق سيستغرق ثلاثة أيام في هذه المرة أيضاً.

وصلنا بوخنفالد في الصباح كذلك، في جو مشمس صافٍ، نظيف، فقد مرت الغيوم ولطفت ضربات الريح الخفيفة من الحرارة. بدت محطة القطار هنا رصيفاً ريفياً وديعاً، على الأقل نسبة إلى محطة آوشفيتس. لكن الاستقبال لم يكن لطيفاً: لم يسحب المعتقلون الأبواب هنا بل الجنود، وكانت هذه في الواقع أول مناسبة حقيقية أتصل فيها بهم عن هذا القرب وبدون تورية، أحتك بهم لهذه الدرجة. فغرت فمي للسرعة والدقة المتناهية التي نفّذوا بها كل شيء. بضع صرخات قصار: "Alle raus!" -"Los!" - "Fünfe Reihen"- "Bewegt euch!"[٢٢]، بضع ضربات رنانة، بضع ضربات حادة، اهتزاز جزمة أو اثنتين، وخز فوهة سلاح أو اثنين، قليل من أنات مكتومة - انتظم موكبنا على الفور كحبات المسبحة وسار، والتحق به كما انتبهت عند الاستدارة في نهاية الرصيف جنديان من كل جانب عند كل خامس صف من الأعمدة الخماسية - أي إلى جانب كل خمسة وعشرين رجلاً بملابس مخططة جنديان، على بعد متر واحد تقريباً، ولم ينحرف نظرهم عنا للحظة واحدة، بيد أنهم كانوا صامتين هذه المرة إنما أعطوا الاتجاه والإيقاع بخطواتهم، نافخين الحياة في كل هذا الرتل دائم الحركة والتموج بكل أجزائه الذي يشبه الدودة التي كنت أصنعها أيام طفولتي من قصاصات ورق وعيدان وعلبة ثقاب؛

كل هذا خدرني قليلاً، شدني تماماً بشكل ما. اضطررت للابتسام قليلاً عندما خطر ببالي الإهمال الذي ميز مرافقة الشرطة لنا هناك في البلد، بل يمكنني القول الخجل، في اليوم الذي أخذنا إلى الجندرمة. حتى يمكنني أن أعتبر مغالاة هؤلاء الجندرمة خيلاء صاخبة لا غير مقارنة بهذه الخبرة الصامتة التي تتكامل كل تفاصيلها مع بعضها بعضاً تماماً. عبثاً رأيت وميزت بوضوح وجوههم أو لون عيونهم أو شعرهم، صفاتهم الشخصية وحتى عيوبهم والبثور على بشرتهم، لم ينفع كل هذا، ومع ذلك، أخذت أتشكك بهذا الشكل أو ذاك: برغم كل ذلك فهل يسير إلى جانبنا من يشبهنا نحن بالأساس؟، ففي غاية الأمر هل هم مع ذلك، بالجوهر، من نفس المادة البشرية؟ لكن خطر ببالي، قد تكون نظرتي خاطئة، فأنا لست مماثلاً لهم، بطبيعة الحال.

رغم ذلك انتبهت إلى أننا بدأنا نتسلق إلى أعلى شيئاً فشيئاً، فوق طريق رئيسي ممتاز آخر، لكنه لم يكن مستقيماً مثل ذلك في آوشفيتس، بل متعرجاً. رأيت حولنا الكثير من الغابات الطبيعية والأبنية الجميلة، بعيداً فيلات ومتنزهات وحدائق تختفت وراء الأشجار، وجدت كل هذه الأصقاع والأبعاد وكل نسبة فيها متناسقة، وأقولها بشجاعة: جذابة - على الأقل بالنسبة للعين التي تعودت على آوشفيتس. فاجأتني على الحافة اليمنى للطريق حديقة حيوان صغيرة: كان سكانها الظباء والقوارض وغيرها من الحيوانات، بينها دب بني كبير أقعى منفعلاً في انتظار الهبات فور سماعه ضجيج خطواتنا، وقام ببعض الحركات الهزلية وهو في قفصه - لكن محاولاته ذهبت هباء بالطبع. ثم مررنا قرب تمثال وقف انتصب على فسحة من العشب امتدت كالإسفين بين شقي الشارع

الذي تفرع إلى فرعين. استقر على قاعدة بيضاء صنعت من نفس الحجر الأبيض الرخو المحبب غير اللامع، هو إبداع خشن بعض الشيء، نفذ دون عناية في تقديري. على الفور بدا أنه يمثل سجيناً من الخطوط المحفورة على ملابسه ورأسه الحليق، لكن بالدرجة الرئيسية من عمله. فقد قلد رأسه الممتد إلى الأمام وإحدى رجليه المرتفعة في الخلف إلى الأعلى حركة الجري، بينما تشابكت يداه في الأسفل بحركة متشنجة حول قطعة صخرية مكعبة الشكل هائلة الحجم في حضنه. نظرت إليه في اللحظة الأولى بتلذذ فني فحسب، وقد أقول - وكما تعلمت في المدرسة - بدون أي مصلحة، بعدها فقط خطر ببالي أنه لابد وأن يكون لذلك معنى، وأن ذلك بالتأكيد لا يعتبر فألاً حسناً في الواقع، إذا ما فكرنا في الأمر. لكن بصري ارتطم بأسلاك شائكة كثيفة ثم ببوابة حديدية مزخرفة مفتوحة بين عمودين حجريين متينين، فوقها شيء مسدود بالزجاج يشبه إلى حدٍ ما أبراج قيادة السفن، بعدها مرقت من تحته: دلفت إلى معسكر اعتقال بوخنفالد.

تقع بوخنفالد في ريف جبلي، فوق مرتفع. هواؤها نقي، وحيث تنظر العين تسر بالمناظر المتنوعة، والغابات التي تحيط بها، وبالسقوف القرميدية الحمر للبيوت القروية تحتها في الوديان. يقع الحمام إلى اليسار. والمعتقلون ودودون على العموم، لكن بشكل آخر يختلف عن آوشفيتس. عند الوصول يستقبل المرء هنا أيضاً بحمام وحلاقين ووسائلٍ معقمٍ وتبديل ملابس. وبالمناسبة، قطع الملابس هي نفسها بالضبط، كما في آوشفيتس. غير أن الحمام هنا أدفأ، وينجز الحلاقون مهمتهم بعناية أكبر، أما عامل مخزن الملابس، فهو يجهد في أخذ مقاسك ولو عن

طريق إلقاء نظرة سريعة. بعدها تصل إلى ممر ينفتح عليه شباك زجاجي، ويستفسرون هل لديك سن ذهبية بالصدفة. ثم يقوم مواطنٌ من مواطنيك ذو شعر يسكن هنا منذ زمن بكتابة اسمك في كتاب كبير، ويناولك مثلثاً أصفر علاوة عن شريط عريض، كلاهما من الكتّان. ويمكنك قراءة حرف U وسط المثلث، دلالة على أنك في آخر المطاف من المجر، وعلى الشريط رقمٌ مطبوعٌ، مثلاً كان الرقم على شريطي ٦٤٩٢١ . وعلمت، من المستحسن تعلم النطق الألماني بشكل واضح ومفهوم ومقطعي بأسرع ما يكون، هكذا: Vier-und-sechzig, neun, ein-und-zwanzig –لأن من الآن فصاعداً هذا سيكون جوابي دوماً عند السؤال من أنا. وهنا لا يكتبون هذا الرقم على بشرتك، ولو استفسرت عن ذلك قبل قليل بقلق داخل الحمام، لأجابك السجين العجوز وهو يرفع يديه عالياً مسدداً بصره نحو السقف معترضاً: –

Aber Mensch, um Gotteswillen! Wir sind doch ja hier nicht in Auschwitz![٢٤].

إلى جانب كل هذا يجب أن يكون الرقم وكذلك المثلث على صدر الثوب في المساء، وذلك بمساعدة المالكين الوحيدين للإبرة والخيط: الخياطين؛ ولو سئمت الانتظار في الدور حتى مساء اليوم، يمكنك أن تزيد من الهمة عندهم بشيء من حصتك من الخبز والمارغرين، لكنهم يعملون بكل سرور حتى من دون ذلك، فهذا واجبهم، كما قالوا. الجو في بوخنفالد أبرد من آوشفيتس، الأيام رمادية وغالباً ما يرذّ المطر. ويحدث في بوخنفالد أن يفاجأ المرء بعصيدة ساخنة في الإفطار؛ تعلمت هنا علاوة على ذلك أن الحصة اليومية من الخبز ثلث، وأحياناً نصف في

بعض الأيام - وليس ربع بشكل اعتيادي وأحياناً في بعض الأيام خمس كما في آوشفيتس-، إن لحساء الغداء قواماً ثخيناً، وفي هذا الحساء تجد نتفاً حمراء من لحم، لا بل مكعباً كاملاً من اللحم إن كنت محظوظاً، كما تعرفت هنا على مصطلح "Zulage"[٢٥]، ويعني أن تتسلم إلى جانب جراية المارغرين الاعتيادية نقانق أو ملعقة مربى - بحسب تعبير الضابط الموجود هنا والذي تلوح عليه علامات الرضا في هذه المناسبات. في بوخنفالد سكنا في خيام، في "Zeltlager - "معسكر الخيام"-، أو كما يسمى أيضاً "Kleinlager " - "المعسكر الصغير"-، ونمنا على مضاجع رش عليها التبن، ومع أننا لم نكن منفصلين بعضنا عن بعض وفي زحمة، لكن بوضع أفقي على الأقل: السور الشائك هنا في اتجاه الخلف غير مكهرب، لكن من يتجرأ الخروج من خيمته في الليل ستمزقه كلاب الرعي الألمانية - هكذا حذرونا، وعلينا ألاّ نشكك في جدية التحذير حتى لو فوجئنا به للوهلة الأولى. عند السور الثاني فوق التل حيث تتسلق وتتفرع وتتلوى طرق المعسكر الحقيقية المرصوفة بالصخر وتبدأ الأبنية الخضر اللطيفة والبيوت الصخرية ذات الطابق الواحد، تتوفر فرص يومية لشراء ملاعق أو سكاكين أو مزميات أو ملابس من المعتقلين السكان القدماء للمعسكر؛ عرض علي أحدهم كنزة، سعرها نصف قطعة خبز فقط لا غير، كما أشّر وأشار وشرح - لكنني لم أقتنها منه مع ذلك، لأنني لا أحتاجها في الصيف، واعتبرت الشتاء لا يزال بعيداً. ورأيت كذلك كم تنوعت المثلثات الملونة وكم تعددت الحروف فيها، التي لم أتبين ماهيتها جميعها على الدوام: ترى أين وطن هؤلاء الناس؟ لكني تبينت في محيطي الكثير من الكلمات الريفية الطعم في

الكلام المجري، وسمعت هنا مراراً حتى تلك اللغة الغريبة التي صادفتها لأول مرة في آوشفيتس على لسان المعتقلين غريبي الأطوار الذي استقبلونا ونحن في القطار. ليس هناك تعداد لسكان معسكر الخيام في بوخنفالد، وتوجد المغاسل في العراء، بدقة أكبر تحت ظلال أشجار وارفة: لا تختلف في جوهرها عن تلك في آوشفيتس، عدا أن الحوض صنع من حجر، والأهم من ذلك أن الماء انهمر أو انبثق أو قطر من ثقوب الأنابيب طوال اليوم، ومنذ وصولي إلى معمل الآجر لحد اليوم، حدثت هنا معي للمرة الأولى هذه الأعجوبة، وهي أنني شربت كلما عطشت، لا بل حتى عندما خطر ببالي أن أشرب. يوجد في بوخنفالد كريماتوريوم كذلك، لكن واحد فقط، ليس هذا هدف المعسكر، ليس جوهره، روحه، معناه، أقول ذلك بجرأة-، بل يحرق هنا من يقضي في المعسكر، وسط الظروف الطبيعية للمعسكر إن صح القول. في بوخنفالد يجب تجنب المنجم قدر الإمكان - ويبدو أن هذه النصيحة جاءت من السكان القدماء للمعسكر - على الرغم من أنه لا يعمل تماماً الآن على عكس ما كان في زمانهم، كما أضافوا. علمت أن المعسكر يعمل منذ سبع سنوات، غير أنه يوجد هنا من سكن معسكرات أقدم، بينها تعرفت على أسماء "داخاو" و"أورانينبورغ" و"زاخسهاوزن": عندها فقط فهمت تلك الابتسامة المتسامحة التي بدت على محيا بعض السادة المحترمين وهم يرتدون الملابس الجيدة عبر الأسلاك الشائكة عندما وقعت عيونهم علينا، من رأيت عليهم أرقام بعشرة أو عشرين ألفاً، بل حتى بثلاثة أصفار أو صفرين. علمت كذلك أن مدينة مهمة من وجهة النظر الثقافية تقع قرب معسكرنا، وهي فايمار، التي قرأت عن شهرتها وأنا في البلد، بالطبع:

هنا عاش وأبدع أعماله ذلك الرجل الذي حفظت قصيدته التي مطلعها "Wer reitet so spät durch Nacht und Wind?"[٢٦] عن ظهر قلب، لا تزال الشجرة التي زرعها بيده ونمت وغلظ جذعها منذ ذلك الحين وعُلّمت بلوح موجودة في داخل معسكرنا وقد حميت من المعتقلين بسور - كما يشاع. شيء على شيء، لم أعد أشعر بصعوبة في تفهم تلك الوجوه الآوشفتسية البتة: يمكنني القول، إنني سرعان ما أحببت بوخنفالد.

تقع تسايتس، أو بكلمة أدق المعسكر المسمى على اسم هذه المدينة، على مبعدة ليلة واحدة بقطار الشحن، وفوقها مسير عشرين أو خمسة وعشرين دقيقة على الأقدام، بمرافقة الجنود عبر أرض زراعية فلحت بعناية، فوق طريق رئيسية رصعت المناظر الريفية الجميلة ما حولها - كما تأكدت من ذلك شخصياً أنا أيضاً. هذا سيكون محل إقامتنا النهائي، كما أكدوا لنا، على الأقل بالنسبة لأولئك من مجموعتنا الذين يبدأ اسمهم قبل حرف الميم في الأبجدية؛ إذ كان مقصد الباقين مدينة ماجدَبورغ التي كان اسمها التاريخي معروفاً أكثر بالنسبة لي - هذا ما أفهمنا في بوخنفالد معتقلون عليهم مختلف شارات الاحترام وبيدهم لوائح طويلة، هنا في أمسية اليوم الرابع، في ساحة مربعة واسعة أنارتها المصابيح القوسية، لا يحزنني شيء سوى أنني سأفترق هكذا بشكل نهائي عن الكثير من الأولاد، وخصوصاً "روزي"، فصلتني نزوات الأسماء عن الآخرين الذين أجلسوا في القطار حسب ترتيبها، للأسف.

يمكنني القول، لا يوجد أكثر إجهاداً وأشد استنزافاً من هذا التعب المزعج الذي تعين أن نلاقيه على ما يبدو كل مرة ننتقل فيها إلى معسكر اعتقال جديد - على الأقل هذا ما جربته في تسايتس بعد

آوشفيتس وبوخنفالد. بالمناسبة رأيت على الفور أنني وصلت هذه المرة إلى معسكر اعتقال صغير وفقير ومنزو، يمكن وصفه بالريفي. بحثت عبثاً عن حمام أو كريماتوريوم - يبدو أنها من ملحقات معسكرات الاعتقال المهمة فحسب. حتى الريف حوله، ممل سهلي منبسط، ولا يمكن رؤية سوى شريط أزرق من آخر المعسكر: "جبال تورينجيا" - كما سمعت من أحدهم. السور الشائك الذي تحتل أربعة أبراج حراسة زواياه، يطل مباشرة على الطريق الرئيسي. المعسكر ذاته مربع الشكل - عبارة عن مساحة واسعة مغبرة، بوابته تقع على الطريق الرئيسي، بينما تحيط جوانبه الثلاثة الأخرى بخيام هائلة تشبه المخازن أو خيم السيرك: وتبين أن التعداد الطويل والترتيبات وكل الجهد المبذول والتدافع كان لتحديد سكان كل خيمة، "بلوك" كما قالوا، وإيقافهم أمامه بجماعات من عشرة صفوف. جُرفت نحو واحد منها، بشكل دقيق نحو الخيمة إلى أقصى اليمين من آخر صف إذا ما وقفنا ووجهنا نحو البوابة وظهرنا للخيمة، كما وقفت أنا أيضاً - لدهرٍ من الزمن الآن إلى حد الخدر تحت حرارة الشمس التي غدت لا تحتمل. عبثاً جلت بنظري أبحث عن الأولاد: يحيط بي غرباء. إلى يساري جار طويل نحيف غريب الأطوار دمدم شيئاً باستمرار بينما هز جذعه إلى الأمام والخلف بإيقاع، أما إلى يميني فوقف رجل قصير عريض الأكتاف، قضى وقته في تسديد بصقات صغيرة مدببة نحو التراب أمامه بدقة شديدة خلال فترات زمنية منتظمة. نظر إلي هو أيضاً، بعجالة أول الأمر، ثم عاد ثانية وتفحصني بعينيه المائلتين اللتين تشبهان الأزرار. تحتها رأيت أنفاً صغيراً لدرجة مضحكة،

وكأنه دون عظام وقد أمال قبعة المعتقلين على رأسه بجذل. في المرة الثالثة تسائل على الفور، عندها لاحظت أن أسنانه الأمامية ناقصة جميعاً - من أين أتيت؟ - عندما قلت له من بودابشت، انتعش كثيراً: - أما زال البولفارد قائماً ويسير فيه الترام رقم ستة كما "تركه في آخر مرة". قلت له كل شيء على حاله؛ بدا راضياً. وكان كذلك تواقاً لمعرفة كيف وصلت إلى هنا، وقلت له: - بكل بساطة. أنزلوني من الحافلة. - وماذا بعد؟ - استفهم، وقلت له، لا شيء: بعدها جاءوا بي هنا. كما لو تعجب قليلاً، وكأنه ليس على معرفة تامة بسير الحياة هناك، وهممت بسؤاله ... لكنني لم أسأل، لأنه في تلك اللحظة جاءتني صفعة من الجانب الآخر.

في الحقيقة وجدت نفسي منطرحاً على الأرض عندما سمعت صوت الصفعة وبدأ ثقلها يحرق خدي الأيسر. وقف أمامي رجل، بملابس خيالة سوداء من الرأس حتى القدم، بقبعة فنانين سوداء، وشعر أسود وحتى شوارب سوداء نحيفة في وجهه الغامق، بالإضافة إلى رائحة أذهلتني: دون شك، غمامة من العطر الحقيقي حلو المذاق. لم أفهم من صراخه المبهم سوى تكراره لكلمة "Ruhe" أي "هدوء" عدة مرات. بدا بالتأكيد رفيع المقام والرتبة، دلّ على ذلك رقمه السامي، الصغير، ومثلثه الأخضر بحرف "Z" ، على الجانب الثاني زينت صدره صفارة فضية تدلت على سلسلة معدنية، وبالطبع الشريط على ذراعه الذي كتب عليه بحروف بيضاء يمكن رؤيتها من بعيد "LÄ"، كلها أكدت ذلك الواحدة بعد الأخرى. لكنني كنت شديد الغضب مع ذلك، فأنا لم أتعود أن أُضرب،

حاولت حتى في جلستي وبوجهي أن أُعبر عن غضبي هذا ولم أهتم لمن يكون. أعتقد أنه رأى ذلك، فبرغم استمراره في الصراخ، لانت خلال ذلك نظرة عينه السوداء الغامقة كما لو أنها طفت على زيت، واتخذت في الأخير تعبيراً يقرب من التبرير بينما انزلقت عيناه تتفحصني بالطول، من قدمي حتى وجهي: كان شعوراً كريهاً مزعجاً بشكل ما. بعدها هرع بين الناس الذين أفسحوا المجال له، بنفس السرعة العاصفة التي انبثق فيها فجأة قبل قليل.

عندما استويت على قدمي، استفسر الجار الأيمن مسرعاً: أتوجعت؟ قلت له متعمداً بصوت عال: ولا بمقدار ذرة. – عندها قال – من الأفضل لو تمسح أنفك–. تحسست بيدي: بالتأكيد، اصطبغ إصبعي باللون الأحمر. أراني كيف أحني رأسي إلى الخلف كي يتوقف النزف، أما الرجل الأسود، فقد علق عليه بهذا التعليق: غجري–؛ ثم أعلن بعد قليل من التأمل: – الرجل مِثليّ، لا نقاش في ذلك.– لم أفهم تماماً ما أراد أن يقول، وسألته عن معنى التعبير. عندها ضحك قليلاً، وقال:– لوطي!– كان هذا التعبير أوضح بالنسبة لي، تقريباً، على ما أعتقد. – بالمناسبة – أضاف وهو يمد يده إلى جنب نحوي – اسمي باندي تْسيتروم–، عندها ذكرت له اسمي.

أما هو، فقد وصل هنا من معسكرات العمل الإجباري – كما علمت منه لاحقاً. استدعوه على الفور عقب بدئهم بالحرب، لأنه كان في الحادية والعشرين بالضبط: عندها كان مناسباً للعمل الإجباري بسبب عمره وعرقه وصحته، ولم يزُرْ أهله منذ أربع سنوات. كان في أوكرايينا

أيضاً، حيث نزع الألغام. تساءلت:- وأسنانك؟-. أجاب - كسروها لي-. والآن أنا كنت من تعجب: - كيف..؟-، لكنه علق على ذلك بأنها "قصة طويلة"، ولم يتحدث كثيراً عن الأسباب. على أية حال "اصطدم مع العريف" وقد كُسر أنفه وقتها إلى جانب أشياء أُخرى، هذا ما علمته منه. وتحدث عن رفع الألغام باختصار كذلك: بحسب كلماته تحتاج إلى مجرفة وسلك وبالطبع إلى الحظ. ولهذا السبب قلائل هم من بقوا أحياء من "سرية العقوبات" عندما استبدل الطاقم المجري بآخر ألماني. فرحوا كثيراً لأنهم وعدوهم بعمل أخف وجراية أفضل. بعدها نزلوا من القطار هم أيضاً في آوشفيتس، بالطبع.

كنت أود الاسترسال في الفضول، لكن عاد في هذه الدقيقة الرجال الثلاثة. انتبهت قبل قليل، نحو عشرة دقائق تقريباً، إلى اسم في خضم الأحداث الجارية في الأمام، وبشكل أدق إلى صراخ مشترك لعدد من الأصوات في الأمام، كلها هتفت بنفس الاسم: - الدكتور كوفاتش!-، عندها تقدم رجل بتواضع يتعذر، كما لو أنه تقدم بسبب تلك النداءات فحسب، سمين قليلاً لين الوجه شعره حليق من الجوانب أصلع من القمة، ثم تقدم رجلان آخران أشار هو إليهما. عندها ذهب الثلاثة مع الرجل الأسود، ولم يصل الخبر إلينا هنا في الصفوف الأخيرة إلا متأخراً، بأننا اخترنا في الواقع قائداً، أو كما قالوا "Blockältester"[٢٧] وكذلك "Stubendienst"، أي - وكما ترجمتها ترجمة تقريبية لباندي تستروم الذي لا يعرف الألمانية - "خدمة الغرفة". والآن أرادوا تعليمنا بعض كلمات الإيعاز والحركات المرافقة لها، التي لن يكرروا تعليمها لنا مرة

ثانية – كما حذروهم ونقل هؤلاء التحذير لنا. بين هذه كنت قد تعرفت على "Achtung!"، "Mützen... ab!" وكذلك "Mützen.. auf!"[٢٨] من خلال تجربتي لحد الآن، لكن كانت هناك أخرى جديدة، مثل "Korrigieret!"، أي "عَدّل" – أي عدل من قبعتك، بالطبع – وكذلك "Aus!" التي يجب عندها أن نضع كفوفنا على أفخاذنا. كل هذا تمرنا عليه بعد ذلك. علمنا كذلك أن للـ Blockältester مهمة ثانية في هذا الوقت: تقديم تقرير التعداد، وهو الأمر الذي تدرب عليه أمامنا، عدة مرات، بحيث قام أحد الـ Stubendienst - وهو رجل متين أحمر البقع مزرق اللون قليلاً طويل الوجه – بدور الجندي الألماني. سمعته يقول –Block fünf ist zum Appel angetreten. Es soll zweihundertfünfzig, es ist..[٢٩] إلى آخره، ومن هذا علمت بأنني من سكان البلوك خمسة، وعدد سكانه مائتان وخمسون رجلاً. وجد الجميع ذلك واضحاً ومفهوماً ويمكن تمثيله بعد تكراره بضع مرات. بعد ذلك جاءت دقائق بطالة، وبما أنني انتبهت خلال ذلك إلى كومة التراب إلى يمين خيمتنا وفوقها العمود والأخدود العميق الذي يمكن تخيله خلفها، سألت باندي تستروم عن رأيه، ما هي وظيفة ذلك. – خلاء – قالها فور إلقاء نظرة سريعة. هز رأسه بعض الشيء بعد أن تبين أنني لم أعرف هذا التعبير. – يبدو عليك أنك كنت متعلقاً بأذيال أمك لحد الآن – هذا كان رأيه. رغم ذلك، فسره لي بجملة قصيرة. وأضاف عليها شيئاً، حتى أقتبس كلماته دون نقصان، هو هذا: – عندما يمتلئ ذلك بخرائنا، سنكون أحراراً! –. ضحكت، لكنه بقي جاداً، وكأن ذلك هو ما يعتقد فعلاً، إن لم أقل أن ذلك هو ما قرر. غير أنه لم

يتـحدث المزيد عن فكرته تلك، فـقد بدت شخـوص ثلاثة جنود صـارمين تقترب من جهة البوابة دون أي تعـجل لكن في اعتـياد كما بدا ، وبكثير من الحــذر، عندها صــرخ الـ - Blockältester -Achtung! Mützen.. ab!، لكننا أحسسنا بشيء جديد في صوته، بلون متحمس وزاعق لم نسمعه أبداً في التدريب من قبل، وعندها أنزل هو أيضاً قبعته عن رأسه مثل الجميع، مثلي، بالطبع.

٦

لم أقتنع أن للعبودية كذلك أيامها الرتيبة إلاّ في تسايتس، لا بل إن العبودية الحقيقية ذاتها عبارة عن يوم اعتيادي رمادي كئيب لا غير. كأنني أحسست بنفسي في مثل هذا الموقف ذات يوم تقريباً؛ في القطار يوماً وأنا في طريقي إلى آوشفيتس. واعتمد كل ذلك على الوقت، وبالطبع على قدرات المرء. غير أنني في تسايتس شعرت بأنه حتى القطارُ قد توقف - حتى أبقى عند المثل الذي أسوق -. من جانب آخر فإنه انطلق في نفس الوقت بسرعة لم أستطع معها اللحاق بالمتغيرات التي جرت أمامي وحولي وحتى في داخلي - وهذا صحيح أيضاً-. أستطيع أن أقول شيئاً على الأقل: قدر تعلق الأمر بي فقد قطعت الطريق كله، وجربت كل الاحتمالات التي واجهتني في هذا الدرب بثبات.

على أية حال نبدأ الأشياء الجديدة في كل مكان، حتى في معسكرات الاعتقال، بنية طيبة - على الأقل هذه هي تجربتي: في البدء يكفي أن أتحول إلى معتقلٍ جيدٍ، وسيجلب المستقبل ما تبقى - هذه كانت رؤيتي، وعليها استند نمط معيشتي، تماماً كما فعل الآخرون. سرعان ما انتبهت إلى أن هذه الآراء الإيجابية التي حصلت عليها في

آوشفيتس بصدد مؤسسة Arbeitslager[٢٠] تستند إلى معلومات مبالغ فيها بالتأكيد. غير أنني لم أتبين على الفور حجم هذه المبالغة ، وبالدرجة الأولى أتبين كل النتائج الناجمة عن ذلك بشكل دقيق - ولم يكن في مقدوري ذلك- ، وكما لاحظت ذلك مرة أُخرى على الآخرين، وأقولها بكل جرأة: على الجميع، انتبهت إليها عند جميع سكان معسكرنا الذين يقرب عددهم من الألفين، بالطبع باستثناء الانتحاريين. غير أن هذه الحالة كانت نادرة، ولم تكن الحالة العامة بأي شكلٍ من الأشكال، أو المثالية في أي حالٍ من الأحوال، وبهذا أقر الجميع. وقد وصلت مسامعي أحيانا أخبار حدث أو حدثين من هذا القبيل، وسمعت كيف تداولوه وتبادلوا الرأي حوله، قابله بعضهم أحياناً برفض مكشوف، أو بتفهم من قبل آخرين، والمعارف بالتأسف - لكن اجتمع الرأي حوله عموماً أنه تصرف نادر جداً، بعيد كل البعد عنا، يصعب تفسيره، وربما قصير النظر قليلاً، أو ربما جدير بالاحترام، ومع ذلك يسعى المرء إلى صياغة حكم حوله لكونه تصرفاً متسرعاً.

المهم هو ألاّ نستسلم: لأن الأمور ستسير على نحوٍ ما، إذ لم يحدث قط أن شيئاً لم يحدث - كما علمني باندي تسيتروم، أما هو فقد تعلم هذه الحكمة من العمل الإجباري. وأول وأهم شيء هو الاغتسال (عند الأنابيب المثقبة فوق صفوف الأحواض المتوازية، في العراء في جانب المعسكر المطل على الطريق الرئيسي). بنفس درجة الأهمية تقنين حصة الأكل - إن وجدت أو لم توجد -. مهما كلفتنا صرامة التقنين تجاه أنفسنا، يجب أن يبقى من الخبز قطعة لقهوة الصباح التالي، لا بل قطعة لفرصة الغداء - رغم هجرة أفكارنا نحو الجيب وبالأساس حراسة

أصابعنا التي تود التسلل إليها - بهذه الطريقة وحدها نستطيع تجنب تلك الفكرة المحرجة مثلاً: لا يوجد ما نأكل. تعلمت أن ما خلته منديلاً هو رباط للقدم بدلاً من الجوارب؛ أن وسط الصف هو الأكثر أماناً عند التعداد أو المسير؛ ألاّ نقف عند توزيع الحساء في المقدمة بل في الآخر، بذلك يغرفون لنا من الجزء الكثيف؛ أن نحول مقبض الملعقة بالدق إلى سكين: كل هذا وغيره الكثير من العلوم المفيدة في حياة المعتقلين تعلمتها من باندي تسيتروم، اقتبستها منه واجتهدت في تطبيقها بشكل مماثل.

لم أشأ تصديق ذلك أبداً، لكنه حقيقة قائمة: في ظروف الاعتقال تفوق أهمية النظام المحدد لنمط الحياة، الأمثولة، وأكاد أن أقول الفضيلة أهميتها في أي ظرف آخر، على ما يبدو. ويكفي أن نلقي نظرة على البلوك الأول، حيث يسكن السكان القدماء. يفصح المثلث الأصفر على صدورهم عن الجوهر، وحرف L في وسطه عن الظرف القائل بأنهم جاءوا من لتوانيا البعيدة، وبالتحديد من مدينة ريغا - كما علمت. نرى بينهم هذه المخلوقات الغريبة التي أرعبتني قليلاً في البداية. عند النظر إليهم عن بعد تراهم شيوخاً عجائز، وهم برؤوسهم التي تخفت في رقابهم وأنوفهم البارزة من وجوههم وبملابسهم القذرة المتدلية من أكتافهم المرفوعة يذكّرونني بغربان شتوية تشعر بالبرد الأبدي حتى في أشد أيام الصيف قيظاً. وكأنهم في كل خطوة متصلبة من خطواتهم المتعثرة يتساءلون: تُرى أيستحق هذا كل الجهد والتعب؟ علامات الاستفهام المتحركة هذه - إذ حتى شكلهم الخارجي، بل حتى حجمهم لا يمكن وصفه بشيء آخر - غدونا نسميها في معسكر الاعتقال باسم "مسلمان"، كما

علمت. وعلى الفور حذرني باندي تسيتروم منهم: - سيفقد المرء رغبته في الحياة إذا ما نظر إليهم - كما كان يعتقد، وكان في كلماته بعض الحقيقة، مع أنني اقتنعت بمرور الزمن أن ذلك يحتاج إلى الكثير من الأمور الأخرى.

ثم فوق كل ذلك هناك العناد: يمكنني القول ولو بشكل خاص، أن تسايتس لم تفتقد ذلك أيضاً، وفي بعض الأحيان كان العناد ينفعنا كما انتبهت. مثلاً تعلمت من تسيتروم باندي الكثير عن هذه الجماعة أو الهيئة أو الملة الغريبة أو سمها ما شئت، التي تعجبت على نموذج منها - إلى يساري في الصف - عند وصولنا هنا. سمعت منه كذلك أنهم يسمون "فنلنديين". إذ إنك لو سألتهم، من أين أتوا، لأجابوكَ - إذا ما اعتبروك تستحق الجواب أصلاً - "فِن مينكاتش" مثلاً، ويقصدون من مونكاتش[٢١]؛ أو "فِن شادارادا"، وهذه مثلاً - يجب أن تحزر-: شاتورايّاأويْهَي[٢٢]. ويعرف باندي تسيتروم هذه الجماعة من أيام العمل الإجباري، وصورته عنهم ليست جيدة. تراهم في كل مكان، عند العمل وفي الطابور أو التعداد وهم يتأرجحون بإيقاع إلى الأمام والخلف يدمدمون صلاتهم مع أنفسهم دون توقف، وكأنهم يسددون ديناً لا يمكن تسديده. لو أمالوا فمهم أثناء ذلك ليهمسوا لنا: - سكين للبيع-، مثلاً، فإننا لا نصغي إليهم، خصوصاً في الصباح، برغم الغواية، عندما يقولون: - حساء للبيع-، لأنهم، مهما كان ذلك غريباً، فهم لا يتناولون الحساء، حتى مع النقانق في الأحيان النادرة - لا يتناولون أي شيء لا يتفق وتعاليم الدين. لكن، كيف يعيشون إذن؟ - يتساءل المرء، ويجيب باندي تسيتروم على ذلك: لا تخف عليهم. صحيح، إذ إنهم يعيشون

كما هو واضح للعيان. وهم يتحدثون فيما بينهم، ومع اللتوانيين بلغة اليهود، لكنهم يعرفون الألمانية والسلوفاكية و و و: إلا المجرية - بالطبع عدا حالات التجارة. ذات مرة - لم أستطع تجنب الأمر بأي حال من الأحوال - قادني الحظ إلى الوقوع بينهم في فرقة عمل. - رَدس دي يديش؟[٢٣]- جاءني سؤالهم الأول. عندما قلت لهم، لا للأسف: انتهت علاقتهم بي، احترقت بنظرهم، نظروا إلي وكأنني هواء، أو بالأحرى لا شيء. حاولت الكلام، أو إثارة انتباههم لي - دون فائدة. - دي بِست نِشت كا يِد، دْبِست آ شَيغَتس[٢٤]- هزوا رؤوسهم، وتعجبت كيف يتمسك هؤلاء الناس - البارعون في عالم التجارة على ما يشاع - لهذه الدرجة الغبية بمثل هذا الشيء الذي يفوق ضرره عليهم فائدته بكثير إن نظرنا إلى محصلة الأمر. عندها شعرت في ذلك اليوم أيضاً بنفس شعور الضيق، نفس حكة الجلد، وتملكني بينهم خَرَق أحياناً، الأمر الذي تعرفت عليه في الوطن، وكأن فيّ شيء ما ليس على ما يرام، كما لو لا تتماثل عقيدتنا، بعبارة أخرى: بشكل ما شعرت وكأنني يهودي، وهذا أمر غريب مع ذلك، ففي نهاية المطاف أنا بين يهود، في معسكر اعتقال، كما أرى.

في وقت آخر تعجبت على باندي تسيتروم قليلاً. سمعت منه سواء في وقت العمل أم في الراحة أغنيته المفضلة التي جلبها معه من الفيلق التأديبي أيام العمل الإجباري، وسرعان ما حفظتها عنه. "نقتلع الألغام من أرض اوكراينا/ لكننا لن نكون هناك جبناء" - هكذا كان مطلعها، وقد أحببت بشكل خاص آخر مقطعٍ منها: "وإذا ما سقط رفيق، صديق حميم / سنرسل خبراً إلى الوطن / بأنه / مهما كان الخطر المتربص بنا

/ يا وطننا الغالي العزيز / فإننا لن نخونك أبداً". كانت جميلة، لا جدال في ذلك، وحزينة، إيقاعها البطيء وليس القافز، وكذلك كلمات هذه القصيدة لم تمر دون أن تؤثر فيّ، بالطبع -خطر ببالي الدركي في القطار الذي ذكرنا بكينونتنا المجرية: إذا ما نظرنا للأمر بشكل جدي، فقد عاقبهم الوطن هم أيضاً. ذكرت له ذلك ذات مرة. لم يجد حجة معاكسة، لكنه بدا وكأنه قد انزعج، أو بالأحرى غضب قليلاً. في اليوم الثاني وفي مناسبة ما، بدأ من جديد بالتصفير وهو مستغرق في التفكير، ثم دمدم وبعدها بدأ يغني، وكأن شيئاً لم يكن. غناها كثيراً بعد ذلك، وكانت هناك فكرة ثانية رددها كثيراً "أن يدوس على رصيف شارع نَفَلَيتْش" - فهو يسكن هناك، وذكر هذا الشارع ورقم الدار عدة مرات وبعدة ألوان، بحيث أحسست أنا الآخر بكل جاذبيته، وبدأت أتشوق إليه، رغم أنه كان في الواقع شارعاً فرعياً منزوياً على ما أذكر، في مكان ما قريباً من محطة القطار الشرقية. تحدث كثيراً وتذكر وذكرني بأماكن وساحات وشوارع ومبانٍ معينة، باللافتات والإعلانات المضيئة المعروفة على واجهات المباني وواجهات العرض المختلفة، وبكلماته هو "أنوار بودابشت". كان علي تصحيح هذه الأخيرة له، اضطررت لأن أشرح له أن هذه الأنوار لا توجد الآن بسبب قوانين التعتيم، وأن القنابل غيرت من منظر المدينة هنا وهناك. استمع إلي، لكني رأيت أن التوضيح لم يرق له. في اليوم التالي، بدأ يتحدث عن الأنوار مجدداً عند أول فرصة مناسبة.

لكن من له معرفة كل أنواع العناد، وأستطيع أن أقول إنني كنت أستطيع الاختيار بين العديد من الأنواع في تسايتس - إن استطعت.

سمعت عن الماضي، عن المستقبل، وسمعت عن الحرية كثيراً، الكثير جداً، لا بل أستطيع أن أقول إني لم أسمع في أي مكان أخر قط بقدر ما سمعت بين المعتقلين، وأعتقد أن هذا يمكن تفسيره، بطبيعة الحالة. ووجد آخرون نوعاً من السعادة في الأمثلة وطريف الكلام والنكات. وسمعت هذه أنا أيضاً بالطبع. هناك ساعة في اليوم تتوسط العودة من المعمل والتعداد، ساعة مميزة، مليئة بالحيوية والانشراح، كنت أنتظر قدومها بفارغ الصبر وأحبها كثيراً - بالمناسبة، هي عادة ساعة العشاء في نفس الوقت. بينما اخترقت مختلف المجموعات البشرية التي انشغلت بالنشاط والتجارة والنقاش في الساحة، اصطدم بي شخص ما، ونظر إلي من تحت قبعة السجن الفضفاضة زوج من العيون الصغيرة القلقة فوق أنف مميز في وجه مميز. - أنت؟- قلناها سوية، لأنه عرفني وأنا عرفته: الرجل عاثر الحظ. بدا على الفور وقد سر كثيراً، وسألني عن محل سكني. قلت له في البلوك رقم ٥ . -للأسف- قال، لأنه يسكن في مكان آخر. اشتكى لي: "لا يرى المعارف"، ولا أعرف لماذا حزن عندما قلت له حتى أنا لا أراهم. -تفرقنا، كلنا تفرقنا - قال هذه الملاحظة بمعانٍ مبهمة أحسستها في كلماته وهزة رأسه. بعدها انشرح وجهه فجأة. عندها سألني: - أتعرف ماذا يعني هنا حرف U؟ - وقد أشار إلى صدره. قلت له، كيف لا أعرف: Ungar، يعني مجري. قال لا: - Unschuldig - أي "بريء"، ثم ضحك ضحكة قصيرة وهز رأسه طويلاً بوجه متأمل، كمن سعد جداً لهذه الفكرة، لا أعرف لماذا. نفس الشيء رأيته على وجوه الآخرين الذين سمعت منهم هذه النكتة في المعسكر، أول الأمر في أحيان كثيرة: وكأنهم استمدوا منها بعض الدفء، بعض

القوة - على الأقل هذا ما دلت عليه نفس الضحكة القصيرة التي تبعها نفس انبساط الوجوه، وهذه البسمة المتأملة ومع ذلك بتعبير من البهجة التي استقبل بها النكتة كل من ألقاها ومن استمع إليها، بطريقة أشبه بمن يستمع إلى موسيقى قريبة إلى القلب أو يقرأ قصة مؤثرة.

رأيت فيهم نفس المسعى، نفس النية الطيبة: كانوا يحاولون هم أيضاً أن يظهروا بمظهر المعتقل الجيد. لا داعي للقول بأن ذلك كان يصب في مصلحتنا، وهذا ما فرضته الشروط، وهذا ما أملته الحياة هنا. مثلاً لو كان النظام في الاصطفاف مثالياً وكان العدد مكتملاً، لاستغرق التعداد وقتاً أقل - على الأقل في البداية. لو كنا مجتهدين في العمل لتجنبنا الضرب مثلاً - على الأقل في أغلب الأحوال.

مع ذلك، في البداية على الأقل، لم يكن مثل هذه الفائدة ولا الربح الذي نجنيه ما وجّه تفكيرنا جميعاً، أعلن هذا بكل شرف. وكي أوضح ذلك، هناك مثلاً أول ظهيرة قضيناها في العمل: كانت المهمة تفريغ حمولة عربة قطار من الحصى الرمادي اللون. عندما قال باندي تسيتروم بعدما نزعنا - طبعاً بموافقة الحارس الذي كان متقدماً في السن وبدت عليه الطيبة - قمصاننا عنا (وقد رأيت لأول مرة بشرته السمراء المصفرة وتحتها عضلاته المتحركة الضخمة وبقعة غامقة لشامة تحت صدره الأيسر): - لنُري هؤلاء علام يقدر البودابشتيون!-، فإنه كان يعني ذلك وبمنتهى الجد. ورغم أنني أمسكت بشوكة حديدية لأول مرة في حياتي، فإنني أستطيع القول إن الحارس الذي مظهره كرئيس عمال وربما كان يعمل في معمل، بدا عليه الرضا، الأمر الذي حفزنا على العمل أكثر، بالطبع. وبالعكس عندما بدأت أشعر بحرقة في كفي

ورأيت أن نهايات أصابعي احمرت؛ صاح علي حارسنا: -Was ist denn los?[٢٥]-، ضحكت وأريته كفي؛ بهذا صاح بي وقد عبّس بشدة ونتش حزام بندقيته بقوة: -Arbeiten! Aber los![٢٦]-: من الطبيعي أن يتوجه اهتمامي والحال هذا إلى اتجاه آخر. بعد ذلك ركزت على شيء واحد: متى يبتعد ببصره عني، حتى اسرق لحظة راحة صغيرة، وكيف أضع القليل في المسحاة أو الشوكة الحديدية أو المجرفة، وأستطيع القول إنني بلغت تقدماً كبيراً في مثل هذه الألاعيب لاحقاً، وحصلت في كل الأحوال على خبرة وتأهيل وممارسة كبيرة أكثر من كل ما تعلمت خلال أي عمل قمت به. - لكن من يجني فائدة ذلك؟ - كما تساءل "الخبير" ذات مرة، هكذا أتذكر. أجزم، هناك خلل ما هنا، عقبة كأداء، خطأ ما، انهيار. كلمة أو إشارة استحسان، شعاع يلتمع هنا أو هناك فحسب، ليس أكثر من شرارة واحدة: قد ينفعني ذلك أكثر. إذ ما هو سبب غيظ بعضنا على بعض كأفراد، إذا ما فكرنا في الأمر ملياً؟ - وأخيراً فإن شعورنا بالزهو يبقى معنا حتى في المعتقل؛ ومن الذي لا يترجى في سره قطرة واحدة من التعاطف؟ وبعد ذلك وجدت أن كلمة عطوفة واحدة يمكن أن تعطي نتائج أفضل.

لكن مثل هذه التجارب لم تهزني فعلاً بعد ذلك. تقدم القطار إلى الأمام، وأحسست بوجود الهدف في البعد لو نظرت قدماً، وفي الفترة الأولى - الذهبية كما أسميناها مع باندي تسيتروم - بدت تسايتس كمكان محتَمَل للعيش في حال اتباع السلوك المناسب وتوفر بعض الحظ - مؤقتاً ولحد الآن إلى أن ينقذنا منها المستقبل، بالطبع. نصفا خبزة في الأسبوع، وثلاثة أثلاث، وربع مرتين فقط. Zulage في كثير من المرات.

بطاطا مسلوقة مرة في الأسبوع (ست حبات، يضعونها في القبعة، لكن عند ذلك لا يعطون Zulage كما هو واضح)؛ بقسماط بالحليب tejbelaska مرة في الأسبوع. يزيل الفجر الصيفي الندي والسماء الصافية وكذلك القهوة الساخنة الانزعاج الأول للنهوض المبكر سريعاً (يجب أن تكون شاطراً في الخلاء في هذا الوقت، لأنه سرعان ما يأتي: "التعداد!" "تقديم الموجود!" - يدوي صدى الصيحات). يبدو أن التعداد الصباحي قصير على الدوام، إذ ينتظرنا العمل، يستعجلنا. تقع إحدى بوابات المعمل الجانبية التي نستعملها نحن المعتقلين إلى اليسار من الطريق الرئيسي عبر طريق رملي على بعد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة سيراً عن معسكرنا. تسمع في البعد الطنين والرنين والأزيز والصفير وثلاث أو أربع سعلات كالنعيب من حناجر حديدية: المعمل يحييك - بطرقه الرئيسية وتقاطعاته والرافعات المتثاقلة والمكائن التي تأكل التراب والكثير من السكك الحديدية والمداخن وأبراج التبريد وشبكات الأنابيب ومتاهات ورش التصليح هو أشبه بمدينة حقيقية. وتثبت الحفر والأخاديد والأطلال والانهيارات الكثيرة والقنوات الممزقة والأسلاك المقطعة زيارة الطائرات. اسمه - كما علمت أثناء أول فرصة للغداء - "Brabag"، الذي هو "مختصر Braun-Kohl-Benzin Aktiengesellschaft الذي كان مسجلاً حتى في البورصة" - هكذا سمعت، وحتى إنهم أروني هذا الرجل ضخم الجثة الذي استند إلى مرفقيه وهو يلهث بصفير وقد أخرج للتو قطعة خبز مقضومة من جيبه، وهو الذي صدرت عنه هذه المعلومات، والذي تحدثوا عنه فيما بعد في المعسكر بمصاحبة شيء من المرح أنه كان في يوم من الأيام مالكاً لعدد من أسهمه كما قالوا - رغم

أنني لم أسمع ذلك منه. كذلك أسمع - تذكرني الرائحة فوراً بالموقع النفطي في تْشَبَل - أنهم يجتهدون هنا في تحضير البنزين، لكن ليس من النفط بل يحصلون عليه من مادة الفحم الحجري البني بمساعدة وسيلة ماكرة. يقسم البعض على المجرفة، آخرون على المعزقة، في حين يرى غيرهم فوائد مد الأسلاك، والبعض يحبون تشغيل مكائن خلط الملاط، ولا أحد يعرف السبب الخفي وهذا الولع المريب الذي يربط بعضهم بمهنة المجاري، بحيث يغوصون في وحل أصفر أو زيت أسود حتى الخصر - لكن لا أحد يشك في وجود مثل هذا السبب، إذ غالباً ما كان هؤلاء من اللتوانيين وأصحابهم الفنلنديين. لكلمة "antreten"[٣٧] لحن متدرج من الأعلى ممدود بحلاوة حزينة، طويل ومغرٍ مرة واحدة في اليوم: في المساء، عندما تعني لحظة العودة إلى البيت. عند المغاسل يحتل باندي تسيتروم موطئ قدمٍ بصيحة: - افرنقعوا عني أيها المسلمان! - ولا يبقى جزء من جسمي مخفياً عن عينيه المراقبتين. يقول - اغسل أيرك أيضاً، هناك يسكن القمل!- وأنا أمتثل له ضاحكاً. الآن تبدأ هذه الساعة المعينة: ساعة إنجاز الأمور، المرح أو الشكوى، والزيارات، والمناقشات، وعقد الصفقات وتبادل الأخبار إلى أن يقطعها ضجيج القدور الأليف، الإشارة التي تحرك الجميع وتستحثهم على سرعة الفعل. بعدها: -Appel![٣٨]-، الذي يستغرق زمناً يقرر طوله الحظ فحسب. لكن بعد ساعة، ساعتين، أو على الأكثر ثلاث ساعات (تكون خلالها الأضواء الكاشفة قد أنيرت) يشتد الزحام في الممر الضيق للخيمة الذي تحده من جانبين صفوف من الصناديق بثلاثة طوابق، أو حسب تسميتها هنا "بوكس"، محل نومنا. بعدها تغرق الخيمة لزمن في شبه عتمة وهمس - هذه ساعة الحكايات،

عن الماضي والمستقبل والحرية. علمت أن الجميع كانوا سعداء في بلدهم، وأثرياء غالباً. حتى إنني تمكنت من معرفة ما الذي اعتادوا تناوله في العشاء، لا بل حتى الموضوع المعين الذي يتحدث الرجال عنه بخصوصية. في ذلك الوقت ذكروا أيضاً أن البعض يفترض وجود مادة خافضة للنشاط، "بروم" يخلط في الحساء لسبب معين - وهو أمر لم أسمع عنه بعد ذلك أبداً -، أو هذا ما ادّعوه بتعبير غامض يعلو وجوههم وهم على اتفاق. وحتى باندي تسيتروم، فهو يذكر لا محالة شارع نَفَلَيتش أو الأنوار أو - في بادئ الأمر أيضاً، ولم تكن لدي تعليقات كثيرة على الموضوع بطبيعة الحال - "نساء بودابشت". وفي وقت آخر انتبهت إلى دمدمة مريبة وغناء خفيض وترتيل متحشرج وضوء شموع خافت صدرت من إحدى زوايا الخيمة، وسمعت أن اليوم مساء الجمعة، وذاك كاهن، حاخام. تسلقت أنا أيضاً فوق أسرة القش لأنظر، ووجدته بالفعل واقفاً وسط جماعة من الناس، الحاخام الذي أعرف. أجرى الصلاة بملابس وقبعة السجن، ولم أنتبه إليه طويلاً، لأنني رغبت في النوم بدلاً من الصلاة. نسكن مع باندي تسيتروم في الطابق العلوي. ونتقاسم صندوقنا مع شابين محبوبين، كذلك من بودابشت. هناك خشب تحت الظهر، وعليه قش، وفوق القش أكياس خيش. يتقاسم شخصان بطانية واحدة، لكن حتى هذا كثير في الصيف.

لا نعاني من سعة في المكان: لو استدرت، يجب على جاري أن يستدير، لو ثنى جاري ساقه، يجب أن أثني ساقي، لكن النوم عميق مع ذلك وينسينا كل شيء - كانت أيام ذهبية، بالفعل.

بدأت أنتبه للتحولات في فترة لاحقة - قبل كل شيء في مجال

حصة الأكل. لم أستطع، لم نستطع حتى تخمين سبب انقضاء عصر أنصاف الخبز بهذه السرعة: حل محله عصر ثلث وربع خبزة بشكل غير قابل للنقض، وحتى Zulage ما عادت حقيقة مؤكدة دوماً بعد الآن. عندها أخذ القطار في التباطؤ، وبعدها توقف تماماً. اجتهدت في النظر إلى المستقبل، فلم يقع بصري سوى على الغد، والغد هو مماثل لليوم، أقصد مثل هذا اليوم بالضبط -في حال حالفنا الحظ بالطبع. تعكر مزاجي، هبطت الهمة، بدأت أنهض بصعوبة أكثر يوماً بعد يوم، وأخلد للنوم وأنا متعب أكثر يوماً بعد يوم. ازداد جوعي قليلاً، تحركت بتثاقل أكثر قليلاً، بدأ كل شيء يثقل، أنا ذاتي أصبحت ثقيلاً على نفسي. لم أعد، وأقولها بجرأة: لم نعد معتقلين جيدين بعد الآن، وسرعان ما بدأنا نرى علامات ذلك على الجنود وكذلك على ممثلينا المسؤولين، من بينهم الـ Lagerältester[٢٩] بسبب كبريائه على الخصوص لا غير.

ولا نزال نراه دوماً وفي كل مكان بملابس سود. هو الذي يصفر صفارة النهوض في الصباح، وهو الذي يتفحص آخر الجميع كل شيء في المساء، ويتحدثون الكثير عن جناح سكنه هناك في الأمام في مكان ما. لسانه ألماني، دمه غجري - حتى نحن نسميه هكذا فيما بيننا: "الغجري"-، وهذا هو السبب الأول الذي خصصوا له بموجبه سكناً في معسكر الاعتقال، أما الثاني فهو الاختلاف عن المثال الاعتيادي في طبيعته، وهو ما حدده باندي تسيتروم في اللحظة الأولى. من جانب آخر يحذر المثلث الأخضر الجميع أنه إلى جانب ذلك قتل وسلب سيدة أكبر منه سناً - وكما يشاع - شديدة الثراء كان يعتاش عليها، كما قالوا: بهذا إذن تمكنت من اللقاء بمجرم قاتل لأول مرة في حياتي شخصياً.

وظيفته القانون، عمله ينصب على تأمين سيادة النظام والعدل في معسكرنا - للوهلة الأولى بدت هذه لي وللجميع فكرة غير ودية. من جانب آخر كان علي أن أفهم أن الظلال قد تختلط فيما بينها في نقطة ما. شخصياً حصلت لي الكثير من المتاعب مع أحد الـ Stubendienst، وهو رجل مستقيم لا غبار عليه. ولهذا السبب صوت له معارفه، هم نفسهم الذين انتخبوا الـ Blockältester دكتور كوفاتش (واللقب هنا لا يدل على طبيب، بل على محامٍ كما سمعت)، وهم جميعاً من مكان واحد كما علمت: من ريف بحيرة البالاتون الجميل، من قضاء شيوفوك. اسم هذا الرجل ذو البقع الحمر هو فودور - الجميع يعرفه. لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً أم لا، لكن الجميع يتفقون عليه: يستعمل الـ Lagerältester عصاه وقبضته بسرور، لأن ذلك يجلب له المتعة، على الأقل بحسب الإشاعات المنتشرة في المعسكر، ويخال العارفون أن لذلك علاقة بما يبعث عند الرجال والأولاد وأحيانا عند النساء من لذة. أما الآخر فالنظام عنده ليس ذريعة بل شرط حقيقي، ومصلحة عامة حتى ولو اضطر - ولا ينسى ذكر هذه أبداً - للتصرف بنفس الطريقة. من جانب آخر فالنظام ليس كاملاً، ويتآكل باستمرار. ولذلك يضطر لضرب المتدافعين في الصف بلسان المغرفة الحديدية الطويل، هكذا نغدو من المغضوب عليهم الذين تطير القصعة من أيديهم ويندلق منها الحساء - إن لم نكن نعرف كيف نمْثل عند المرجل ونضع قصعتنا عند حافته في نقطة محددة - لأنهم بهذا يعرقلونه في عمله، وبالتالي يعيقوننا نحن الذي نليهم في الدور، وهذا أمر مفهوم لأن الباقين يؤخذون بجريرة شخص واحد. والفارق يجب أن نراه في النيات - كما اقتنعت - لكن

مثل هذه الظلال تتداخل في نقطة معينة كما قلت، ووجدت النتيجة هي نفسها كيفما نظرت إلى الأمر.

فيما عداهم هناك العميل الألماني بشريط ذراعه الأصفر وملابسه المخططة المكوية بعناية على الدوام الذي لم أره كثيراً لحسن الحظ، ثم بدأت أشرطة ذراع سوداء بالظهور بيننا كذلك وسط دهشتي، عليها كتابة متواضعة "Vorarbeiter"[٤٠]. كنت موجوداً عندما ظهر في وقت العشاء رجل من بلوكنا وعلى كم قميصه شريط الذراع الجديد لأول مرة، لم يكن متميزاً لحد الآن بنظري وحسبما أذكر لم يعتبره الآخرون شخصاً مهماً أو معروفاً، رغم أنه متين البنية وقوي. لكن توجب الآن أن أرى أنه لم يعد ذلك الرجل المغمور: لم يستطع الأصدقاء والمعارف الوصول إليه إلا بشق الأنفس، وانهالت عليه كلمات الفرح والتهاني والأمنيات بترقيته، وامتدت الكفوف إليه لمصافحته، وقد تقبل بعضها، ورفض أخرى، فتنحى أصحابها على عجل. ولم تجئ أكثر اللحظات احتفالية إلا في الآخر فقط، عندما تقدم يحيط به الاهتمام ونوع من الاحترام والصمت المطبق بجلال رفيع في تقاطع النظرات المبحلقة أو الحسودة دون أن يستعجل لحظة واحدة لطلب صحن ثانٍ أصبح حقاً من حقوقه وفق رتبته الجديدة، وفوق ذلك من قاع القدر الكثيف، الحصة التي غرفها له الـ Stubendienst بتمييز يتناسب مع رتبة من هم بمستواه.

وفي فرصة أخرى شعّت الحروف من ذراع رجل شامخ المشية منفوخ الصدر عرفته فوراً: الضابط من آوشفيتس. وقد عملت ذات يوم تحت إمرته، ويمكنني القول إنه مستعد للخوض في اللهب من أجل رجاله، لكن عنده لا يكلل المتبطلون بالغار ولا المتكلون - كما قالها هو عند بداية

العمل. في اليوم التالي تسللنا مع باندي تسيتروم إلى جماعة ثانية.

اصطدمت بتغيير آخر، رأيته على الغرباء بشكل مثير مثل العاملين في المعمل والحراس وعلى الأكثر على رجل أو اثنين من وجهاء معسكرنا: تنبهت إلى أنهم تغيروا. في البداية لم أتمكن من تفسير هذا الشيء: كانوا جميلين جداً بشكلٍ ما جميعهم، على الأقل في نظري. ولم أفقه إلا لاحقاً من علامة أو أُخرى، أن من تغير هو نحن بالطبع، غير أني لم ألحظ ذلك إلا بصعوبة. لو نظرت مثلاً إلى باندي تسيتروم، فلا أرى فيه أي شيء مريب. لكني حاولت أن أتذكر وأقارنه بمظهره الأول في ذلك الوقت، وقد وقف إلى يميني في الصف، أو عندما برزت للمرة الأولى في العمل عضلاتُه التي كانت كلوحة مجسمة من درس التاريخ الطبيعي تتقافز وتتقعر منحنية بمرونة أو متصلبة بقسوة وتتحرك إلى الأمام والخلف: عندها لم أشأ أن أصدق. فهمت آنئذ أن الزمن قد يخدع أبصارنا أحياناً على ما يبدو. هكذا فات علي أن أنتبه إلى الصيرورة – رغم أن نتيجتها كانت سهلة القياس– التي مرت بها عائلة كاملة مثلاً، هي عائلة كولمان. يعرفهم الجميع في المعسكر. جاءوا من منطقة سكنية صغيرة هي كِشفاردا، القرية التي جاء منها الكثيرون إلى هنا، واستنتجت من حديث هؤلاء معهم أو عنهم أنهم كانوا هناك عائلة ذات شأن. كانوا ثلاثة: الأب الأصلع القصير، وابنان كبير وصغير، لا يشبهان أباهما كثيراً، لكنهما كانا يشبهان بعضهما البعض لدرجة كبيرة – وأعتقد أنهما يشبهان أمهما–، الوجهان متشابهان، نفس العينين ونفس الشعر الأشقر. الثلاثة يسير بعضهم مع بعض على الدوام إن أمكن: ممسكين أيادي بعضهم البعض. في وقت لاحق انتبهت إلى أن الأب بدأ

يتخلف عنهم قليلاً، وبدأ الابنان يساعدانه، ويسحبانه من يديه. بعد مضي بعض الوقت لم أعد أرى الأب معهم. وسرعان ما بدأ الكبير يسحب الصغير من يده على نفس النحو. بعدها اختفى حتى هذا من جنبه، وبدأ الفتى الكبير يجرجر نفسه، وفي هذه الأيام لم أعد أراه في المعسكر. انتبهت لكل ذلك، لكن ليس على النحو الذي لخصته وعرضته - بعد أن فكرت فيه -، بل درجة فدرجة، بالتعود على كل درجة جديدة بعد الأخرى - وهكذا لم أنتبه إلى الأمر في واقع الحال. بالمقابل لربما تغيرت أنا ذاتي، كما يبدو، لأنني التقيت " الفرآء" وهو يخرج ذات يوم من خيمة المطبخ بكل اعتياد - حتى إنني علمت بحصوله على منصبٍ بين الوجهاء مقشري البطاطا المحسودين - لكنه لم يشأ أن يعرفني بأي حال من الأحوال. أكدت له بأنني أنا، من معمل "شَل"، وسألته ألا يوجد شيءٌ ما يؤكل في المطبخ، بعض البقايا، أو ربما فضلات قعر القدور. أجاب بأنه سينظر في الأمر، من جانبه لا يطمع في شيء، لكن هل عندي سيجارة بالصدفة، لأن رئيس العمال في المطبخ "مستعد للموت من أجل السيجارة" كما قال. اعترفت له صراحة: ليس لدي، عندها ذهب. بعد برهة اقتنعت أنه من العبث انتظاره أكثر، وأن الصداقة هي الأخرى شيء قابل للانتهاء، كما يبدو، تضع لها قوانين الحياة حدوداً - وهو أمر طبيعي جداً، لا نقاش فيه. في مرة ثانية أنا كنت الذي لم أعرف مخلوقاً غريباً: كان يتعثر في سيره إلى الخلاء. نزلت قبعة السجناء على أذنيه وامتلأ وجهه بالأغوار والجبال والزوايا وعلى طرف أنفه المصفر اهتزت قطرة عرق. صحت به - زير النساء!- ولم يرفع بصره. جرجر قدميه ماضياً ويده تتمسك بسرواله، فقلت لنفسي: يا للعجب، لم أشأ تصديق

ذلك. وفي مرة أخرى خلت أن الفتى المدخن كان من لمحت، سوى أنه كان أكثر اصفراراً وأشد هزالاً وعيناه كانتا أكبر بقليل ومحمومتين أكثر. في تلك الأيام بدأت تقـارير الـ Blockältester عند الـ Morgenappel والـ Abendappel[٤١] تحتوي جملة أصبحت ثابتة فيما بعد، لم يتغير فيها شيء ســوى الأرقـام: "Zweie im Revier" أو: "Fünfe im Revier"، "Dreizehne im Revier"[٤٢] إلى آخره؛ ثم ظهر مفهوم جديد، هو الغياب، النقصان، التخلف، أي."Abgang" لا، في ظل بعض الظروف لا تكفي النوايا الحسنة مهما كانت. قرأت في البيت أن الإنسان يعتاد على حياة السجن بمرور الزمن وببذل الجهد بالطبع. من المحتمل أن يكون ذلك صحيحاً، دون شك، مثلاً في البلد، في سجن نظامي محترم، مدني، أو شيء من هذا القبيل. لكن في معسكر الاعتقال لا تتوفر وسيلة لذلك حسب خبرتي. وأقولها بجرأة: إن السبب لم يكن أبداً لنقصٍ في السعي، لنقصٍ في حسن النوايا أبداً: ببساطة المشكلة هي أنهم لا يعطون الوقت الكافي لذلك.

أعرف ثلاثة طرق ووسائل للفرار في معسكر للاعتقال سمعت عنها أو رأيتها أو جربتها. وقد استعملت الأولى، الأكثر تواضعاً - فهناك جزء من طبيعتنا هو ملك دائم للإنسان ولا يمكن الاستحواذ عليه - وقد تعلمت ذلك. فمخيلتنا تبقى حرة حتى في ظل العبودية. مثلاً بينما كانت يدي تتعامل مع المعول أو المجرفة وتؤدي القليل والضروري من الحركات بأشد التوفير، أنا ذاتي لم أكن حاضراً. ومع ذلك فالمخيلة ليست من دون حدود، أو على الأقل مع بعض التقييد، حسب خبرتي. إذ كان من الممكن بنفس الجهد أن أكون في أي مكان، في كلكتا، أو

فلوريدا أو حتى في أجمل بقاع العالم. ومع ذلك، لم يكن هذا جدياً بما يكفي، لا أستطيع تصديقه، لهذا غالباً ما وجدت نفسي في البيت فحسب. لكنني لم أكن بذلك أقل جسارة بالتأكيد مما لو فكرت في كلكتا مثلاً؛ غير أنني وجدت في هذا شيئاً ما، بعض التواضع، نوعاً من العمل الذي كافأ الجهد وبالتالي برره. سرعان ما وعيت مثلاً أنني لم أكن أعيش بصورة صحيحة، لم أستغل أيامي في البلد بشكل جيد، هناك الكثير مما سبب الندم، الكثير جيداً. تذكرت، كانت هناك أكلات تخيرت بينها، أقلّبها ثم انحيها عني بكل بساطة لأنني لم أكن أحبها، وفي هذه اللحظة وجدت ذلك نقصاً لا يمكن تفسيره أو إصلاحه. أو هناك هذا الصراع بين أبي وأمي، بسببي. إذا ما عدت إلى البيت، فكرت هكذا، بهذه الكلمات البسيطة المفهومة، حتى دون أن أتوقف خلال ذلك كمن لا يهتم لأي شيء آخر سوى الأسئلة التي تلي هذه الحقيقة الطبيعية أكثر من أي شيء آخر: إذن، إذا ما عدت للبيت، يجب أن أضع حداً لذلك في كل الأحوال يجب أن يسود السلم - هذا ما قررت. ثم هناك أشياء كنت أقلق بسببها، بل حتى أخاف منها - مهما كان ذلك مضحكاً-، مثلاً من بعض المواد التعليمية، ومن مدرسي هذه المواد، من أن يدعوني للاختبار وربما أفشل في تقديم الأجوبة، وأخيراً من أبي عندما أخبره بالنتائج: والآن أستعرض هذه المخاوف، لمجرد المتعة في أن أتخيلها أمامي وأعيشها من جديد وأبتسم بسببها. لكن أحب وسيلة لقضاء الوقت عندي كانت تخيلي يوما كاملاً غير منقوص من أيامي في البيت مراراً وتكراراً، من الصباح حتى المساء إن أمكن، باقياً عند التواضع. كان من الممكن بنفس الجهد تخيل يوم استثنائي مثالي - غير أنني لم أتخيل

دوماً سوى يومٍ سيّئ، بدأ بنهوض مبكر ومدرسة واكتئاب وغداء سيئ، كل فرصة أضعتها أو فوتّها أو حتى لم أنتبه إليها أصلحتها في معسكر الاعتقال بما تيسر من كمال. سمعت هذا الرأي في الماضي، وأنا أؤكده الآن: تحليق مخيلتنا لا تضع له جدران السجن الضيق حداً. ولم يكن هناك سوى عيب واحد في ذلك: لو أخذتني مخيلتي بعيداً جداً بحيث أنستني يدي، سرعان ما ستتوفر الحجج الكفيلة والملائمة للحق في التدخل من قبل الواقع القائم الموجود هنا أصلاً.

في ذلك الوقت حدث أثناء التعداد الصباحي في معسكرنا أن الرقم لم يتطابق مع عددنا - مثلما حصل في البلوك رقم ٦ المحاذي لنا. الجميع يعلم ما سيحصل عند ذلك، فالإيقاظ في معسكر الاعتقال يوقظ الجميع سوى من لن يستطيع أحد إيقاظه، وهؤلاء موجودون. لكن هذه كانت الوسيلة الثانية للفرار، إذ من منا لم تراوده الغواية - ولو مرة واحدة، واحدة على الأقل -، من منا يستطيع البقاء صلباً دون أن يتزحزح على الدوام، وبخاصة في الصباح عندما يستفيق مرة أخرى على يومٍ جديد في الخيمة متزايدة بالضجيج وبجنبك الجار الذي يجمع حاجياته استعداداً للانطلاق - أنا لا أستطيع ذلك، ولربما أكون قد جربتها لو لم يمنعني باندي تستروم على الدوام من القيام بذلك. فالقهوة ليست ذات أهمية، وسنكون هناك في التعداد - هكذا يفكر الإنسان، وهكذا فكرت أنا أيضاً. لا نبقى في السرير بالطبع - إذ لا يوجد أحد بهذه الدرجة من السذاجة -، سننهض بشكل طبيعي وبكل احترام مثل الآخرين، وبعد ذلك .. نعرف مكاناً، مخبأ أميناً يمكن المراهنة عليه بمائة مقابل واحد. حددناه، رأيناه، أو عثرنا عليه بالأمس، ربما قبل ذلك،

بالصدفة دون أي تخطيط أو قصد، فنلمح الأمر لأنفسنا بحذر. أما الآن فقد خطر ببالنا. نختبئ مثلاً تحت البوكس السفلي. أو نبحث عن هذه الشقوق أو الثنايا أو الحفر أو الزوايا الأمينة تماماً. وهناك نغطي أنفسنا بالقش وبورق الأشجار والأغطية. خلال كل ذلك لا تبرحنا الفكرة أننا سنكون هناك عند التعداد - كان هناك وقت عندما تفهمت هذا بصورة كاملة. ويعتقد الجسور أن أحداً لن ينتبه لنقص شخص واحد: يسيئون التقدير مثلاً - إذ أننا بشر -؛ غياب واحد فقط - اليوم فقط، هذا الصباح- لا يثير الريبة بالتأكيد، وفي المساء سيكتمل العدد؛ أما الأكثر جسارة فيعتقدون أن لا أحد ولا شيء يستطيع اكتشافهم في مخبئهم هنا. غير أن عاقدي العزم لا يفكرون في ذلك، لأنهم وببساطة مقتنعون أن النوم لساعة إضافية يستحق المجازفة ودفع أي ثمن - كما اعتقدت أنا أيضاً في بعض الأحيان.

لكنهم لا يتكرمون عليهم بذلك، كل شيء يسير بسرعة في الصباح وسرعان ما يلتئم فريق البحث: Lagerältester في المقدمة، بملابسه السوداء بوجه حليق وشوارب أنيقة وعطر فواح يتبعُهُ مباشرة العميل الألماني وخلفه بضعة Blockältester و Stubendienst، بأيديهم العصي والهراوات والعصي المعقوفة جاهزة، ويدخلون فوراً في البلوك رقم ٦ . في الداخل ضجيج وصخب وفوضى، وبعد بضع دقائق نسمع فرحة النصر الصاخبة لمن عثر على الأثر، يختلط بها ما يشبه أنين الفأر، ثم يذوي رويداً رويداً، وسرعان ما يخرج الصيادون. يرمون ما يخرجون من الخيمة عند نهاية الصف، يسجونه هناك - يبدو من هنا ككومة من الأشياء الميتة وخليط من الخرق المزقة: أجتهد ألاّ أنظر صوبه. غير أن تفصيلاً

صغيراً ولمحة بانت وعلامة ما أجبرت عيني لأن أتعرف على من كان يوماً الرجل عاثر الحظ. بعد ذلك: -Arbeitskommandos antreten!- ، ولكن متأكدين: سيكون الجنود أكثر صرامة معنا اليوم.

وأخيراً يمكن التفكير بالطريقة الثالثة للفرار، بالمعنى الحرفي والحقيقي للكلمة، كما يبدو، وكان هناك مثال على ذلك ذات مرة، واحدة فقط، في معسكرنا. ذاع الخبر أن الهاربين كانوا ثلاثة، وثلاثتهم من اللتوانيين، كانوا معتقلين أغنياء في الخبرة وفي معرفة اللغة الألمانية وأحوال المنطقة وكذلك كانوا مصممين على أمرهم - وأستطيع القول إنه بعد التقدير الأولي لهم والتشفي الخفي بحراسنا وحتى الإعجاب هنا وهناك الذي تطور إلى تقليب احتمالات احتذاء المثل والنشوة التي لحقت ذلك، أصبحنا غاضبين جداً عليهم جميعنا، ففي الليل، في حدود الثانية أو الثالثة صباحاً كنا لا نزال واقفين، بعبارة أدق: كنا نترنح في التعداد، لمجرد العقاب. حاولت في المساء التالي ألاّ أنظر إلى اليمين مرة أُخرى عند عودتنا. فقد وُضِعتْ ثلاثة كراسٍ هناك، أُجلِسَ عليها ثلاثة بشر، أشباه بشر. رأيت أنه من الأسهل ألاّ أستعلم عن المشهد بدقة وما هي اللوحة المعلقة على رقبتهم وما كتب عليها بحروف قوطية (ومع ذلك وصل إلى مسامعي محتواها، لأنهم تحدثوا عنه في المعسكر لزمن طويل: "Hurrah! Ich bin wieder da!" أي "يا للسعادة! أنا هنا من جديد!")؛ علاوة على ذلك رأيت شيئاً يشبه مساند تنظيف السجاجيد عندنا في باحات البيوت، تدلت منها ثلاثة حبال معقودة من طرفها- مشانق، كما فهمت وفقاً لذلك. وبالطبع لم يذكر العشاء أحد، بل بدأ

التعداد فوراً، ثم: - Das ganze Lager: Achtung! -[٤٣]، إذ قاد التعداد Lagerältester شخصياً في الأمام، صائحاً بملء صوته. احتشد منفذو العقاب المعتادون، وبعد شيء من الانتظار وصل ممثلو القادة العسكريين، بعدها حصل كل شيء حسب الأصول. لحسن الحظ بعيداً عنا في الأمام قرب المغسل، وحتى إني لم أنظر بهذا الاتجاه. انتبهت بدلاً من ذلك إلى اليسار، حيث أتاني فجأة صوت، دمدمة، تشبه اللحن. رأيت في الصف رأساً مرتجفاً فوق رقبة نحيلة ممتدة - وبالدرجة الأولى لمحت أنفاً وعيوناً هائلة سبحت هذه اللحظة في ضوء خيالي وفي دموع: كان الحاخام. سرعان ما فهمت كلماته، لأن الآخرين أيضاً أخذوا يرددونها معه في صفنا. مثلاً كل الفنلنديين، والكثيرين غيرهم. بل وصلت حتى إلى الجوار وإلى البلوكات الباقية بطريقة ما، انتشرت واستفحلت، لأنني رأيت هناك أيضاً المزيد من الشفاه المدمدمة والأكتاف والرؤوس والرقاب المتحركة إلى الأمام والخلف بحذر بحركة تكاد لا تحس. خلال ذلك كادت الدمدمة أن تكون مسموعة هنا في وسط الصف باستمرار، وكأنها هدير صدر من جوف الأرض: "يسكادال ويسكادال" ترددت مراراً، ومن القليل الذي أعرف فهمت أن هذه هي "القديش"، صلاة اليهود احتراماً لموتاهم. ومن المحتمل أن يكون ذلك مجرد عناد، العناد الختامي، الوحيد، وربما الإلزامي، وقد أقول هو طريقة محددة سلفاً، مفروضة بشكل ما كأنها قياسية وفي نفس الوقت عقيمة للعناد (لأنه لم يتغير شيء هناك في الأمام، فيما عدا الرعشات الأخيرة للمشنوقين، لم يتحرك شيء، لم يهتز شيء لهذه الكلمات)؛ ومع ذلك تعين علي أن أفهم بشكل ما هذا

الشعور الذي غير وجه الحاخام، وارتعشت مناخيره لقوته بهذا الشكل الغريب. وكأن الساعة المنتظرة من زمن بعيد قد حانت، هذه الساعة الظافرة المعينة التي تحدث عن قدومها في معمل الآجر كما أذكر. وبالتأكيد امتلكني هذا الشعور بالنقص لأول مرة، لا بل حتى الشعور بالحسد، لا أعرف لماذا، لأول مرة أسفت قليلاً أنني لا أعرف الصلاة بلغة اليهود - حتى لو بضع جمل.

لكن لا العناد ولا الصلاة ولا أي نوع من الفرار لم يخلصني من شيء واحد هو الجوع. حدث وأن جعت - أو خيل لي أنني جعت على الأقل - في الوطن بطبيعة الحال؛ كنت جائعاً في معمل الآجر، في القطار، في آوشفيتس، وحتى في بوخنفالد - لكني لم أعرف مثل هذا الشعور بالجوع باستمرار لفترة طويلة. تحولت إلى ثقب، إلى فراغ، وكل جهدي انصب على محو وسد وإسكات هذا الفراغ المنعدم القعر، صعب الإرضاء. ما كان عندي لتحقيق ذلك سوى العيون، هي ما خدم عقلي، وجّه كل أفعالي، وإذا لم آكل خشباً أو حديداً أو حصى، فذلك لأن هذه كلها أشياء لا يمكن مضغها أو هضمها. بيد أنني جربت الرمل، وإذا ما رأيت حشيشاً فلن أتردد - لكن الحشيش لم ينبت في المعمل ولا في المعسكر للأسف. طلبوا قطعتي خبز لقاء بصلة صغيرة حادة الطعم، وهذا كان السعر الذي طلبه المحظوظون لقاء قطعة البنجر السكري أو بنجر العلف: وأنا أحببت الأخيرة أكثر، لأنها طرية وغالباً ما تكون أكبر حجماً، رغم أن الخبراء يقولون باحتواء البنجر السكري على قيمة وفائدة غذائية أكثر - لكن كيف أختار وأنا لا أطيق لحمها القوي وطعمها

الحاد. اكتفيت بهذا، كذلك عنى بالنسبة لي رؤية الآخرين وهم يأكلون بعض السلوان على الأقل. جلب حراسنا غداءهم معهم إلى المعمل على الدوام، ولم أزح بصري عنهم. لكني أقول صراحة إنني لم أتمتع كثيراً وهم يأكلون: أكلوا بسرعة، لم يمضغوا الطعام، تلاقفوه بتعجل، رأيت أنهم لا يفقهون ما يفعلون في الحقيقة. في مرة من المرات كنت في الورشة: هنا أخرج الحرفيون الماهرون ما جلبوه من دارهم، وأذكر أنني نظرت طويلاً كيف أخرجت يد صفراء غليظة المفاصل قرون فاصولياء خضراء من قنينة طويلة الواحدة تلو الأخرى. هذه اليد الغليظة المفاصل - والتي حفظت كل مفصل فيها وعرفت كل حركة تقوم بها - ما فتأت تقطع الطريق بين الزجاجة والفم، ذهاباً وإياباً. بعد بعض الوقت حجب صاحبها عني المنظر بظهره، لأنه أدار ظهره لي، وفهمت بالطبع: لأسباب إنسانية، في حين وددت لو أقول له تفضل، واصل، لأن المنظر ذاته يعني الكثير بالنسبة لي، أفضل من لا شيء. بالأمس اشتريت قشور بطاطا من فنلندي تملأ قصعةً. عرضه علي أثناء استراحة الظهر بشكل هادئ، ولحسن الحظ لم يكن باندي تسيتروم معي في ذلك اليوم حتى يمانع ويمنعني ويعترض. وضع أمامه ورقاً بالياً، أخرج منه ملحاً صخرياً ببطء وبحركات كسولة، وأمسك بطرف أصابعه قليلاً منه ووضعه في فمه كمن يتذوقه، قبل أن يقول باحتقار: - للبيع!-. سعره عموماً قطعتا خبز أو المارغرين: أما هو فقد طلب نصف الحساء المسائي. حاولت مساومته، ذكرته بكل شيء، حتى بالمساواة. عندها هز رأسه بطريقة الفنلنديين المعروفة - دي بِست نِشت كا يِد، دبْست آ شَيغَتس ، أنت لست يهودي. سألته: - لماذا أنا

هنا إذن؟- من أين لي أن أعرف هذا؟ - هز كتفيه. قلت له: - يهودي قذر! - أجابني: - هذا لن يجعلني أبيعك بسعر أقل-. في الختام ابتعته منه بالسعر الذي طلب، ولا أدري من أين نبت لي فجأة في المساء لحظة غرفوا لي الحساء، لا أدري كذلك كيف أحس مقدماً أن العشاء سيكون بقسماط بالحليب tejbelaska.

أؤكد أننا لا نستطيع تفهم مصطلحات معينة إلا في معسكرٍ للاعتقال. مثلاً كان "الفتى الرحال" أو "الولد الفقير" أحد أبطال القصص الغبية في طفولتي الذي ينخرط في خدمة الملك طمعاً في يد الأميرة، وبكل سرور إذ أن زمن الخدمة المطلوبة لا يتعدى الأيام السبعة. غير أن الملك يقول له "لكن الأيام السبعة عندي تساوي سبع سنين!"؛ حسناً، يمكنني قول نفس الشيء عن معسكر الاعتقال. لم أفكر قط في أن أتحول إلى مثل هذا الرجل العجوز الذابل بهذه السرعة. في الحياة العادية يحتاج المرء إلى خمسين أو ستين سنة على الأقل: هنا ثلاثة أشهر كانت كافية لأن يخذلني بدني. أعلنها صراحة، ليس هناك شيء أكثر إحراجاً وأشد تعطيلاً للمزاج من مراقبة وحساب عدد من يفنى منا يوماً بعد يوم. في البيت كنت في انسجام مع جسمي عموماً وإن كنت لم أعر اهتماماً كثيراً لذلك، أحببت هذه الماكنة إن صح القول. أذكر مرة عصر يوم صيفي عندما قرأت رواية مثيرة في الغرفة منعشة البرودة بينما مررت راحة يدي ساهياً على بشرة فخذي متين العضلات، الملساء ذهبية الزغب التي لوحتها الشمس. والآن تهدلت وتجعدت نفس هذه البشرة، غدت صفراء وأيبست تغطيها مختلف القروح والبقع البنية

والشقوق والندب والحراشف التي كانت تسبب حكة مزعجة شديدة مثل تلك بين أصابعي. - انه الجرب - قرر ذلك باندي تسيتروم بإيماءة العارف عندما أريته إياها. تعجبت للسرعة والانطلاقة العنيدة التي بها ضعفت وهلكت وذابت واختفت عن عظامي المواد التي غطتها واللحم والمرونة. في كل يوم مر تعجبت لشيء جديد، لعطل جديد، لقباحة جديدة تطرأ على هذا الشيء المتمادي في غرابته وغربته عني، الذي كان ذات يوم صديقي: جسدي. لم أعد أطيق النظر إليه، شعور مليء بالتناقض، بنوع من عدم التقزز؛ ولهذا السبب وبمرور الزمن لم أعد أخلع ثيابي عني كي أغتسل، علاوة على ضعف رغبتي في مثل هذه المتاعب الزائدة عن الحاجة، ثم البرد، وبالطبع بسبب الحذاء.

هذه الأداة سببت لي الكثير من الانزعاج. على العموم لم أكن راضياً عن قطع الملابس التي زودوني بها في معسكر الاعتقال، فقد تميزت بالقليل من الفائدة وفيها الكثير من العيوب، بل أصبحت مصدر الكثير من المتاعب - وعلى العموم، يمكنني القول بثقة: كانت غير صالحة. مثلاً في وقت المطر الناعم الرمادي - الذي يجعله تغير الفصول حالة دائمة - أصبحت ملابس الكتان ما يشبه الصفيح الساخن، يجاهد جسمنا المرتجف تجنب ملامسة رطوبتها دون طائل، بالطبع. لا ينفع معطف السجناء في شيء، رغم أنهم وزعوه علينا بكل أمانة - هذا العائق الجديد، الطبقة الجديدة المبتلة، أما الورق الخشن لأكياس الأسمنت فهو ليس الحل الأمثل كما أعتقد، وقد سرقه باندي تسيتروم مثل الكثيرين غيره خفية ليضعه تحت ملابسه رغم كل المجازفة، إذ ينكشف

مثل هذا الجرم بسهولة: ضربة عصا على القفا وأخرى على الصدر تكفي حتى تفضح الخشخشة الصادرة الخطيئة. بالمقابل لو فقد الورق خشخشته، أتساءل: ما فائدة هذا الثقل الجديد المنقوع بالماء كالعجين الذي حتى الخلاص منه لا يتم إلا في السر؟

بيد أن الحذاء الخشبي كان أكثر ما أزعجنا. ابتدأت القصة بالطين في الواقع. لم تكن المفاهيم التي أحمل دقيقةً لدرجة مرضية حتى في هذا الخصوص. رأيت في السابق طيناً بالطبع، وحتى دعست فيه - لكني لم أتخيل قط أنه سيصبح مشكلتنا الأولية، ويغدو مسرح حياتنا. لم أكن وعبثاً أكون متهيئاً للغوص فيه حتى بطة الساق ثم أسحب قدمي بكل ما أوتيت من قوة لأقتلعها بحركة واحدة وبطقة مسموعة لا لشيء سوى لمجرد غرزها فيه مجدداً على بعد لا يتجاوز شبرين أو ثلاثة إلى الأمام. وتبين الآن أن كعب الحذاء الخشبي ينكسر بعد مرور فترة من الزمن. عندئذ نسير على حذاء مكور يتكون من جزء غليظ في الأمام ينحف فجأة في نقطة معينة في الخلف كالجندول، بعدها نتأرجح على الكعب المكور إلى أمام. إلى جانب ذلك تتفتق فتحة بين جلد الحذاء وما كان كعباً في السابق تزداد سعتها يوماً بعد يوم، حتى يتدفق عبرها الطين البارد وما يجرفه معه من صغير الحصى ومن أشياء مدببة دون عائق مع كل خطوة نخطوها. وخلال كل ذلك يكون جلد الحذاء قد فرك كعبنا منذ زمن طويل وحفر جروحاً لا تعد في الجزء الطري من قدمنا تحته. وحسب صفات الجروح فهي تنز، والسوائل التي تنزها لزجة: بهذا الشكل لن نستطيع التخلص من حذائنا بعد زمن، يصبح غير قابل

للنزع، يلتصق بقدمنا وكأنه جزء جديد من أجزاء الجسم كما لو كان قد نما عليها. كان علي في النهار، وبه خلدت إلى النوم كذلك كي لا أضيع الوقت عندما أضطر إلى النزول قفزاً من محل نومي مرتين أو ثلاثاً أو حتى أربع مرات في الليل. دعك من الليل، إذ نصل إلى الهدف بعد بعض الجهد والتعثر والتزلج فوق الطين خارج الخيمة تحت الأنوار الكاشفة. لكن ماذا نصنع في النهار عندما يأتينا الإسهال أثناء العمل – وهذا ما لا يمكن تجنبه؟ يستجمع المرء عندها كل شجاعته ويخلع قبعته ويطلب الإذن من الحارس: -Gehorsam zum Abort –[٤٤]، بشرط أن يكون هناك مرحاض قريب بالطبع، وفوق ذلك أن يكونَ مرحاضاً مخصصاً للمعتقلين. لكن لنفترض وجوده، ولنقترض أن الحارس كان رؤوفاً وأعطانا الإذن مرة، ومرة ثانية: أتساءل، من هذا الجسور الذي يصمم على المضي حتى النهاية فيختبر صبر الحارس للمرة الثالثة؟ عند ذلك لا يبقى سوى الصراع الأبكم وصك الأسنان على بعضها البعض، وارتعاش الخاصرة إلى أن ينتهي الاختبار، فإما أن يتغلب جسدنا في النزال أو إرادتنا.

وهناك الوسيلة الأخيرة، الضرب دوماً وفي كل مكان – بصورة متوقعة أو مفاجئة، نتيجة تحدٍ أو سعي لتفاديه. وقد حصلت على نصيبي منه أيضاً، وبالطبع ليس أكثر ولا أقل من الحصة الاعتيادية، بل حسب المعدل كأي واحد منا، بالقدر الذي ليس له علاقة بحظ الشخص المعين ولا هو شيء خاص، بل بقدر ما هو معتاد حسب ظروف معسكرنا. لم يقم به شخص متخصص ومخول وملزم بذلك من الأس أس، بل جندي

من هيئة مبهمة اسمها "Todt"[٤٥]، شيء من قبيل رقابة العمل كما سمعت، يلبس ملابس صفراء. هو من كان هناك ومن انتبه بمصاحبة صوت مرعد ووثبات طويلة إلى إفلاتي كيس الأسمنت. بالتأكيد تستقبل فرق العمل تحميل الأسمنت بفرح غامر لا يحدث إلا في النادر من المناسبات، الفرح الذي نخشى التصريح به حتى فيما بيننا. يطأطئ الإنسان رأسه، يضع شخص ما كيساً على قفاه، يسير به حتى شاحنة، يتلقفه منه هناك آخر، بعدها يسير متمهلاً في التفاف طويل تحدد مسافته الظروف الآنية، وإن كان محظوظاً سيجد الآخرين في طابور قبله، إذن يغتنم بعض الوقت قبل الكيس التالي. وزن الكيس عشرة أو خمسة عشر كيلو تقريباً - حمله في الظروف الطبيعية لعب أطفال: لكني تعثرت هنا، وسقط مني. وبالدرجة الأساسية انشق ورق الكيس وانهمر من الشق محتواه، المادة، القيمة، الاسمنت الغالي وتكوم على الأرض. وصل إلى جانبي على الفور، أحسست بقبضته على وجهي، وبعد أن طرحني أرضاً وضع جزمته على ضلوعي ورقبتي وذراعي بينما ضغط بيده على رأسي ليمرغ وجهي بالأسمنت على الأرض: لأجمعه، أقشطه بأظافري، ألعقه - صرخ بي بدون شعور. بعدها جرني وأوقفني على قدمي: سيريني - Ich werde dir zeigen, Arschloch, Scheißkerl, verfluchte Judehund -[٤٦]، أنني لن أسقط كيساً بعد الآن، توعدني. من هذه اللحظة كان هو من وضع الأكياس على ظهري، لم يهتم بأحد سواي، أنا كنت همه الأول والأخير، تابعتني نظراته حتى الشاحنة وفي عودتي أيضاً، وأومأ لي بالمجيء إليه حتى لو كان هناك أمامي في الصف من

ينتظر دوره. في النهاية تواطأ بعضنا مع بعض، عرف بعضنا بعضاً، وبدأت أرى على وجهه ما يشبه شيئاً من الرضا والتشجيع إن لم أقل الفخر، وكان علي أن أعترف من وجهة نظر معينة وعن حق: بالفعل صبرت، جئت وذهبت، حملت ونقلت الأكياس دون أن أسقط واحداً منها، وإن ترنحت واحدودبت، وهذا ما أثبت صحة كلامه في آخر المطاف، كان علي أن أقر. من جانب آخر شعرت في ختام ذلك اليوم أن شيئاً تعطل في داخلي إلى دون رجعة، منذ ذلك اليوم بدأت أشعر في كل صباح أن هذا هو الصباح الأخير الذي استفيق فيه، بعد كل خطوة أرى بأنني لن أقوى على خطو الخطوة التالية، بعد كل حركة أقوم بها أرى بأنني لن أستطع القيام بالتالية؛ ومع ذلك، قمت بها في كل مرة بعد ذلك.

٧

هناك حالات ومواقف لا تتفاقم بأي حال من الأحوال، على ما يبدو. يمكنني القول إنني وجدت بمرور الزمن الطمأنينة والسكينة والارتخاء بعد كل هذا السعي والمحاولات العقيمة والجهد. فقدت بعض الأشياء التي علقت عليها في الماضي أهمية فائقة لا تدرك بالعقل كل أهميتها في نظري. مثلاً إذا ما تعبت عند وقوفي في التعداد، أجلس عندها على الأرض، أتمددُ وأبقى جالساً بكل بساطة دون أدنى اهتمام لطين أو بركة ماء، إلى أن ينهضني الجيران بالقوة. لم يزعجني بعد ذلك البرد والريح والمطر: لم يصلني كل ذلك، لم أشعر به. حتى الجوع زال عني: رفعت إلى فمي بعد ذلك أيضاً كل ما وجدت أمامي من أشياء تؤكل، لكن بشرود ذهن، بحركة أوتوماتيكية، بحكم العادة. والعمل؟ - لم أعد أهتم حتى للمظاهر. إن لم يعجبهم ذلك، سيضربونني على الأكثر، وحتى إنهم لن يسببوا لي ضرراً كبيراً، وسأريح عندها بعض الوقت: انبطح على الأرض مع الضربة الأولى باستعجال، ولا أشعر بشي بعد ذلك، لأنني أكون قد نمت عندها.

شيء واحد غدا أقوى عندي: سرعة الهياج. لو تحرش أحدهم بشيء يتعلق براحتي، حتى لو مس بشرتي، لو أخطأت الخطو في المسير (وهو

أمر يحدث غالباً) وداس من كان خلفي على كعبي، لا أتوانى عن قتله على الفور دون أي تردد في تلك اللحظة ودون أي تردد بعدها أيضاً - إن استطعت فعل ذلك بالطبع، وإذا ما رفعت يدي ولم أنس خلال ذلك ما أنا عازم على صنعه. تشاجرت حتى مع باندي تسيتروم: "استسلمت"، أصبحت عبئاً على فرقة العمل، أنقل الجرب للجميع - صرخ في وجهي. لكن بدا أنني أُضايقه بشكل ما، أزعجه بالدرجة الأولى. لاحظت ذلك للمرة الأولى عندما أخذني في إحدى الأماسي إلى المغاسل. عبثاً رفست ودفعت واعترضت، فقد نزع عني ثيابي بالقوة، عبثاً حاولت تسديد لكمات إلى جسده ووجهه بقبضتي، فقد فرك جلدي المرتعش بماءٍ بارد. قلت له مائة مرة: وصايته علي باتت تزعجني، ليتركني لحالي، ليذهب إلى الجحيم. هل أريد أن أفطس هنا؟ ألا أريد العودة إلى البيت؟ - سألني، ولا أعرف أي جواب قرأ في وجهي، لكني قرأت في وجهه الذعر فجأة، شيئاً من الفزع، شيئاً من قبيل النظرة إلى المشاغبين الذين لا يمكن إصلاحهم، أو المدانين أو لنقل حملة الأمراض المعدية: عندها خطر ببالي ما قاله عن المسلمان. على أية حال، بدأ منذ تلك اللحظة يتجنبني كما رأيت، وأنا تخلصت من هذا الحمل أخيراً.

لكني لم أتخلص من ألم ركبتي بأي شكل من الأشكال، بقي معي واستفحل. بعد بضعة أيام ألقيت نظرة على الموضع، ومع أن بدني عودني على كثير من الأمور لحد الآن، فقد رأيت من المستحسن تغطيته فوراً كي لا تراه عيني مع ذلك. كنت أعرف بوجود مستوصف في المعسكر بالطبع، لكن موعد العيادة كان في وقت العشاء، ووجدت أن هذا أهم من الشفاء، ثم كان هناك بعض الخبرة والتجربة التي لا تشجع

على تعزيز الثقة بالمستوصف. فوق ذلك كان بعيداً عنا: على بعد خيمتين إلى الأمام، وأنا لا أقدم على قطع مثل هذه المسافة الطويلة إذا لم يضطرني لذلك شيء، إلى جانب أسباب أخرى، مثلاً أوجعتني ركبتي بشدة. في النهاية أخذني باندي تسيتروم وأحد زملاء الخيمة هناك بعد أن أجلسوني على أيديهم المتشابكة، وبعد أن وضعت على المنضدة حذروني مقدماً: سأشعر بألم على ما يبدو، لأن العملية الجراحية الفورية لا يمكن تجنبها، وهم يضطرون إلى إجرائها بدون مخدر لعدم وجوده. وما استطعت مراقبته خلالها، أنهم صنعوا جرحين متقاطعين إلى الأعلى من ركبتي بمبضع، وعصروا من خلالهما هذا البحر من المادة التي تجمعت في فخذي، ثم ربطوا كل شيء بالضماد. بعد ذلك ذكّرتهم بالعشاء فوراً، وطمأنوني: سأحصل على العناية اللازمة، وسرعان ما جرت ذلك حقيقة. صنع الحساء اليوم من بنجر العلف وجذر الكرنب الذي أحبه كثيراً، وتبين أنهم أعطوا المستوصف من كثيف الحساء، وهو ما رضيت عنه. قضيت الليلة هنا في خيمة المستوصف، في الطابق العلوي لبوكس، بمفردي، ولم يزعجني شيء سوى أنني لا أستطيع استعمال رجلي في الساعة المعتادة للإسهال، وأنني طلبت المساعدة دون فائدة - في البدء بالهمس، بعد ذلك بصوت عال وأخيراً بالصراخ. في الصباح التالي رموا العديد من الأجساد وبينها جسدي على ظهر شاحنة مكشوفة مبلل، ونقلونا إلى مكان قريب اسمه "Gleina"، على ما سمعت، حيث يقع مستشفى معسكرنا الفعلي. في الطريق حرسنا جندي جلس في الخلف على مقعد تطوى أرجله وعلى ركبته سلاحه الذي تلألأ تحت المطر، وبانت عليه قلة الحماس كما هو واضح، وقد أشاح بوجهه عنا أحياناً، ربما بسبب الرائحة

المنبعثة، أو ربما بسبب المراقبة التي لا بد منها، تقزز ولوى قسمات وجهه - عن حق بالمناسبة. أكثر ما أزعجني أنه بدا وكأنه قد صاغ لنفسه رأياً، توصل إلى حقيقة عامة، فطاب لي لو تمكنت من تبرير حالي: لست أنا المسؤول عن ذلك وحدي، وهذه ليست طبيعتي في الأصل - لكن يصعب إثبات مثل هذه الأشياء بالطبع كما رأيت. عندما وصلنا اضطررت لمواجهة شعاع ماء تدفق فجأة من خرطوم مياه أشبه بذلك المستعمل في سقي الحدائق، لاحقني أينما ذهبت وغسل عني كل شيء: بقايا ملابسي القذرة المتهرئة والقذارة وحتى ربطة الجرح الورقية. بعد ذلك أخذوني إلى قاعة، أعطوني هناك قميصاً وسريراً من ألواح بطابقين اخترت بينهما الأسفل فاستلقيت عليه فوق كيس من التبن بدا واضحاً أنه كان لسلفٍ لي فقد كبس ورص حد الصلابة رائحته مريبة طرزته هنا وهناك بقع مريبة تجمدت تصدر حفيفاً وطقطقة مريبة عند مسها، لكنه كيس تبن لي وحدي حيث تركوني أقرر بنفسي كيف أقضي الوقت، وقبل كل شيء أنام أخيراً نوماً عميقاً.

يبدو أننا نحمل عاداتنا القديمة إلى الأماكن الجديدة على الدوام: اضطررت في البداية إلى الصراع مع العديد من العادات المتحجرة القديمة. مثلاً وخز الضمير: فقد أيقظني في الفترة الأولى بدقة مبكراً في الفجر. وفي أحيان أُخرى أفقت مرعوباً أنني نمت وقد بدأ التعداد، وهاهم انطلقوا للبحث عني، استوعبت خطأي رويداً رويداً مع تباطؤ دقات قلبي، إلى أن تقبلت الصورة الماثلة أمامي، شهادة الواقع، أنني هنا، أن كل شيء على ما يرام، فهذا رجل يئن، وفي البعد يتبادلون الأحاديث، وذاك رجل آخر سمّر أنفاً مدبباً وعيوناً جامدة وفماً فاغراً نحو السقف

بصمت غريب، إن جرحي فقط هو ما يؤلمني، وإني على أكثر تقدير شديد العطش - على الدوام - بسبب الحمى على ما يبدو. بعبارة أُخرى احتجت إلى بعض الوقت حتى أصدق بشكل كامل: لا يوجد تعداد، لا يتحتم علي رؤية الجنود، وبالدرجة الأولى الذهاب إلى العمل - ولا يوجد ظرف طارئ أو مرض يفسد علي كل هذه المحاسن. أخذوني أنا أيضاً بين فترة وأخرى إلى غرفة صغيرة في الطابق، حيث عمل طبيبان، أحدهما شاب والآخر أكبر سناً: وأنا كنت مريض الأخير إن صح التعبير. كان رجلاً نحيفاً، أسمر، ودوداً، بذلته وحذاؤه نظيفان، وعلى ذراعه شريط ووجهه يمكن تمييز تفاصيله، ذكرني بثعلب لطيف عجوز. سألني، من أين أتيت، وحدثني هو أيضاً، أنه جاء من أرْدَي[٤٧]. أثناء ذلك انتزع عني اللفافة المتهرئة التي تصلبت عند ركبتي وتحول لونها إلى أزرق مخضر، ثم استند على فخذي بيديه وضغط منه ما تجمع بمرور الزمن، وأخيرا دس ما بين جلدي ولحمي قطع شاش مبرومة أمسكها بما يشبه الملقط، لكي - حسبما شرح لي- "نحافظ على المجرى"، من أجل "عملية التنظيف"، حتى لا يلتئم الجرح قبل الوقت. من جانبي استمعت إلى ذلك بكل سرور، إذ لا يوجد لدي شغل في الخارج، ولست في عجالة من ناحيتي إذا ما فكرت في الأمر ملياً، بالطبع. ملاحظته الثانية لم توافق مزاجي. فقد اعتبر الثقب الموجود عند ركبتي صغيراً. رأى ضرورة صنع شق أخر من الجانب كذلك، وربطه بالأول بقطع ثالث. سألني، هل أقدم على ذلك؟، وتعجبت منه كثيراً، لأنه نظر إلي وكأنه ينتظر جوابي، ربما موافقتي إن لم أقل تفويضي له. قلت له: - كيفما يعجبك-، على الفور قرر من الأفضل عدم التأخير. باشر بالعمل فوراً في عين المكان، لكني

اضطررت إلى التألم بصوت عالٍ بعض الشيء، ورأيت أن ذلك أزعجه. قالها عدة مرات: - لا أستطيع العمل هكذا-، وأنا حاولت التبرير: - لست مسؤولاً عن ذلك-. توقف أخيراً بعد بضعة سنتمترات من التقدم، دون أن ينجز خطته بالكامل. مع ذلك بدا راضياً لحدٍ ما، لأنه علق: "أحسن من لا شيء"، بذلك سيستطيع من الآن فصاعداً استخراج القيح من مكانين على الأقل. مر الوقت في المستشفى: إن لم أنم، انشغلت بالجوع أو بالعطش أو بالألم حول الجرح أو بالمحادثة أو بالمعالجة- لكن من دون شغل، لا بل أقولها بكل شجاعة: كنت مرتاحاً بوعيي لهذه الفكرة التي دغدغتني بلطف، ولهذا الامتياز الذي أعطاني سعادة لا تنضب على الدوام. وسألت القادمين الجدد: ما هي الأخبار في المعسكر، وهل يعرفون بالصدفة من البلوك رقم خمسة باندي تسيتروم، متوسط القامة مكسور الأنف ناقص الأسنان من الأمام، لكن أحداً منهم لم يتذكره. رأيت جروحاً تشبه جروحي على الأرجح في غرفة التضميد، بنفس الطريقة على الفخذ أو الساق، رغم أنه كانت هناك جروح أعلى، عند الخصر أو في الخلف أو على الذراع، بل حتى على الرقبة أو الظهر، وحسب اسمها العلمي فهي "Phlegmone"[٤٨] كما سمعت مراراً، وأصلها وانتشارها بهذا الشكل في الظروف الاعتيادية لمعسكر الاعتقال ليس غريباً أو عجيباً بأي حال من الأحوال حسبما علمت من الأطباء. بعد ذلك بفترة بدأ أولئك الذين قطع من أقدامهم إصبعٌ أو اثنان، لا بل أحياناً كل الأصابع بالوصول، وحكوا لنا: بدأ الشتاء في المعسكر هناك في الخارج، وتجمدت أرجلهم في الحذاء الخشبي. في مرة من المرات فتح الباب في غرفة التضميد رجل رفيع المرتبة على ما يبدو، ببذلة سجن

خيطها خياط. سمعت منه هذه الكلمة الخافتة لكن المفهومة بوضوح: -Bonjour!-، ومنها ومن حرف "F" في مثلث أحمر خمنت فوراً أنه فرنسي، ومن شريط ذراعه الذي كتب عليه "O. Arzt"[٤٩] أنه رئيس الأطباء في مستشفانا، كما هو واضح. نظرت إليه طويلاً، لأنني لم أر إنساناً جميلاً مثله منذ زمن: لم يكن طويلاً جداً، امتلأ ما تحت بذلته باللحم المتوزع بكمية كافية في كل مكان على العظام، وجهه ممتلئ كذلك، كل ملامحه تمثله هو بدون لبس، ذقنه مدورة، في وسطها حفرة، بشرته الدكناء قليلاً زيتية الظلال لمعت بخفوت تحت الضوء الساقط عليها، كما اعتادت البشرة اللمعان عموماً في السابق، في الماضي، في البيت، بين الناس. قدرت أن عمره ليس كبيراً، ربما في الثلاثين تقريباً. رأيت أن الأطباء نشطوا جداً، اجتهدوا في تدليله، شرحوا له كل شيء، لكن ليس حسب عادات المعسكر كما انتبهت، بل حسب العادة القديمة في البلد؛ والتي ألهبت الذكريات على الفور، بهذه الأناقة والفرح والسعي الاجتماعي، التي تماثل حالنا عندما تسنح أمامنا فرصة إثبات أننا نفهم ونتحدث واحدة من لغات المثقفين بشكل ممتاز، هذه المرة الفرنسية. من جانب آخر رأيت أن رئيس الأطباء لم يهتم لكل هذا: بل عاين كل شيء، أجاب بكلمة أو كلمتين أو هز رأسه، لكن ببطء وسكينة بوجه مغتم هادئ، وفي عينيه البنية بلون الجوز شعور بشيء من الذبول يكاد يقرب السوداوية غير قابل للتغيير. تعجبت لأنني لم أفهم ما الذي يسبب ذلك لدى هذا الإنسان حسن الحال، الراقي الثري، الذي وصل إلى هذه المرتبة الرفيعة. حاولت تفرس وجهه وتفحص ملامحه، ولم تتضح الصورة أمامي إلا ببطء: بالتأكيد، فهو مرغم على الوجود هنا بالطبع. بدأت أفهم

وتملكني على مهل انطباع، مع شيء من التعجب والذهول، إن العبودية هو ما يؤذيه. كدت أن أقول له ألاّ يكتئب، فهذا أمر ضئيل - لكنني خفت أن يكون ذلك مغامرة مني، ثم خطر ببالي أنني لا أعرف الفرنسية.

سمعت مسبقاً أن سكناً شتوياً بني من الحجر قد اكتمل ليحل محل الخيام في تسايتس، وكان بين الأبنية واحد للمستشفى. وأنا نمت خلال كل الانتقال تقريباً. رمونا مجدداً على الشاحنة - حسبما رأيت من الظلمة أن ذلك كان في المساء، وحسبما شعرت من البرد أن ذلك كان في منتصف الشتاء - بعد ذلك وصلنا إلى مدخلٍ باردٍ مضاء بشكل جيد لمكان واسع بإفراط، ميزت فيه حوضاً خشبياً دلت رائحته على مواد التعقيم فيه: عبثاً شكوت ورجوت واعترضت، كان علي أن انغمر فيه حتى قمة رأسي؛ إلى جانب برودته، كان ما رأيت من انغمار المرضى الباقين في نفس السائل قبلي، بجروحهم وبكل شيء عليهم، جعلني أرتعد. ثم بدأ الوقت بالمضي هنا أيضاً بنفس الطريقة كما في المكان السابق في جوهر الأمر، مع القليل من الاختلاف. في المشفى الجديد كانت الأسرة بثلاثة طوابق مثلاً. أخذوني إلى الطبيب لمرات أقل، لذلك تنظف جرحي هنا، في ذات المكان، كيفما اتفق. علاوة على ذلك بدأ جنبي الأيسر يؤلمني، وسرعان ما ظهر الكيس المحمر المعروف الذي سبب الحرقة. بعد بضعة أيام وبعد أن انتظرت زواله أو حصول شي ما دون فائدة، اضطررت لإبلاغ المرض، وبعد مضي بضعة أيام جديدة وصلت إلى الأطباء في أول البناية: بهذا أصبح عندي إلى جانب ركبتي اليمنى، شق آخر عند جنبي الأيسر، بطول الكف تقريباً. وتبينت بعض الأشياء المزعجة بسبب موقع سريري، فقد قابلني شباك مرتفع بدون زجاج مفتوح

دوماً على السماء الزرقاء، تكونت على قضبانه الحديدية مخاريط أزلية من جليد تجمد من البخار الذي نبثه مع أنفاسنا على ما يبدو، وتراكم عليها الصقيع دوما. أما أنا فقد لبست ما هو مخصص للمرضى: قميص قصير دون أزرار، وقبعة غريبة أعطوها نظراً لحلول الشتاء، مدورة على الأذن، مدببة عند الجبين تشبه تلك التي يلبسها أبطال التزلج على الجليد أو الممثلون الذين يؤدون دور الشيطان على المسرح، جد مفيدة خضراء اللون. هكذا بردت كثيراً، خصوصاً بعدما فقدت واحدة من بطانيتين سدت إحداهما ثقوب الأخرى: فقد قال لي الممرض - لأعطيه إحداهن إعارة لفترة وجيزة يرجعها بعد ذلك. بعدها عبثاً حاولت التمسك بها بكلتا يدي والتشبث بطرفها، فقد تبين أنه هو كان الأقوى، وإلى جانب الخسارة أزعجتني تلك الفكرة، أنهم حسبما عرفت يأخذون الغطاء بالدرجة الأولى ممن يحسبون دنو نهايتهم، أو أقولها بكل صراحة يتوقعون حلولها سريعاً. في وقت آخر حذرني صوت غدا معروفاً لدي، من الأسرة السفلية كذلك لكن في مكان ما في الخلف: ظهر ممرض من جديد، مع مريض بين ذراعيه، يبحث عن سرير يدسه فيه جوار مريضٍ آخر. لكنه وبسبب خطورة حالته وحسب تعليمات الطبيب يجب أن يوضع في سرير بمفرده، صرخ بصوت رهيب وأرعد: - أحتج!-، وأضاف: - من حقي! اسألوا الطبيب!- ثم مرة أخرى: - أحتج!-، كلما نقل الممرضون حملهم إلى سريرٍ آخر - سريري مثلاً، وحصلت على فتى بدا لي أنه في مثل عمري كشريك في سريري. خيل لي أنني رأيت هذا الوجه المصفر والعيون الملتهبة في مكان ما- لكن الجميع هنا مصفرو الوجه ملتهبو العيون. أول شيء سأله إن كانت عندي جرعة ماء، قلت له أنني أود

شرب الماء كذلك؛ جاء سؤاله الثاني بعد الأول فوراً: وسجائر؟ .. ولم يكن محظوظاً في هذا أيضاً بالطبع. عرض علي خبزاً مقابلها، لكني أفهمته، لا يعتمد الأمر على ذلك ورجوته ألاّ يتعب نفسه، ليس لدي سجائر: عندها صمت لبعض الوقت. أشك أن الحمى غمرته، لأن حرارة شعت على الدوام من جسمه المرتعش، وقد استفدت منها بارتياح. لكني لم أرتح لكثرة تقلبه وتحركه في الليل، لأنه لم يكن يحسب لجروحي حساباً على العموم. قلت له: يا هذا، اهدأ قليلاً، وأخيراً استمع لي. في الصباح فقط عرفت لماذا: لأنني عبثاً حاولت إيقاظه لشرب القهوة. لذلك مددت قصعته في عجل للممرض، لأنه صرخ بي عندما كنت أتهيأ لتبليغه بالحالة بأن أمد له القصعة. ثم تسلمت حصته من الخبز كذلك، مثله مثل الحساء في الأمسية، وهكذا دواليك، إلى أن بدأ في أحد الأيام يتصرف بشكل غريب: عندها اضطررت لإبلاغ الممرض، ما عاد بالإمكان الاحتفاظ به أكثر في فراشي. قلقت قليلاً، لأن التأخير بدا ظاهراً، وكذلك بدا سببه سهل التخمين عند توفر بعض الخبرة، وهو شيء تحسبت له - لكنه ذهب مع الباقين، ولم يقل أحد شيئاً، الحمد لله، بعدها تركوني دون رفيق.

تعرفت هنا على الديدان بشكل حقيقي. لم استطع مسك البرغوث أبداً: كان حذقاً أكثر مني لأمر مفهوم بسهولة، فهو يتغذى أفضل مني. أما القمل فقد أمسكت به بيسر، لكن لم يكن لذلك من معنى. لو غضبت عليه جداً امرر اظفر إبهامي على قماش القميص المنشد على ظهري فأتلذذ بالتدمير وأنتقم بسلسلة من الطقطقات - لكن بعد دقيقة واحدة يمكنني تكرار نفس العملية وبنفس النتيجة. وجدته في كل مكان، اندس في كل الثنايا، وتحولت قبعتي الخضراء إلى رمادية لفرط ما دب

فيها، وكادت تسير وحدها بسببه. ومع ذلك فوجئت وذهلت ثم فزعت عندما أحسست بدغدغة في جنبي، وعندما رفعت الضمادة لأراه على لحمي، يتغذى على الجرح. حاولت انتزاعه وتحريره واقتلاعه من هناك، على الأقل أدفعه للصبر والانتظار قليلاً - لم أشعر في حياتي قط بصراع أكثر يأساً ومقاومة أكثر عناداً بل أكثر وقاحة من ذاك. بعد بعض الوقت أقلعت عن المحاولة، وراقبت هذا النهم والنشاط والجشع والشهية، وهذه السعادة الواضحة: وكأن الأمر ليس بغريب علي. عند ذلك عرفت: قد أتفهمه لدرجة ما، لو أخذت كل شيء في الحسبان. وأخيراً خفت علي الوطأة، وزال عني تقززي تقريباً. ومن المفهوم أنني لم أفرح، وبقيت المرارة فيّ، لكن ذلك كان بشكل عمومي، دون غيظ بسبب النظام الشامل للطبيعة إن صح القول؛ على أية حال أعدت وضع الضمادة، ولم أبدأ صراعاً مع القمل بعد ذلك، لم أزعجه أبداً بعد ذلك.

يبدو أنه ليس للخبرة الكثيرة أو الهدوء التام ولا للفطنة هذا القدر من القوة إذا لم نعطِ الحظ فرصة أخيرة - بشرط أن نجد وسيلة إلى ذلك، بالطبع. بهذا، عندما أعادوني إلى بوخنفالد مع الذين فقدوا الأمل في قدرتهم على العمل هنا، بصفته المعسكر المرسِل، شاركت الآخرين فرحهم بكل ما أملك من قدرات، إذ خطرت ببالي على الفور الأيام الحسنة التي قضيتها هناك، على الخصوص الحساء الصباحي. لكن يتعين علي الوصول هناك أولاً، وهذا ما لم أفكر به، علاوة على ذلك سيكون السفر بالقطار وفق الظروف المعروفة؛ في كل الأحوال توجد أشياء لم أتمكن من فهمها حتى الآن، ولم أصدقها إلا بصعوبة. مثلاً هناك تعبير يسمع كثيراً، هو "جثمانه"، وحسب معرفتي يتعلق ذلك حصراً بشخص مرحوم فحسب. أما أنا فكنت أعيش حتى لو كانت علامة ذلك تحريك أجفاني،

لم أشك في ذلك، استمر في داخلي شيء يشتعل، شعلة الحياة كما اعتادوا القول - أي أن هذا هو جسدي، كنت أعرف عنه كل شيء بدقة، سوى أنني لم أكن في داخله بشكل من الأشكال. رأيت دون أي صعوبات هذا الشيء وإلى جانبه وفوقه أشياء أخرى، ممددة على القش البارد المنقوع بكل أنواع السوائل المريبة المفروش على أرضية العربة المسرعة المهتزة، سقطت الضمادة منذ زمن، تهرأت وتقطعت، التصق قميصي وسروالي الذي وضعوه علي قبل السفر بجروحي المكشوفة - لكن ذلك لم يمسني بشيء، لم أهتم له، ما عاد يؤثر فيّ، لا بل أقول بأنني لم أشعر بهذه الخفة والسكينة وحتى الراحة التي أشعر بها الآن منذ زمن طويل. بعد كل هذا الزمن تخلصت من مرارة السخط: لم تزعجني الأجساد الملتصقة بجسدي بعد ذلك، بل ابتهجت بشكل ما لأنها موجودة هنا، معي، لأنها قريبة لجسدي وتشبهه، الآن فقط تملكني تجاهها إحساس غير معتاد أو سوي، غليظ، أكاد أقول أخرق - قد يكون المحبة. شعرت بنفس الشيء من الطرف الآخر. لم يطمئنوني بالأمل كما فعلوا في البداية. وربما كان هذا - إلى جانب المصاعب الأخرى - هو ما جعل الأنين واصطكاك الأسنان والشكاوى الخافتة وما عدا ذلك من أشكال التعابير الأخرى من كلمات المواساة والتسكين هادئةً إلى هذا الحد، وكذلك عائلية الطابع في نفس الوقت. ولم يبخل أحد بالأفعال، كل حسب إمكانيته، مثلاً أوصلت الأيادي المجدّة الرحيمة علبة النحاس الأصفر من مسافة لا أعرفها عندما أعلنت: أريد أن أتبول. وأخيراً عندما شعرت بالبرك المتجمدة فوق الأرض المعبدة تحت ظهري بدلاً من ألواح أرضية القطار - لا أعرف كيف ومتى وعلى يد من -، رأيت أن وصولنا إلى بوخنفالد بسلام لم يعد يعني الكثير بالنسبة لي، وأنني

نسيت منذ زمن بعيد أن هذا هو المكان الذي رغبت في الوصول إليه. حتى لم أعرف أين أنا: في محطة القطار أم في مكان ما في الداخل، ولم أتعرف على المحيط، ولم أميز الطريق والبنايات والتماثيل التي لا أزال أتذكرها جيداً.

على أية حال، بدا وكأنني استلقيت لفترة طويلة هكذا، بقيت في سكينة وألفة، دون فضول، متصبراً هنا. لم أشعر ببرد أو ألم، حتى أن من نقل لي أن شيئاً مدبباً هو ما بين المطر والثلج يرش وجهي كان عقلي بدلاً من بشرتي. تفكرت في شيء أو آخر ونظرت إلى ما وقع عليه بصري صدفة دون أية حركة زائدة بلا تعب: مثلاً السماء الواطئة الكئيبة وغير الشفافة فوق وجهي، بعبارة أدق الغيوم الشتوية الثقيلة البليدة الحركة التي حجبتها عني. خلال ذلك انجلت فجأة شقوق هنا وهناك، وتكون ثقب مضيء للحظة عابرة، وكأنه إحساس مبهم لشيء عميق اخترقه شعاع من فوق نحوي، نظرة سريعة متفحصة من عين لا أفقه لونها لكنها فاتحة دون شك - تشبه بعض الشيء عين ذلك الطبيب الذي وقفت أمامه في أوشفيتس. بقربي شيء عديم الشكل: حذاء خشبي، في الجانب الثاني قبعة شيطان تشبه قبعتي وملاحق مدببة - أنف وذقن - بينها حفرة مجوفة: وقع وجهُ في مدى نظري. علاوة عن ذلك المزيد من الرؤوس والأشياء والأجساد - فهمت أن هذه هي بقايا الحمولة، بكلمة أدق فضلاتها، التي نحَّوْها جانباً على ما يبدو، مؤقتاً. بعد مرور بعض الوقت، لا أدري إن كان ساعة أو يوماً أو سنةً، سمعت أخيراً صوت كلام وضجة عمل وإجراءات. ارتفع الرأس الذي كان جانبي فجأة، ورأيت إلى الأسفل أذرعاً بملابس المعتقلين تمسك الكتف وتتهيأ لرميه في عربة أو رافعة فوق كومة الأجسام المتكدسة هناك. في نفس الوقت وصلت سمعي

نتف من كلمة مقطعة لم أتمكن من تبينها إلا بصعوبة، وعرفت في هذا الهمس المتحشرج ذلك الصوت المعدني الرنان بصعوبة أكبر: - أحـ .. تـ ...ج..- كما تمتم. توقف في الهواء قبل أن يستمر في تأرجحه تعبيراً عن المفاجأة كما أحسست، وسمعت فوراً صوتاً آخر، هو صوت الذي أمسك به من كتفه. كان صوتاً مريحاً لطيفاً رجولي اللون، مرتبكاً قليلاً، ودلت لكنة ألمانية المعسكرات على شيء من الذهول وبعض المفاجأة أكثر من الاستياء: - Was? Du willst noch leben? - [50] تساءل، وبالفعل وجدت أنا الآخر ذلك شيئاً غريباً، لا يمكن تعليله في تلك اللحظة، بلا مبرر. افترضت: بقدر تعلق الأمر بي، سأكون أكثر تعقلاً. لكنهم انحنوا فوقي، واضطرت عيني إلى أن تُطرَف لأن يداً تلمست شيئاً قرب عيني قبل أن يرموني وسط حمولة عربة يدوية صغيرة ويهموا بدفعها في اتجاه ما، لم أكن فضولياً لمعرفة إلى أين. لم يشغلني سوى شيء واحد، فكرة واحدة، سؤال واحد خطر ببالي في تلك الدقيقة. ربما لم أعرف، لم أكن بعيد النظر لهذه الدرجة بحيث أستفسر عن العادات والنظام والإجراءات في بوخنفالد، بعبارة واحدة: كيف يفعلون ذلك هنا: بالغاز مثل آوشفيتس أم ربما بمساعدة السم كما سمعت أيضاً، أم بالرصاص، أم بطريقة من بين ألف طريقة أخرى لا تستوعبها معرفتي - لم أحزر. على أية حال آمل أن ذلك لن يسبب الألم، غريب، لكن هذه كانت أمنية حقيقية وسيطرت عليّ كأي أمنية حقيقية أخرى نرجو تحققها في المستقبل. عندها عرفت أن الغرور شعور يرافق الإنسان حتى آخر رمق فيما يبدو، لأنه مهما أزعجتني هذه الحيرة فإني لم أوجه سؤالا واحداً ولا طلباً واحداً أو حتى كلمة واحدة، ولا حتى نظرة واحدة إلى الذي أو الذين دفعوا العربة اليدوية في الخلف. وصل الطريق إلى

منعطف مرتفع، فبرز في الأسفل فجأة مشهد بزاوية واسعة. هناك كان المنظر الكثيف الذي ملأ هذا السفح الفسيح، البيوت الحجرية المتشابهة والثكنات الخضر والتي لم تصبغ بعد، ربما لأنها جديدة، الأكثر كآبة التي شكلت مجموعة منفصلة، ونسيج أسوار الأسلاك الشائكة الداخلية المتشابك لكن المنتظم الذي فصل بين المناطق المختلفة، على البعد الغابات الشاسعة العارية التي ضاعت في الضباب. لا أعرف ما الذي ينتظره عند بناية المسلمان، العراة الكثيرون وبعض الوجهاء الذين ساروا جيئة وإياباً حول الحلاقين إذا ما رأيت جيداً، الذين عرفتهم فجأة من مقاعدهم القصيرة وحركاتهم النشطة - إذن ينتظرون الحمام وما يتبعه. امتلأت الشوارع الحجرية البعيدة في داخل المعسكر بعلامات الحركة والنشاط الخفيف والهرج والمرج - سكان أصليون ومرضى ووجهاء ومسؤولو مخازن والأعضاء المحظوظون لفرق العمل الداخلية جاءوا وذهبوا وقاموا بواجباتهم اليومية. هنا وهناك اختلطت أدخنة مريبة بالأبخرة الأكثر لطافة، وصلتني قعقعة أليفة من مكان ما ناعمة مثل قرع الجرس في أحلامنا، وعثرت نظراتي المتفحصة على مسيرة، وأكتاف عليها عوارض وعلى العوارض تعلقت القدور التي تصاعد منها البخار وأثقلت الأكتاف، وجاءتني في الهواء الحريف من البعد رائحة عرفت فيها حساء البنجر، دون شك. للأسف، فقد أطلق هذا المنظر وهذه الرائحة من صدري المتخدر الشعور الذي استطاعت موجاته المتصاعدة أن تدس عيني اليابسة دمعة دافئة وسط الرطوبة الباردة التي بللت وجهي. رغم كل التروي والعقل والفطنة والتفكير الرشيد، لم أخطئ فهم صوت في داخلي، صوت خافت كالرغبة المسروقة وكأنه يخجل من منافاته للعقل ومع ذلك يزداد عناده: أحب أن أعيش أكثر في معسكر الاعتقال الجميل هذا.

٨

علي أن أعترف: لن يكون في مقدوري أبداً تفسير بعض الأشياء لو نظرت من زاوية توقعاتي والقاعدة والعقل - على العموم من زاوية الحياة ونظام الأشياء، على قدر معرفتي بها. عندما أفرغوا العربة وطرحونا على الأرض في مكان ما، لم أفهم بأي حال من الأحوال ما علاقتي أنا مثلاً بماكينة قص الشعر والموس. هذا المكان المليء عن آخره الذي يشبه الحمام حد التماثل حيث وضعوني على المشبك الخشبي لأرضيته المزلقة بين العديد من الأقدام والكعوب والسيقان المتقرحة وعظام السيقان، كان يوافق توقعاتي تقريباً. وخطر ببالي للمرة الأخيرة بصورة خاطفة: انظروا، عادات آوشفيتس نافذة المفعول إذن كما يبدو، هنا أيضاً. وازدادت دهشتي عندما هطل ماء ساخن غزير الشعاع فوقنا من الصمامات بعد انتظار قصير وأصوات صفير وبقبقة. لكني لم أبتهج طويلاً لأنني تمنيت أن أتمتع بالدفء أكثر، لكني كنت عاجزاً عندما رفعتني إلى الأعلى قوة لا تقاوَم من بين غابة الأرجل المحتشدة بينما التف حولي شيء أشبه بملاءة وفوقها بطانية. أذكر بعدها كتفاً تدليت فوقه ورأسي إلى الخلف وقدمي إلى الأمام؛ أذكر باباً ودرجات حادة لسلمٍ

ضيق، باباً ثانية ثم مكاناً، قاعة، غرفة حيث اصطدمت عيني المتشككة بأثاث ثكنات يكاد يكون مترفاً علاوة على السعة والإنارة الجيدة، وأخيراً بسرير - حقيقي وطبيعي لشخص واحد كما يبدو، وكيس ملئ جيداً بالقش وبطانيتين رماديتين كذلك - حيث وضعت بعد أن أُنزلت من على هذا الكتف. رأيت رجلين - رجلين اعتياديين جميلين بوجه وشعر عليهما سراويل بيضاء وقمصان وقباقيب خشبية؛ نظرت إليهما وتمتعت بالمنظر، وهما نظرا إلي. عندها فقط انتبهت إلى شفاههما، وأن لغة صادحة ترن في أذني. شعرت كأنهما كانا يودان معرفة شيء مني، لكن ما كان بمقدوري سوى هز رأسي: لا أفهم. بهذا سمعت من أحدهما كلاماً ألمانياً لكن بلحن شديد الغرابة: -Hast Du Durchmarsch?- ، أي هل عندي إسهال، ولاحظت مع بعض التعجب أن صوتي أجاب على هذا: -Nein- ، من جديد بغرور والآن أيضاً وباستمرار كما أعتقد. عندها - وبعد بعض التشاور والمجيء والذهاب -دسوا في يدي شيئين. أحدهما قصعة فيها قهوة دافئة والثاني قطعة خبز، بحجم السدس تقريباً حسب تقديري. أخذتها وأكلتها دون أي ثمن أو مبادلة. بعد ذلك شغل جوفي، الذي بدأ يعطي إشارات الحياة ويضطرب ويتمرد، شغل اهتمامي وبالخصوص قوتي لبعض الوقت، حتى لا تتعرض كلمتي التي أعطيتها قبل قليل إلى النقض بشكل من الأشكال. بعدها أفقت على تواجد أحد الرجلين هنا، هذه المرة كانت على قدمه جزمة وعليه قبعة زرقاء غامقة جميلة ومعطف سجناء بمثلث أحمر.

وجدت نفسي على الكتف مرة أخرى، عبر السلم هذه المرة إلى

الخارج، في الهواء. سرعان ما دخلنا ثكنة خشبية واسعة، أشبه بمؤسسة صحية، Revier، إن لم أكن مخطئاً. وجدت هنا كل شيء موافقاً لتوقعاتي وأليفاً تقريباً - لكني الآن لم أعد أفهم تماماً المعاملة السابقة والقهوة والخبز. حيتني الصناديق الخشبية المألوفة بطوابقها الثلاثة خلال سيرنا على طوال القاعة. امتلأ كل صندوق منها حتى حافته، وقاست العين المدربة التي أجرؤ القول إني أمتلكها، قاست بشكل سريع من خلال أكوام أشباه الوجوه المتداخلة حد تعذر تمييزها، ومن خلال الجرب والجلد المتقرح والعظام والملابس القذرة والأطراف المدببة أن الصندوق الواحد يضم خمسة أشخاص على الأقل، وحتى ستة. إلى جانب ذلك بحثت دون طائل فوق الألواح الخشبية عن القش الذي بطن الأسرة حتى في تسايتس - لكن ذلك كان تفصيلاً غير ذي أهمية خلال هذا الوقت القصير الذي أتوقعه أمامي هنا. عندها حصلت المفاجأة الجديدة - بينما توقفنا وصل أذني حديث أو ما يشبه المباحثات بين الرجل الذي حملني وشخص آخر كما هو واضح. أولاً لم أعرف إن كنت أرى بشكل جيد أم لا - لكن من غير المحتمل أن أكون قد أخطأت، فالقاعة هنا مضاءة بشكل جيد بمصابيح قوية. رأيت كذلك صفين من الصناديق المعتادة، غير أن الألواح غطتها ملاحف حمراء ووردية وزرقاء وخضراء وبنفسجية، فوقها طبقة من نفس الملاحف، وبين الطبقتين برزت رؤوس أطفال حليقة احتشدت وتراصصت، كبار وصغار لكنهم قاربوا عمري على العموم. لم أكد أوضع على الأرض وأسند كي لا أسقط وتنزع عني البطانية وتوضع على ركبتي وخاصرتي ضمادات على عجل، ثم ألبَسُ قميصاً إلا ورأيت نفسي قد انزلقت بين لحافين إلى جانب ولد هيأ لي مكاناً على عجل، في الطابق الوسيط.

بعـدها تركـوني هنا، دون أي تفـسـيـر كـالعـادة، واضطررت إلى الاعـتـمـاد على قـدرتي العـقليـة مـجـدداً. على أية حـال لا مناص من الاعتـراف بأنني هنا، هذا الواقع لم أستـطع إنكاره، تجدد مع كل لحظة، تكرر مرة أخرى، ومن جديد، واستمر. فـيما بعد، توضح أمامي البعض الضـروري من المعلومات. هذا المكان هو بداية الشكنة وليس آخـرها على أغلب احـتـمـال، كـمـا يدلل على ذلك البـاب المقـابل الذي يفـضي إلى الخـارج، كذلك دل اتسـاع المكان المضـاء أمامي بـأنه مسـرح عـمل ونشـاط الوجهاء والكتبة والأطباء، في أهم مـوقع منه توجد منضدة غطاها حرام أبيض. يسكن الآن في الصناديق الخشبية في الخلف المصـابون بالزحار أو بالتـيـفـوس، وإن لم يكونوا قـد أصيـبـوا بهـا لحد الآن، فـسـوف يصـابون لاحقاً بكل تأكيـد. العارض الأول – وتشـير إليه الرائحة التي لا تزول – هو الـ Durchfall، بعـبـارة أخـرى Durchmarsch، كـمـا اسـتـفـسـر مـني العـاملون في الحـمـام على الفـور، على هذا الأسـاس لربما يـكونون قـد وضعوني مع هؤلاء إن كنت قد أجبتـهم بالحقيقة. الجراية اليومية والمطبخ وجدتها مشـابهة لتلك في تسايتس: قـهوة في الصباح، الحساء يأتي قبل الظهر مبكراً، حصة الخبز ثلث أو ربع، وإذا كانت ربعاً فـسيكون معها شيء إضافي. بسبب الإنارة الدائمة التي لم يؤثر عليها ضياء الشباك أو عتـمته لم أتمكن من تمـيز أقسام اليـوم إلا بصعوبة، وذلك بمساعدة بعض العلامات المعينة التي لا تقبل التأويل: فالصباح عرفته من القهوة ووقت النوم من وداع الطبيب. تعرفت عليه في المسـاء الأول. انتبـهت إلى رجل توقف قـبالة صندوقنا بـالذات. لم يكن طويلاً جداً كما يبـدو، لأن رأسه

كان بنفس مستوى رأسي. لم يكن وجهه ممتلئاً فحسب، بل سميناً، وليناً في بعض المواقع بسبب الفائض، لشدة عجبي كانت شواربه تامة الشيب مبرومة في حلقة، لأني لم أر في معسكر اعتقال مثلها حتى الآن، كذلك كانت له لحية رمادية بلون الحمام اعتنى بها كثيراً، صغيرة جميلة مدببة عند ذقنه. لبس قبعة كبيرة مهيبة وسروالاً من قماش، لكنه لبس معها معطف معتقلين - مع أنه كان من قماش جيد - عليه شريط ذراع وإشارة حمراء فيها حرف "F". تفحصني كما هي العادة مع القادمين الجدد، وقال لي شيئاً. قلت له الجملة الفرنسية الوحيدة التي أعرف: - جو نو كومبران با، مسيو.[٥١] - فقال - وي وي-[٥٢] بصوت عريض ودي مبحوح قليلاً - بون بون مون فيس-[٥٣]، بهذا وضع مكعباً واحداً من السكر قبالة أنفي على الغطاء، حقيقي، يماثل تماماً ذلك الذي تراه عيون ذاكرتي في البيت. ثم طاف على كل الأولاد في كل الطوابق الثلاثة من الصندوقين، وأعطى كلاً منهم مكعب سكر من جيبه. وضعه قبالة بعضهم بسرعة، في حين أطال الوقوف عند آخرين، لا بل استطاع بعضهم الحديث معه، وهو بشكل خاص ربت على وجوه هؤلاء ودغدغ رقابهم وتحدث معهم وزقزق كما يغرد الإنسان مع طيور الكناري المفضلة لديه في الساعة المخصصة لذلك. وانتبهت كذلك أن المفضلين لديه وعلى الخصوص أولئك الذين فهموا لغته حصلوا على قطعة سكر إضافية. عندها اقتنعت بصحة ما علمونا في البلد عن فائدة المعرفة العامة، على الخصوص معرفة اللغات الأجنبية بالتأكيد.

أخذت كل هذا بعين الاعتبار، فهمته، لكن مع شعور، أو أكاد أقول

مع شرط، هو أنني انتظرت نقلة نوعية، هي مفتاح السر أو الصحوة أو سمه ما شئت، رغم أني لم أعرف ما هو عن كثب. مثلاً أشار الطبيب بإصبعه إلي عندما بقي له وقت يخصصه لي بعد انشغاله مع الآخرين في اليوم التالي. أخذوني من مكاني ووضعوني أمامه على المنضدة. أسمعني بضعة أصوات ودية، فحصني، دق بأصابعه علي، وضع أذنه الباردة وشواربه المدببة على صدري وظهري، وأشار: لأتنهد وأسعل. ثم جعلني أرقد وجعل مساعده يرفع عني الضمادات وجاء دور جروحي. فحصها أول الأمر عن بعد، ثم تلمس ما حولها بحذر فسال شيء من مادتها الداخلية على الفور. عندها همهم بشيء وهز رأسه مغموماً وكأن شيئاً عكر مزاجه وثبط من عزيمته. أعاد الضماد عليها بسرعة كما لو كان يود إخفاءها عن عينه، وشعرت: لم تنل جروحي إعجابه بالتأكيد، لم يكن مرتاحاً لها، أو راضياً عنها.

لكني اضطررت إلى رؤية فشلي في الامتحان في نواحٍ أخرى. مثلاً لم استطع التفاهم مع الأولاد المضطجعين بقربي بأي شكل من الأشكال. أما هم فقد تحادث بعضهم مع بعض من فوق رأسي أو أمامه وفوقي، وكأني عقبة وقفت في طريقهم. قبل ذلك تساءلوا من أين أنا. قلت - Ungar - وسمعت كيف ذاع الخبر بالطول وبالعرض: فنجرسكي، فنجريا، مجارسكي، ماجيار، أونغروا وغيرها الكثير من الأشكال. قال أحدهم "خَنير!"- يريد أن يقول "kenyér"[٥٤]، ولم تترك الطريقة التي ضحك فيها وتبعه الجميع وراءه في جوقة أدنى شك لدي في معرفته لبني جلدتي جيداً. تضايقت، وددت لو أفهمتهم بحصول خطأ: فالمجريون

لا يعتبرونني واحداً منهم، وأنا أشاطر الأولاد رأيهم عنهم على العموم، وأجد الأمر غريباً بل غير منصف إن نظروا إلي هنا بريبة بسببهم - غير أنني تذكرت العقبة الغبية وهي أنني لن أستطيع قول ذلك لهم إلا بالمجرية، أو ربما بالألمانية على الأكثر، لكن هذه أسوأ من تلك.

ثم كان هناك خطأ آخر، خطيئة أخرى لم أتمكن من التغطية عليها مهما بذلت من جهد - على مدى أيام. سرعان ما تعلمت أن العادة هنا تتلخص في طلب حضور فتى لا يكبرنا سناً إلا بقليل، هو أشبه بمساعد ممرض، وذلك عند مجيء حاجة. عندها يظهر وبيده إناء مسطح مزود بمقبض ندسه تحت الغطاء. بعدها نطلبه من جديد: - Bitte! Fertig! Bitte!-[٥٥]، إلى أن يأتي ليأخذه. لا أحد يناقش مشروعية الاضطرار إلى ذلك مرة أو مرتين يومياً حتى هو. غير أني طلبته ثلاث مرات، وفي بعض الأيام أربع مرات، ورأيت أنه بدأ يتضايق من ذلك - وهو أمر مفهوم لا أنكره بالتأكيد. في إحدى المرات أخذ الإناء إلى الطبيب وشرح له شيئاً وذكر له حججه وأراه محتواه، وهذا أطرق يفكر فوق أدلة الجريمة للحظة؛ ومع ذلك أشار برأسه وحركة يديه إشارة رفض واضحة. في المساء تسلمت مكعب السكر: كل شيء على ما يرام إذن - بكل ثقة تدثرت من جديد بأمان الملاحف والأجساد الدافئة الحقيقي الذي يدوم حتى هذا اليوم، لا يزعزعه شيء.

في اليوم التالي، في وقت ما بين القهوة والحساء، دخل رجل من العالم الخارجي، رجل من الوجهاء النادرين كما رأيت فوراً. عليه قبعة كبيرة من الجوخ الأسود، تألفت ملابسه من صدرية بيضاء لا غبار عليها

وتحـتـهـا سروال مـكوي حده كـحـد الموس، ومن حذاء قـصـيـر لامع، وقـد فـزعت قـلـيـلاً ليـس لرؤية وجـهـه الخـشن الرجـولي الزائد عن الحـد وكـأن تقـاطـيـعـه منحـوتة بإزمـيـل فـحـسب، بل كـذلك لـرؤية بشـرته الحـمـراء البنفسـجيـة الصـارخة التي بدت وكـأنـها مـسلوخة، كـما لو سـمحت برؤية اللحم الحي من خلالها. علاوة على ذلك كان طويلاً وممتلئاً، اختلط شيب ضـئـيـل بشـعـره الأسـود في فَـوديه، على ذراعـه شـريط لم أتبين كـلمـاته لوضعـه يده خلف ظهره، وفوق كل ذلك عليـه مثلث أحمر دون إشارة: أي مـيـزه دم ألماني لا عـيب فـيـه. مـن جانب آخر، كـانت هذه المرة الأولى في حيـاتي التي أتـفرس في إنسـان رقم اعـتـقـالـه ليس بعـشـرات الآلاف ولا بالآلاف ولا حـتـى بالمئـات بل بـالعـشـرات فـقـط لا غـيـر. أسـرع طبـيـبنا لتحيته على الفور ومصافحته والتربيت على يده قليلاً، أي بعبارة واحدة لنيل رضـاه كضيف طال انـتـظاره يتشرف به البيت، ولفرط دهشـتي رأيت فـجأة أنـه كـان يحدثه عني دون شك، كل الدلائل تشـيـر إلـى ذلك. حتى إنه أشـار نحـوي بحركة مقوسة من يده، ووصلت مـسـامـعي بشـكل واضح من كلامـه السـريع، بالألمانيـة هذه المرة، الكلمـة التـاليـة: "zu dir"[٥٦]. بعد ذلك واصل حديثـه وأثبت وحاول إقناعه وسط حركـات إيمائية مستمرة من يديه مـثـلـمـا نحـاول تقـديم وعـرض بضـاعـة نود الـتـخلص منهـا بـأسـرع مـا يمكن. وبـدا الأخـيـر، بعـد أن اسـتـمـع إليـه بصـمـت وكـأنه زبون صـعـب أو مشـتـر ثقـيـل، وقـد اقتنع تمامـاً – على الأقل هذا مـا شعـرت به من نظرات عينه الصـغيرة الدكناء الموجهة نحوي القـصيرة النفاذة بشيء من الشـعـور بالامـتـلاك، ومن إيماءته القـصيرة والمصـافحة ومن كل الـتـصـرف – وبالطبع

من الإشراق والرضا اللذين بانا على وجه طبيبنا بعد انصراف الضيف.

لم يمر وقت طويل إلا وانفتحت البوابة مجدداً، فقست بنظرة واحدة ملابس الرجل الذي دخل وعليها المثلث الأحمر وفي وسطه حرف "P" في دلالة على البولونيين كما هو معروف - وشريط ذراعه الأسود وعليه كلمة "Pfleger": أي ممرض وهي وظيفته. بدا شاباً، تجاوز العشرين عاماً بقليل. كل سمات وجهه الطويل لكن الممتلئ والمدور كانت على أكثر ما يكون من الانتظام واللطف، بشرته الوردية وتعبير فمه الكبير اللين ودي الطابع: بكلمة واحدة كان جميلاً، ولربما تمتعت بالنظر إليه لولا أنه بحث عن الطبيب الذي أشار نحوي فوراً، فانتزعني من مكاني ولفني فوراً ببطانية كان يحملها معه ورفعني إلى كتفه في حركة يبدو أنها معتادة هنا. لم يكن جهده هذا دون عوائق تماماً، إذ أنني تمسكت بكلتا يدي بالعارضة الحديدية الفاصلة بين الصندوقين الخشبيين والتي كانت بمتناولي - بدون تعيين، بشكل غريزي إن صح القول. خجلت من الأمر قليلاً: رأيت عندها كم تضلل حتى بضعة أيام من الحياة عقلنا وكم تعقّدت أمورنا. لكن ثبت أنه الأقوى، وعبثاً رفست، ضربت بقبضتي ظهره وخاصرته، فقد ضحك كما شعرت من اهتزاز كتفه؛ عندها أسلمت، واستسلمت، ليأخذني حيث يريد.

توجد أماكن غريبة في بوخنفالد. خلف سياج من الأسلاك الشائكة تصل إلى واحدة من الثكنات الخضر الجميلة التي نظرت إليها بإعجاب عن بعد حتى الآن - لو كنت مواطناً من مواطني المعسكر الصغير. الآن ستعرف أن فيها - على الأقل في هذه - ممراً يلمع من النظافة بشكل

يثير الشك. تنفتح من الممر أبواب - أبواب اعتيادية بيضاء حقيقية - في غرفة دافئة مضاءة خلف إحداها تجد سريراً خالياً جاهزاً وكأنه في انتظارك. على السرير غطاء أحمر. يغرق جسدك في كيس تبن ثخين. فوقه طبقة بيضاء باردة، يمكنك التأكد، لم تخطئ، إنها ملاءة بالفعل. تشعر تحت صدغك بضغط غير معتاد لكنه ليس مزعجاً على الإطلاق: تسببه وسادة محشوة جيداً بالتبن، عليها غطاء أبيض. يطوي الممرض البطانية التي جلبك بها أربع طيات ويضعها عند قدميك: هذا يعني أنها تحت تصرفك كذلك، في حال لم تكن راضياً ربما على درجة حرارة الغرفة. بعدها يجلس على حافة سريرك وبيده ورقة ثخينة وقلم رصاص، ويسأل عن اسمك. قلت له: - .Vier-und-sechzig, neun, ein-und-zwanzig يكتب ذلك، لكنه يستمر في الإلحاح، ويستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تفهم أنه يود معرفة الاسم، "Name" كذلك، ويمر المزيد من الوقت - كما حصل معي - حتى تعثر عليه خلال تنقيبك بين ذكرياتك. جعلني أكرره ثلاث أو أربع مرات إلى أن بدا وقد فهمه. بعدها أراني ما كتب، فقرأت في أعلى الورقة على جزء مخطط: "كفيشتيرد"[٥٧]. سألني "دوبرو يَس"[٥٨]، هل هذا "gut"[٥٩]، وقلت له: - Gut -، بهذا وضع الورقة على منضدة وذهب.

إذن، تنظر حواليك - فلديك متسع من الوقت على ما يبدو -، تتفحص، تتبين قليلاً. يمكنك أن تحدد مثلاً وجود آخرين في الغرفة - إن لم تكن قد انتبهت لذلك حتى الآن. ما عليك سوى أن تنظر إليهم حتى تخمن بسهولة: جميعهم مرضى على ما يبدو. تكتشف أن هذا اللون

وهذا الشعور الذي يداعب عينيك، اللون الأحمر الغامق الذي يسيطر على أشياء معينة كثيرة هو في الواقع لون المادة اللامعة التي طليت بها صفائح الأرضية الخشبية، والأغطية أيضاً اختيرت كلها من ظلال هذا اللون على جميع الأسرة. عددها اثنا عشر تقريباً. كلها فردية، وبطابق واحد عدا هذا هنا الذي أرقد على طابقه الأرضي وإلى يميني حاجز عازل محبوك من صفائح طليت باللون الأبيض، وهذا الذي أمامي وكذلك السريران عند الحاجز المقابل. بوسعك أن تتعجب كيف لا يستغلون المكان، الحيز المريح الفارغ على صف الأسرة بعرض الأمتار، ولا تفهم البذخ حيث ترى هنا وهناك سريراً فارغاً. يمكنك أن تكتشف الشباك الأنيق المقسم إلى مربعات صغيرة من الزجاج الذي يُدخل الضوء، وقد تقع عينك على الختم البني الفاتح الذي يصور نسراً معقوف المنقار الموجود على غطاء وسادتك وستفك رموز الحروف "Waffen SS"[٦٠] فيه بالتأكيد. أما الوجوه فمن العبث أن تحاول تفرسها أملاً في العثور على إشارة أو مظهر، لتتعرف فيها على حدث وصولك - وقد تعتقد أنه مع ذلك حدث جديد - أو اهتمام أو خيبة أو سرور أو غيظ أو أي شعور آخر، وحتى مجرد فضول عابر - وكما استغرق ذلك فترة أطول، كلما كان الصمت أكثر إحراجا وإرباكاً، ويمكنني القول بالتأكيد أكثر غموضاً، ستشعر بأغرب انطباعاتك دون شك إذا ما قدر ورماك الدهر هنا بشكل ما. في الفراغ المربع الذي تحيط به الأسرة تميز منضدة صغيرة مغطاة بالأبيض، وأخرى أكبر عند الحائط المقابل حولها بضعة كراسي بمساند، بجانب الباب مدفأة حديدية مزخرفة تئز بعنفوان وإلى جانبها وعاء حفظ الفحم، أسود لامع.

عندها تبدأ بالتفكير: كيف تفسّر كل هذا إذن، هذه الغرفة، هذا المقلب، بكل الأغطية والأسرة والصمت. يخطر ببالك شيء أو آخر، تحاول التذكر والاستنتاج، تغترف من معرفتك وتختار. ربما - قد تفكر أنت أيضاً مثلي - هذا هو المكان الذي سمعنا عنه في آوشفيتس، حيث يطعمون المرضى بالحليب والزبدة إلى أن يأخذوا منهم أعضاءهم الداخلية - مثلاً - لغرض الدراسة وخدمة العلم. لكن هذا احتمال واحد لا غير، واحد من الكثير من الاحتمالات الأخرى: ثم إني لم أر أثراً للحليب والزبدة لحد الآن. فضلاً عن ذلك خطر ببالي أن وقت الحساء قد حان هناك منذ زمن، أما هنا فلم أشعر بأي إشارة أو صوت أو رائحة تشير إليه بعد. خطرت ببالي فكرة، وربما تكون فكرة مبهمة بعض الشيء - لكن من يقدر على تحديد ما هو ممكن وقابل للتصديق، من يقدر في معسكرٍ للاعتقال على تقليب وتجريب كل هذا الكم الهائل من الأفكار والحيل والألعاب والمزاح والتي يمكن تنفيذها والقيام بها ونقلها من عالم الخيال إلى الحقيقة، حتى لو استجمعت كل علومك. تأملت: جلبوا المرء إلى مثل هذه الغرفة مثلاً. لنقل إنهم وضعوه في سرير عليه أغطية مثل هذا. يضمدونه ويرعونه ويطلبون خاطره - سوى أنهم لا يعطونه طعاماً، لنفترض. إذا ما شئت، ربما يمكن اعتبارها دراسة كيف يموت الشخص جوعاً - فهذا أمر مثير للاهتمام أيضاً، له فائدة سامية المعنى، ربما، ولم لا. كيفما قلّبت هذه الفكرة بدت لي أنها قابلة للحياة وذات فائدة أكثر فأكثر: استناداً إلى ذلك يبدو أنها قد خطرت كذلك ببال شخص أكثر تخصصاً مني كما هو واضح. تفحصت جاري، المريض الراقد إلى يساري

على بعد نحو متر واحد. كان أكبر سناً، أصلع إلى درجة ما، حمل وجهه بعض ملامح وجه قديم، لا بل حتى بعض اللحم هنا وهناك. إلى جانب هذا انتبهت إلى أذنه التي أخذت تشبه بشكل مريب أوراق الزهور الصناعية المشمعة لحد ما، وتعرفت إلى اصفرار أرنبة أنفه وما حول عينيه. اضطجع على ظهره، تحرك الغطاء عليه بخفة إلى الأعلى والأسفل: بدا أنه نائم. على كل حال همست له كتجربة: أتفهمُ المجرية؟ لا شيء، لم يبد عليه أنه يفهم ولا حتى أنه يسمع. استدرت وتهيأت لحبك أفكاري قدماً عندما مس أذني فجأة بعض الهمس لكن بكلمة واضحة: - نعم... - كان هو، دون شك، بيد أنه لم يفتح عيونه، ولم يغير من رقدته. أما أنا فقد سررت بشكل غبي لا أعرف سببه، لدرجة أنني نسيت لبضعة دقائق ما الذي أردت أن أسأله. سألته: - من أين أتيت؟- وهو أجابني، بعد برهة بدت دهراً:- من بودابشت..-. بعد كل هذا استفسرت منه أخيراً:- أيعطون طعاماً هنا؟- بعد انقضاء الوقت اللازم الذي يبدو أنه يحتاجه في كل مرة، أجاب: - لا..- سألته...

لكن في تلك اللحظة بالذات دخل الممرض من جديد، وذهب إليه مباشرة. رفع غطاءه ولفه ببطانيته، وتعجبت للسهولة التي رفع فيها هذا الجسم الذي لا يزال سميناً - لم ألحظ ذلك إلا الآن - إلى كتفه وأخذه إلى الخارج عبر الباب، وقد تدلى طرف الضمادات الملفوفة على بطنه وكأنه يلوح الوداع. في نفس الوقت سمعت دقة قصيرة ثم وشوشة كهربائية. بعدها جاءني صوت: - Friseure zum Bad, Friseure zum Bad -أي "الحلاقون إلى الحمام، الحلاقون إلى الحمام"- كما قال. كان صوتاً

فيه لثغة لكنه لطيف جداً، متملق، يمكنني القول إنه رقيق وغنائي- من هذا النوع الذي تشعر برفعته، وكدت أن أسقط من السرير للوهلة الأولى اثر سماع الصوت. لكنني رأيت أن هذا الحدث سبب للمرضى نفس القدر من الإثارة التي سببها وصولي قبل قليل، فقلت لنفسي إن ذلك من بين الأشياء المعتادة هنا كما هو الواضح. ثم اكتشفت صندوق مكبر الصوت البني فوق الباب إلى اليمين واستنتجت أن الجنود بثوا تعليماتهم من مكان ما عبر هذا الجهاز. بعد فترة وجيزة عاد الممرض من جديد، مرة أخرى إلى السرير الذي بجانبي. طوى الغطاء والملاءة، دس يده عبر شق في كيس القش ورتبه، ثم فرش عليه الملاءة والغطاء، ففهمت: لن ألتقي بالرجل مجدداً بالتأكيد. ولم أستطع منع مخيلتي من التساؤل مجدداً: ألم يؤخذ عقاباً له على إفشائه السر، إذ ربما استمع إليه أحدهم عبر جهاز أو واسطة مشابهة لذلك فوق الباب؟ لكني انتبهت إلى صوت - كان هذه المرة صوت مريض على السرير الثالث بالنسبة لي، في جهة الشباك. كان مريضاً شاباً شديد النحافة، وجهه أبيض، ولديه شعر كثيف أشقر مجعد. كرر نفس الكلمة مرتين أو ثلاث مرات، بالأحرى قالها بأنين ومد حروفها الصحيحة ومطّها، قال اسماً تبينته بصعوبة:- بْيَتْكا!.. بيتكا!..- عندها قال له الممرض بصوت ممدود كذلك، شعرت فيه بعض العاطفة:- تْسو؟[٦١]- فقال بْيَتْكا -لأنني فهمت: هذا هو اسم المرض - كلاماً وذهب إلى سريره. همس في أذنه طويلاً، مثلما اعتادوا شد أزر الناس وحثهم على الصبر والتجلد. خلال ذلك مد يده خلف ظهره ورفعه قليلاً، وعدل من الوسادة تحته ورتب الغطاء فوقه، وفعل كل

ذلك عن طيب خاطر وبامتنان ومحبة - بعبارة أخرى: بطريقة لخبطت وكذبت كل افتراضاتي السابقة تقريباً. لم أر في هذا التعبير الذي انعكس في الوجه المستلقي سوى الانفراج وبعض الراحة، وسمعت كلماته الذاوية كالحسرات، المسموعة رغم ذلك:- جِنكُويَه.. جِنْكُويَه بارْدْزو...- [٦٢]، والتي فهمت منها كلمات الشكر إن لم أكن مخطئاً. أخيراً قلبت حساباتي الرصينة رأساً على عقب وإلى غير رجعة هذه الأصوات المقتربة التي تحولت إلى ضجة ثم قعقعة لا تخطئها الأذن تسربت من الممر وهيجت كل دواخلي وملأتني بتوقعات تزايدت وأصبح من الصعب السيطرة عليها وأنستني كل الفوارق بين ذاتي وتحفزي هذا. في الخارج جلبة، ذهاب وإياب، طقطقة أحذية خشبية، ثم صراخ غليظ بصبر نافِذْ:- زال زكس! أسنهولا!- أي: - Saal sechs! Essenholen! -، ما معناه:- الصالة ستة! إلى الطعام!- خرج الممرض ثم عاد وجلب قدراً ثقيلاً بمساعدة شخص آخر لم أر منه سوى ذراعه من خلال الباب المفتوح، سرعان ما غرقت الغرفة برائحة الحساء - مع أنه كان حساء الخضار المجففة لا غير: بذلك أكون قد أخطأت في هذا أيضاً.

واصلت المراقبة بمرور الساعات والأيام فيما بعد، وفهمت تدريجياً الكثير من الأمور الأخرى. على أية حال، اضطررت للاقتناع والقبول بالحقائق الراسخة وإن بالتدريج وبتردد وحذر، بأن هذا الحال ممكن أيضاً - كما يبدو-، قابل للتصديق، سوى أنه غير اعتيادي لا غير، وبالطبع أكثر لطافة، ولأنه في جوهره ليس أغرب من باقي الغرائب المحتملة القابلة للتصديق في معسكرٍ للاعتقال، فهو محتمل الوقوع تماماً مثل

نقيضه. لكن، ومن جانب آخر، هذا كان بالذات ما أزعجني وأقلقني وقوض شعوري بالأمان لدرجة ما: لم يجد عقلي سبباً مفهوماً ومعروفاً ومقبولاً لوجودي هنا بالذات بدلاً من أي مكان آخر مهما فكرت بعمق. اكتشفت تدريجياً وجود ضمادات على جميع المرضى هنا، ليس مثل الصالة السابقة، وبعد بمرور الوقت جازفت بالافتراض أن تلك ربما كانت شعبة الباطنية، أما هذه، فمن يعلم، قد تكون شعبة الجراحة؛ لكن ذلك لم أعتبره بأي حالٍ من الأحوال سبباً كافياً وتفسيراً مقنعاً لهذه السلسلة الحقيقية من الجهد والإقدام والأيادي والأكتاف والأفكار التي أوصلتني من العربة اليدوية حتى هنا إلى هذه الغرفة، إلى هذا السرير. حاولت تفحص المرضى كذلك، والاستدلال بينهم. انتبهت إلى أنهم على الأغلب من السكان القدماء. لم أر بينهم أثراً للوجهاء، مع أنني لا أستطيع مقارنتهم بأولئك في تسايتس. ورأيت كذلك بمرور الوقت أن على صدور جميع الذين يزورونهم للحظة أو لكلمة في نفس الساعة من المساء مثلثاً أحمر، وأن أحداً منهم لم يحمل مثلاً مثلثاً أخضر أو أسود - الذي لم أفتقده البتة -، لكن ولا حتى مثلثاً أصفر - وهذا افتقدته عيناي بالمقابل. بعبارة أخرى كانوا يختلفون، من ناحية الدم واللغة والعمر وعدا ذلك كانوا مختلفين عني بشكل من الأشكال وعن كل الذين فهمتهم دوماً بسهولة لحد الآن، وهذا ما أزعجني قليلاً. من جانب آخر تعين علي الشعور بذلك - قد يكون التفسير يكمن في هذا بالضبط. خذ بِيَتْكا مثلاً: ننام في كل مساء على وداعه لنا "دوبرا نوس" ونصحو في الصباح على كلمته "دوبره رانو". ترتيب الغرفة الذي لا غبار عليه

ومسح الأرضية بعصا على طرفها قطعة قماش والحصول على الفحم اليومي والتدفئة ذاتها وتوزيع الحصص وغسل الأواني والملاعق ونقل المرضى عند الحاجة وأشياء أخرى لا أحد يعلم ما هي: كل ذلك كان من صنع يدي بْيَتْكا. لا يتحدث كثيراً لكن ابتسامته وإقدامه لا يتغيران، وباختصار: يتصرف كشخص يقوم على خدمة المرضى لا أكثر، شيء من قبيل ممرض، Pfleger، مثلما يشير إلى ذلك شريط ذراعه فعلاً وكأنه لا يحمل مرتبة مهمة، ففي نهاية المطاف هو الشخص الأول في الغرفة. أو خذ الطبيب - فقد توضح أن الرجل ذا الوجه الفج هو الطبيب، لا بل هو رئيس الأطباء. زيارته لنا طقس صباحي يتكرر على الدوام، ثابت على الدوام. تقرع خطوات مألوفة أرضية الممر في اللحظة التي تجهز الغرفة، وفي اللحظة التي نحتسي القهوة وتختفي بعدها الأواني خلف البطانية المعلقة بمثابة ستارة حيث اعتاد بْيَتْكا الاحتفاظ بها. في اللحظة التالية تفتح يد قوية الباب على وسعها، تتبع ذلك تحية هي "Guten Morgen"[٦٣] على ما يبدو، لأننا لا نسمع منها سوى صوت ممدود طويلاً عبارة عن "Moo'gn"، يدخل الطبيب. ليس من اللائق أن نرد تحيته - لا أعرف لماذا - وهو لا ينتظر الجواب كما يبدو، إلا إذا كان من بْيَتْكا الذي يستقبله بابتسامته ورأسه الحاسر ووقفته المتسمة بالاحترام، لكن، وقد أتيحت لي فرصة مراقبة ذلك لزمن - ليس بمثل هذا الاحترام المعروف لنا جيداً الذي ندين به تجاه من هم أكثر رتبة وجبروتاً منا، بل بشكل ما كما لو أنه يحترمه فحسب، بمقدار ما يرتئيه هو، وبمحض إرادته. ثم يرفع من على المنضدة الصغيرة البيضاء السجلات الطبية التي هيأها بْيَتْكا هناك بيده،

ويتفحصها بوجه جاد متفكر - كما لو كانت سجلات طبية حقيقية مثلاً في مستشفى حقيقي حيث لا يوجد شيء أهم وأكثر طبيعية من السؤال عن حال المرضى. ثم يتوجه نحو بْيَتْكا، ويعلق دائما بملاحظة أو اثنتين على هذا السجل أو ذاك. -Kewisch... Was? Kewischtjerd!-[٦٤] يقرأ مثلاً، والإجابة على ذلك أو إبداء أي إشارة غير لائق تماماً مثل رد تحيته قبل قليل كما تعلمت سريعاً. - Der kommt heute raus! -[٦٥] التي يقصد بها دوماً أن على المريض المجيء على قدميه إن تمكن أو على أكتاف بْيَتْكا إذا تعذر ذلك إلى غرفة عيادته والتي تقع على بعد نحو عشرة أو خمسة عشر متراً من مدخل ممرنا، حيث توجد مقصاته وسكاكينه وضماداته. (لم يطلب بالمناسبة تفويضي مثل الطبيب في تسايتس، ولم يهتم بمقدار ذرة للصخب الذي فعلته بينما قطع بمقص غريب الشكل فتحتين في لحم خاصرتي - ورأيت من ذلك، ومن كيفية تنظيفه جروحي وحشوها بالشاش ودهنها بمرهم ما وإن بتقتير شديد، رأيت خبرته وعلمه بشكل واضح للعيان لا يقبل الجدل). ملاحظته المحتملة الثانية: Der geht heute nach Hause! -[٦٦] التي تعني أنه يعتبر المريض قد شفي، وأنه يستطيع الذهاب nach Hause، أي إلى البيت، يقصد العودة إلى البلوك الخاص به في المعسكر، إلى عمله، وفرقة عمله بالطبع. في اليوم التالي يحدث كل شيء من جديد، بنسخة مطابقة لنفس النظام والقوانين، يشترك في أدائها بْيَتْكا ونحن المرضى وحتى الأثاث بنفس الدرجة من الجدية، كأننا نقوم بدورٍ ونثبته ونتدرب عليه ونبرره ونعيد تكرار ما لا يتغير يومياً - بعبارة واحدة: كأنه لا يوجد شيء أكثر طبيعية وغير

قابل للتشكيك من أن مهمته كطبيب هي العلاج ومهمتنا كمرضى الشفاء السريع واسترداد عافيتنا ثم العودة إلى البيت إلى أشغالنا وأعمالنا، هذا هدفنا الوحيد غير القابل للتأجيل بالفعل.

فيما بعد علمت عنه شيئاً. فقد حصل أن كان في غرفة العيادة بعض الناس. عندها أنزلني بْيَتْكا عن كتفه وأجلسني على مصطبة جانبية حتى أنتظر إلى أن يناديني الطبيب بمزاج لطيف، مثلاً: Komm, komm, komm, komm! - ٦٧- ويمسكني بحركة ودية لكن غير مريحة من أذني ويجرجرني حتى منضدة العمليات ويرفعني بحركة واحدة ويجلسني عليها. وفي أحيان أخرى أجد نفسي وسط زحام حقيقي شديد، أرى الممرضين يجيئون ويذهبون بالمرضى وبينهم مرضى خارجيون ويعمل في الغرفة أطباء آخرون ومضمدون، فيحدث أن يقدم لي طبيب آخر أوطأ مرتبة العلاج اللازم في أحد الجوانب بتواضع بعيداً عن منضدة العمليات القائمة في الوسط. تعرفت إلى أحدهم، بل يسعني القول تصادقت مع أحدهم، قامته تقرب القصر، أشيب الشعر، أنفه يشبه منقار الطير الجارح، ذو مثلث أحمر دون علامة هو الآخر ويحمل رقماً ليس بالعشرات والمئات، بل راقٍ مع ذلك بالألوف. ذكر لي أن طبيبنا موجود هنا في معسكر الاعتقال منذ اثنتي عشرة سنة - وهو ما أكده بْيَتْكا. قال بصوت خفيض: - Zwölf Jahre im Lager - وهو يهز رأسه للإنجاز النادر شبه المستحيل والغير قابل للتحقيق. سألته: - Und Sie? -٦٨ فتغيرت ملامح وجهه على الفور - O, Ich seit sechs Jahren bloss -، منذ ست سنوات فقط، حسم الأمر بجرة قلم وكأنه لا شيء، أو شيء هين لا

يستحق حتى الذكر. في واقع الأمر هو كان من أمطرني بالأسئلة، أراد أن يعرف كم عمري وكيف وصلت إلى هنا بعيداً عن بيتي، هكذا بدأ تبادل الآراء. سألني: - Hast du was gemacht? – هل فعلت شيئاً، شيئاً سيئاً ربما، وقلت له: أبداً، "nichts"، على الإطلاق. لماذا أنا موجود هنا إذن؟ – استفسر، وقلت له لنفس السبب الذي يوجد فيه الآخرون من جنسي. – لكن لماذا اعتقلوني، "verhaftet"، ألح في السؤال، فحكيت له باختصار قصة ذلك الصباح كيفما استطعت، الحافلة ومكتب الجمارك ثم الجندرمة لاحقاً. - Ohne dass deine Eltern–، أي بدون معرفة أهلي، استفسر، وقلت له "ohne"[٦٩] بالطبع. بدا وقد صعق بشدة، كما لو أنه لم يسمع بمثل هذا من قبل، وفكرت: لسنوات ست انعزل عن العالم بشكل محكم هنا، كما يبدو. نقل هذه المعلومات إلى الطبيب المنشغل إلى جانبه على الفور، وهذا نقلها إلى باقي الأطباء والمضمدين والمرضى مرتبي الهندام. في النتيجة انتبهت إلى الناس ينظرون إلي من كل صوب وهم يهزون رؤوسهم وعلى وجوههم الأسى، مما أحرجني قليلاً لأنهم أخذوا يرثون لحالي. أردت أن أقول لهم: لا يوجد أي سبب لذلك، ففي هذه اللحظة على الأقل... – لكني فضلت ألاّ أفتح فمي، كبحني شيء، لم يطاوعني قلبي على نحوٍ ما، إن لم يخنّي التعبير؛ لأنني انتبهت إلى ارتياحهم لهذا الشعور ، إذ سبب لهم بعض السعادة. ربما لم أخطئ في ذلك، لأنهم استجوبوني فيما بعد مرة أو مرتين، وخرجت بانطباع يقول ببحثهم عن هذا الشعور مباشرة، يصطنعون المناسبة والعذر لسببٍ ما، ولحاجةٍ ما، لإثبات شيءٍ ما، ربما منهجهم، على الأقل هذا ما بدا لي.

بعد ذلك نظر بعضهم إلى البعض كيف جلت ببصري مرعوباً علّهُ يسترق السمع من هو ليس منا، لكني لم أعثر حولي سوى على نفس الجباه المتغضنة الحزينة والعيون المتقلصة والشفاه المشدودة - وكأن شيئاً خطر ببالهم وتم إثبات شيء ما تحت ناظريهم، ففكرت: قد يكون السبب هو سبب تواجدهم هنا.

ثم هناك الزائرون: تفرست في هؤلاء أيضاً، حاولت معرفة وتخمين السبب والدافع الذي جاء بهم إلى هنا. قبل كل شيء لاحظت هنا في المعسكر الكبير في بوخنفالد وجود ساعة من الزمن مثل تلك التي كانت عندنا في تسايتس، ومن الواضح أنها تقع بين عودة فرق العمل والتعداد. غالبية من جاء كان يحمل حرف P، لكني رأيت J و R و T و F و N وحتى No[70] وغيرها: على كل حال يمكنني القول إني رأيت الكثير من الأمور المثيرة وتعلمت الكثير من الأشياء الجديدة، ومن خلالهم تمكنت من إلقاء نظرة أكثر دقة على الظروف والشروط هنا، والتعرف على الحياة الاجتماعية إن صح القول. سكان بوخنفالد القدماء حسنو المنظر تقريباً، وجوههم ممتلئة، حركتهم نشطة وسيرهم كذلك، وعند الكثير منهم موافقة لإطالة الشعر وهم يلبسون بذلة السجناء المخططة أثناء العمل اليومي فقط، كما رأيت ذلك عند بْيَتْكا. إذ قد يتهيأ للذهاب في زيارة بعد توزيع خبز العشاء في المساء (حصة الثلث أو الربع بشكل اعتيادي، مع Zulage الممنوحة بشكل اعتيادي أو غير الممنوحة بشكل اعتيادي)، يجتهد أمامنا نحن المرضى في إخفاء مشاعره لكن المتعة تبدو واضحة على وجهه وحركاته عند اختيار قميص

أو كنزة ومعها بذلة بنية مقلّمة على الموضة لا عيب فيها سوى أن قطعة مربعة من ظهرها قد اقتطعت ورقع محلها جزء من ملابس السجن، أما سروالها فتزينه من الجانبين لمسات فرشاة بدهان زيتي أحمر لا يُمَّحي، وبالطبع هناك المثلث الأحمر والرقم على الصدر والجانب الأيسر من السروال. واجهتني متاعب وإزعاج أكثر، وقد أقول محنة أكبر عندما تهيأ هو لاستقبال ضيف. والسبب هو عيب معين في التصميم: لا أعرف السبب، لكن قابس الكهرباء يقع بجنب سريري. ومهما فعلت حتى أشغل نفسي وأحدق في البياض التام للسقف وغطاء المصباح المعدني وأنغمر في أفكاري، أضطر مع ذلك لمراقبة بْيَتْكا وهو يقرفص قربي أمامه قصعة معدنية وغلاية كهربائية هي ملكه الخاص وأسمع فرقعة المارغرين المنصهر تتطفل على أنفي رائحة قطع البصل المقلية فيه وشرائح البطاطا الموضوعة لاحقاً وفوق ذلك ربما تبعتها النقانق المقطعة، وفي مناسبة أخرى أن أنتبه لصوت الدَقّة المميزة الخاصة والأزيز الفوري المتصاعد الذي سببه شيء داخله أصفر وما حواليه أبيض- لمحته عيني التي انبهرت ردحاً لهول المفاجئة: بيضة. عندما ينتهي القلي ويجهز كل ذلك يدخل الضيف الذي قال بهزة رأس ودية: - دوبري فيتشورا!-[71] لأنه بولوني كذلك، اسمه زْبيشَك الذي سمعته في أوقات أخرى بشكل زْبيشكو لسببٍ نحوي أو ربما للتدليل، وهو الآخر يشغل وظيفة ممرض في مكان قريب كما علمت، في صالة أخرى. يصل وقد تأنق هو كذلك، عليه جزمة وسترة جوخ زرقاء غامقة قصيرة تناسب الرياضة أو الصيد مع أنها مرقعة من الخلف هي الأخرى وبالطبع نجد على صدرها رقم

السجين، تحتها بلوز أسود برقبة طويلة تصل ذقنه. كان طويلاً ضخم البدن لا أعرف إن كان حليق الرأس عن اضطرار أم عن رغبة ذاتية، تعابير وجهه الممتلئ منبسطة وتنم عن مكر وذكاء، وجدته ودوداً لطيفاً على العموم، مع أنني غير مستعد لإبداله ببْيَتْكا مثلاً. ثم يجلس الاثنان عند المنضدة الخلفية الكبيرة لتناول عشائهما وتجاذب أطراف الحديث الذي اشترك فيه بعض المرضى البولونيين في الغرفة أحياناً بكلمة أو ملاحظة خافتة، أو يمزحان، يسندان كوعيهما إلى المنضدة ويجربان قوتهما عبر كفيهما الملتصقين بعضهم ببعض، فيتمكن بْيَتْكا من لي ذراعه عادة وسط سرور كل الغرفة وسروري أنا أيضاً بالطبع، رغم ما يبدو من ضخامة جسده: بعبارة مختصرة فهمت أنهما يتقاسمان السراء والضراء والفرح والحزن وكل شيء، ومن الواضح أنهما يتقاسمان الممتلكات وحصص الغذاء - أي أنهما صديقان كما يطلق على ذلك عادة. علاوة على زْبيشَك جاء آخرون لزيارة بْيَتْكا، وتبادلوا معه كلاماً ما وشيئاً ما في عجالة، ورغم أني لم أر هذا الشيء أبداً، فإن الأمر بقي واضحاً ومفهوماً بالنسبة لي على الدوام. وجاء غيرهم لزيارة مرضى يرقدون هنا، بسرعة وحذر كما لو تسللوا. جلسوا على السرير لدقيقة، ربما وضعوا شيئاً مغلفاً كيفما اتفق بورقٍ على اللحاف، بكل تواضع، بل حتى بتحرج. ثم بعد ذلك استفسروا - رغم أني لم أسمع ما همسوا، وحتى لو سمعت فلن أفهم -: كيف الصحة وكيف تتحسن، كذلك نقلوا الأخبار: أما في الخارج فالأمور تسير على هذا أو ذاك النحو؛ وأبلغوه: فلان أو فلان يبعث بتحياته ويسأل عن الصحة؛ وأكدوا له: سيوصلون

تحيته بالتأكيد؛ ثم يخطر ببالهم: مر الوقت، فيربتون على كتفه أو ظهره وكأنهم يقولون: لا تهتم، سيأتون في أقرب فرصة، وينصرفون بمثل ما أتوا، يتسللون في تعجل، مرتاحي البال على ما يبدو - دون أية نتائج أخرى أو فوائد أو ربحٍ ملموس كما رأيت، لذلك افترضت أنهم أتوا لشيء واحد هو تبادل الكلمات القليلة هذه لا أكثر، من أجل لقاء المريض فحسب. إلى جانب ذلك تشير العجلة بوضوح إلى أنهم يفعلون شيئاً ممنوعاً، وهذا لا يتم دون تسامح بْيَتْكا، ودون توفر شرط الزيارة القصيرة بالطبع. حتى إنني أشك، بل بعد كل هذه الخبرة الطويلة أعلن بكل صراحة أن المجازفة ذاتها، العناد، ويمكنني القول التحدي أيضاً هو جزء من الحدث نفسه- هذا ما فهمته على الأقل من تعبير هذه الوجوه المختفية بالسرعة التي يصعب تفسيرها، التعبير المنشرح لنجاح عصيانٍ ما، كأنما نجحوا بذلك في إحداث تغيير طفيف وصنع شرخٍ بسيط وإيقاع عيب ضئيل في نظام معين، في رتابة الأيام، في الطبيعة نفسها ربما، هذا ما تخيلته. لكن أكثر الناس غرابة كانوا من رأيت عند سرير أحد المرضى الراقدين في الجهة المقابلة، عند القاطع البعيد. جلبه بْيَتْكا في الصباح على كتفه، ونشط كثيراً واعتنى به. رأيت خطورة حالته وسمعت أنه كان روسياً. في المساء ملأ الزائرون نصف الغرفة. رأيت الكثير من حرف R، وغيره من الحروف، والكثير من قبعات الفراء وسراويل غريبة مبطنة بالقطن. رأيت البعض مثلاً برأس حليق من الأعلى وأحد الجوانب، وبشعر في الجانب الآخر، وآخرين بشعر طبيعي مع شريط محلوق يمتد من الجبهة حتى الصدغ، بعرض ماكنة الحلاقة بالضبط. رأيت معاطف

بالرقعة المعتادة، وبجرتي فرشاة متقاطعتين بالدهان الأحمر مثلما نحذف مثلاً شيئاً زائداً من كتابة ما، حرفاً أو رقماً أو شارة. تشع على أقفٍ أخرى من بعيد دائرة حمراء كبيرة في وسطها نقطة حمراء سمينة، مغرية جذابة كأنها لوحة التهديف: يجب أن تهدّفوا هنا عند الحاجة.

وقفوا هناك وداروا وتشاوروا بخفوت، انحنى أحدهم حتى يعدل من وضع وسادته، وحاول الآخر أن يستشف كلماته ونظراته، وفجأة رأيت شيئاً أصفر يتلألأ وظهرت سكين، ثم كوبُ معدني بمساعدة بْيَتْكا سمعت بعدها صوت ارتطام قطرات بمعدن - وإن كنت لم أصدق عيني حتى الآن فالرائحة التي فاحت أثبتت بما لا يقبل الشك أن ما رأيت هو ليمونة، لا نقاش في ذلك. ثم انفرجَ الباب من جديد، وفوجئت بشدة، فقد أسرع الطبيب داخلاً هذه المرة، وهو ما لم يحصل حتى الآن في مثل هذا الوقت. فسحوا له المجال على الفور، فانحنى على المريض يفحصه ويتحسس شيئاً عليه، بعدها غادر مسرعاً بوجه ثقيل صارم قاسٍ، دون أن يوجه أي كلمة لأحد، حتى إنه اجتهد في تحاشي النظرات المسلطة عليه. وفي فترة وجيزة رأيت الزوار وقد وجموا بشكل غريب. توجهوا الواحد بعد الآخر نحو السرير وانحنوا فوقه - بعدها أخذوا يغادرون، فرادى وأزواجاً كما أتوا. هذه المرة بمزاج ثقيل أكثر، بانكسارٍ أكثر، بتعبٍ أكثر، حتى إنني رثيت لحالهم في هذه اللحظة لأنني شعرت بأنهم فقدوا تماماً أملاً حافظوا عليه بعناد؛ أضاعوا ثقة رعوها بسرية شديدة. وبعد مضي بعض الوقت رفع بْيَتْكا الجثة بكل رقة وأخذها إلى مكانٍ ما.

وأخيراً كانت هناك حالة صاحبي. التقيت به في المغاسل - إذ ما

عاد يخطر ببالي أن أغتسل بعد فترة إلا عند الصنابير التي يمكن فتحها وإغلاقها فوق المغسلة في مكان عند نهاية الممر على اليسار، ليس بسبب الشعور بالواجب بل الأدب كما انتبهت لاحقاً؛ فوق ذلك انتبهت إلى اغتياظي لأن المكان لم يدفّأ، والماء بارد ولا توجد منشفة. يوجد هنا هذا الشيء الأحمر النقال الشبيه بصندوق مفتوح، لا أعرف من يعتني بخزانه الداخلي النظيف دوماً، يستبدله وينظفه. في مناسبة كهذه دخل المكان رجل عندما كنت أتهيأ للخروج. كان رجلاً جميلاً، سرح شعره إلى الخلف، لكن شعره الأسود الفاحم المسترسل هطل على جبينه من الجانبين بعناد، وجهه ذو مسحة خضراء كما يحدث مع الناس السود أحياناً، وفي عز شبابه، أنيق المظهر حسبته طبيباً بسبب صدريته البيضاء كالثلج لولا الكتابة على شريط ذراعه التي تنبئنا بأنه مجرد Pfleger، ممرض، بينما يشير حرف T داخل مثلثه الأحمر إلى هويته التشيكية. تراجع قليلاً، وبدا أنه قد فوجئ بل فزع لرؤيتي، تمعن في وجهي، ثم في عنقي وعظم صدري وساقي المشرئبة من قميصي. سألني شيئاً على الفور، فقلت له ما علق بذهني من حوار بالبولونية:- ني رازوميم-[٧٢]. عندها استفسر بالألمانية، من أنا ومن أين أتيت. قلت له Ungar، مجري، من Saal sechs. فقال مستعملاً سبابته لتوضيح ما يريد:- Du: warten hier. Ik: -wek. Ein moment zurück. Verstehen?[٧٣] قلت له بالطبع "verstehen". ذهب وعاد، فأفقت إلى وجود ربع قطعة خبز ومعلب صغير حقيقي مفتوح الغطاء في يدي، مملوء بلحم مفروم مطبوخ وردي اللون. رفعت بصري حتى أشكره، لكني لم أر سوى انغلاق الباب. عندما عدت إلى

الغرفة وحاولت أن أقص على بْيَتْكا وأحدثه كلمتين عن الرجل، علم فوراً أنه ممرض الغرفة رقم سبعة المجاورة. ذكر اسمه كذلك: باووش كما سمعت، لكني أعتقد أنه قال بوهوش على الأرجح. هكذا سمعته كذلك من جاري فيما بعد - لأن المرضى تبدلوا في غرفتنا. وقد وضع بْيَتْكا في السرير الفوقاني أحدهم بعد أن أخذ المريض السابق في مساء اليوم الأول، كان فتى عمره يقارب عمري، ومن نفس عرقي، لكن لسانه بولوني واسمه كوهالسكي أو كوهارسكي مثلما سمعته من بْيَتْكا وزْبيشَك، اللذين وضعا توكيداً شديداً على "هارسكي"؛ في بعض الأحيان مزحوا معه، وربما أزعجوه بمقلب لأنه كثيراً ما كان يغضب، أو على الأقل هذا ما دلل عليه كلامه السريع وصوته المستثير الآخذ في الغلظة وحركته المتزايدة التي أطلقت مطر القش الهاطل على وجهي عبر الشقوق بين الألواح الخشبية لسريره- وسط ابتهاج جميع البولونيين في الغرفة. وحل في سرير المريض المجري بجنبي شخص، فتى آخر، لم أستطع تبيان أمره في البداية. شكّكت أذني التي أصبحت خبيرة في كونه بولونياً رغم تمكنه من التفاهم مع بْيَتْكا. لم يجب على كلامي المجري، لكنه بدا مريباً بشعره الأحمر النابت حديثاً ووجهه الممتلئ الذي نم عن بعض الرخاء والنمش الذي توزع فيه وعينيه الزرقاوين اللتين فحصتنا وتبينتا كل شيء بسرعة. رأيت على رسغه رموزاً زرقاء بينما توضّع بموضع مريح: رأيت أرقام آوشفيتس، بالمليون. لكن عندما انفتح الباب في صباح ما فدخل بوهوش على عادته مرة أو مرتين في الأسبوع ليضع على لحافي هبته المؤلفة الآن أيضاً من الخبز ومعلب اللحم ويستدير

مغادراً على عجل دون أن يترك مجالاً لتقديم الشكر حتى إنه أومأ لبْيَتْكا دون أن يحدثه: تبين فقط أنه يعرف المجرية مع ذلك، لدرجة لا تقل عن معرفتي بها، لأنه استفسر فوراً:- من كان هذا ؟- قلت له المرض من الغرفة المجاورة، باووش، عندها صحح: ربما بوهوش-، لأن هذا كما قال اسم شائع في تشيكوسلوفاكيا، من حيث أتى. استفسرت منه: كيف لم يتحدث المجرية إلى الآن؟ فأجابني لأنه لا يحب المجريين. أعترف، عنده حق، حتى أنا لا أجد أسباباً كثيرة لمثل هذه المحبة على العموم. عندها اقترح أن نتحدث بلغة اليهود، لكني ذكرت له بأنني لا أفهمها، بهذا بقينا مع المجرية رغم ذلك. قال لي اسمه، لويز أو نحو ذلك، لم أفهمه تماماً. حتى إنني علقت:- إذن لايوش-، لكنه احتج بشدة، لأن هذا اسم مجري، أما هو فتشيكي، وتمسك بالفارق: لويز. سألته، من أين يعرف كل هذه اللغات، فحدثني أنه من منطقة Felvi-dék[٧٤] في الأصل، واضطر للفرار هو وعائلته وأقاربه ومعارفه بالجملة من وجه المجريين، أو كما أسماه "الاحتلال المجري"[٧٥]، وبالفعل تذكرت يوماً في الماضي عندما دام رفع الرايات والموسيقى يوماً كاملاً احتفالاً بعودة المنطقة إلى المجر. وصل إلى معسكر الاعتقال من منطقة اسمها "تَرَزين" - كما سمعتها. علق على ذلك:- لا بد أنك تعرفها بصيغة تَرَيزِينْشتات. قلت له لا بهذه ولا بتلك، لا أعرفها، فتعجب كثيراً بطريقة مماثلة لتعجبي عندما لا يعرف أحدهم مكتب الجمارك في تْشَبَل مثلاً. بعدها أوضح لي الأمر:- هذا هو غيتو براغ. ادعى أنه يستطيع الحديث مع السلوفاكيين والبولونيين والاوكرانيين وحتى مع الروس،

علاوة على المجريين والتشيك وكذلك اليهود والألمان. أخيراً تصادقنا تماماً، حكيت له كيف ومتى تعرفت إلى بوهوش، لأن ذلك أثار اهتمامه، كذلك تجاربي وانطباعاتي الأولى وأفكار اليوم الأول عن الغرفة والتي وجدها جديرة بالاهتمام، حتى إنه ترجمها إلى بْيَتْكا الذي ضحك علي كثيراً بسببها؛ وبنفس الشكل رعبي مع المريض المجري، وترجم جواب بْيَتْكا بأن الأمر كان متوقعاً لأيام وتزامنت وفاته مع وصولي بمحض الصدفة: لكنني انزعجت قليلاً لأن كل جملة من جمله بدأت بـ "تين ماتيار"، أي "هذا المجري" وبعدها ترجم يقول كذا وكذا - لكن بْيَتْكا لم ينتبه إلى ذلك لحسن الحظ كما رأيت. انتبهت كذلك إلى أنه بدأ يكثر من مغادرة الغرفة ويبقى في الخارج فترات أطول، لكنني لم أفكر في شيء ولم أخمن أمراً ما إلا عندما عاد ذات يوم إلى الغرفة وبيده معلب وخبز: أشياء حصل عليها من بوهوش كما بدا واضحاً، وقتها فوجئت قليلاً - بدون أي داع بالتأكيد. قال لي: التقى به صدفة هو أيضاً في غرفة المغاسل، تماماً مثلي. استفسر منه مثلما استفسر مني، وحصل معه ما حصل معي تماماً. الفارق الوحيد كان قدرته على الحديث معه، توضح سريعاً أنهما كانا يسكنان في نفس البناية ففرح بوهوش جداً، وهذا شيء طبيعي كما أرى أنا أيضاً. وجدت كل شيء مفهوماً وواضحاً وملموساً - إذا ما فكرت في الأمر بشكل عقلاني -، وكنت على نفس الرأي معه، كما بدا من ملاحظته الأخيرة القصيرة: - لا تغضب علي إن أخذت منك صاحبك-؛ أي أن ما كان حصتي لحد الآن سيكون من حصته بعد الآن، وأنني سأتفرج عليه بينما يبتلع لقماته مثلما كان يتفرج علي هو في

السابق. لكني تعجبت أكثر عندما دخل بوهوش من الباب فجأة بعد أقل من دقيقة متوجهاً نحوي مباشرة. ومنذ ذلك الحين أصبحنا نحن الاثنين هدفا لزياراته. في بعض الأحيان جلب معلباً لكل منا، في أحيان أخرى معلباً واحداً - حسب الإمكان، دون أن ينسى في الحالة الأخيرة أن يشير لنا بيده إشارة الاقتسام الأخوي. استمر في تعجله ولم يضع الوقت في الكلام واستمر وجهه في الانشغال وبدا مهموماً أحياناً، وفي أحيان أخرى مهتاجاً بل حتى غضبان تقريباً كمن تضاعف همه الآن فحمل ثقلاً مضاعفاً على أكتافه، لكن كمن لا يستطيع فعل شيء سوى مواصلة حمل ما أثقل أكتافه ذات يوم - ولم يسعني إلا التفكير في أنه وجد في ذلك سعادة كما يبدو، كان في حاجة إلى ذلك بشكل ما، هذه كانت طريقته؛ لأنني لم أجد سبباً آخر لذلك مهما فكرت وقلبت الأمر، سيما إذا ما أخذنا بعين الاعتبار السعر العالي لهذه البضاعة الغالية وشدة الطلب عليها. عندها فهمت هؤلاء الناس تقريباً. فقد استعملت كل خبرتي ورتبت كل حلقات السلسلة ولم يبق عندي أدنى شك: في نهاية المطاف فهي نفس الوسيلة، وإن كانت بشكل آخر لكنها شيء أعرفه جيداً، العناد - في كل الأحوال رأيت أنه كان منفذاً بشكل دقيق، كان الأكثر كفاءة من بين كل ما عرفت من أنواع العناد حتى الآن، وبالدرجة الأولى الأكثر فائدة بالنسبة لي، وهذا أمر لا ينكر.

أستطيع القول قد يعتاد الإنسان على المعجزات بمرور الزمن. تمكنت بشكل تدريجي من الذهاب إلى غرفة العيادة سيراً على قدمي العاريتين - إذا ما قرر الطبيب ذلك في الصباح بالطبع -، ملتحفاً بطانيتي فوق

قميصي، اكتشفت عندئذ مسحة جديدة بين الروائح الكثيرة المعروفة في الهواء القارس: هي مسحة الربيع المتجلي بالتأكيد، إذا ما أخذت في الحسبان الزمن المنقضي. عند العودة وقع بصري بشكل خاطف على بضعة رجال بملابس المعتقلين في الجانب الثاني من الأسلاك الشائكة وهم يجرون من الثكنة الرمادية المقابلة عربة كبيرة ذات عجلات مطاطية من النوع الذي تسحبه الشاحنات، معبأة بحمولة بانت منها بعض الأطراف الصفر المتجمدة وأجزاء من أجساد متيبسة: سحبت بطانيتي علي بصورة أشد حتى لا أبترد، وتعجلت في المسير إلى غرفتي المدفأة وتنظيف قدمي لدرجة ما تأدُباً والانسلال إلى السرير في عجل والتموضع فيه. وهنا تجاذبت أطراف الحديث مع جاري الذي لم يزل هنا (لأنه ذهب، "nach Hause" بعد مضي بعض الوقت، وحل محله رجل بولوني أكبر سناً)، ونظرت إلى ما يتسنى لي النظر إليه واستمعت إلى ما جاء من أوامر عبر صندوق السماعة، ويمكنني القول إني تمكنت من خلالها وبالطبع بمساعدة بعض القدرة على التخيل من معرفة ومراقبة وتخيل كل ألوان وطعم ورائحة ونشاط المعسكر وكل تفاصيله الدقيقة وأحداثه الصغيرة أو الكبيرة من الفجر الباكر حتى وقت النوم المتأخر، وأحياناً حتى بعد ذلك وأنا راقد في سريري لا ابارحه. سمعت نداءات من بينها "Friseure zum Bad, Friseure zum Bad" عدة مرات يومياً، وبشكل متزايد، والأمر واضح: وصلت شحنة جديدة. تترافق معها على الدوام أوامر "Leichenkommando zum Tor" أي "نقالة الجثث إلى البوابة" وأستنتج عن نوعية وحال الشحنة إذا ما طلبوا تعزيزات. علمت مثلاً أنهم يطلبون من "Effekten"، أي عمال المخازن الإسراع إلى المخازن،

أحيـاناً "im Laufschritt" أي هرولة. أما إذا طلبوا اثنين أو أربعة -Leich namträger[٧٦] لنفـتــرض "mit einem" أو "zwei Tragbetten sofort zum Tor!"[٧٧] - فكن متأكداً من حصول حادثة عمل فردية في مكان ما، أثناء العمل أو الاستجواب أو في القبو أو العلية أو أي مكان آخر. علمت كذلك أن "Kartoffelschäler"، أي فرق مقشري البطاطا لا تعمل في النهار فحسب، بل يوجد "Nachschicht" أي فريق مناوبة ليلية أيضاً، وغير ذلك الكثير. لكن تكررت رسالة غامضة تليت في ساعة معينة من عصر كل يوم "Ela zwo, Ela zwo, aufmarschieren lassen!" - وقد فكرت في ذلك ملياً أول الأمر. لكن تفسيرها يسير، رغم أن فك الشفرة استغرق بعض الوقت إثر سماعي الصمت الاحتفالي المطبق الذي يلي تلاوتها ثم إيعاز "Mützen ab!"، "Mützen auf!" وصرصرةَ الموسيقى الحادة في بعض الأحيان: يقف المعسكر في التعداد، على هذا الأساس تعني "aufmarschieren lassen" الوقوف في الصفوف، "zwo" تعني اثنين، أما "Ela" فمن الواضح تعني .L.Ä، أي Lagerältester، أي يعمل هنا زعيمان للمعسكر- وليس في ذلك أدنى غرابة، إذ أعطوا رقم تسعين ألفاً لأحد المعتقلين في المعسكر منذ زمن كما سمعت. هدأت غرفتنا تدريجياً، ذهب زْبيشَك كذلك في زيارة فقد حان دوره، وطاف بْيَتْكا ليلقي نظرة أخيرة على الغرفة قبل أن يطفأ النور بمصاحبة "دوبرا نوس" المعتادة. عند ذلك أبحث عن الموضع المريح الذي يمنحه فراشي وتسمح به جروحي، وأسحب الغطاء فوق أذني فسرعان ما يغلبني سلطان النوم: لا أستطيع تمني أكثر من هذا في معسكرٍ للاعتقال، لا أستطيع الحصول على أكثر من هذا.

شيئان سببا لي القلق. أحدهما جروحي، لا أحد ينكر، فهي لا تزال موجودة، لا يزال محيطها ملتهباً واللحم طرياً لكن أطرافها بدأت بالالتحام وظهرت عليها قشور بنية هنا وهناك، حتى الطبيب ما عاد يحشوها بالشاش، ونادراً ما يستدعيني للعلاج، وحتى لو استدعاني فإنه كان ينجز عمله بسرعة مقلقة، ويبدو على وجهه الاطمئنان بصورة تثير الشك. ثانيهما حدث مفرح جداً، لا أستطيع نكران ذلك بالمناسبة. مثلاً عندما يقطع بْيَتْكا وزْبيشَك حوارهما فجأة بوجهين يتطلعان إلى الأفق، بينما يرفعان إصبعاً يترجيان منا ومن الباقين الصمت، يصل الدوي مسامعي أنا أيضاً، متقطعاً مثل نباح كلاب بعيدة أحياناً. ويتسرب عبر الحائط الفاصل حيث تقع غرفة بوهوش التي تعج بحيوية كبيرة هذه الأيام صوت النقاش الذي يستمر طويلاً حتى بعد إطفاء النور. غدا صوت صفارات الإنذار المتكرر جزءاً لا يتجزأ من النشاط اليومي، كذلك غدا استيقاظي على صوت المكبرات وهي توزع أوامرها شيئاً طبيعياً: -Krematorium! Ausmachen!-[٧٨]، ثم بعد دقيقة واحدة يتكرر الأمر لكن بعصبية وخشخشة:- أوقفوا العمل في محرقة الجثث فوراً!-، فأفهم من ذلك: لا أحد يرغب في أن يجتذب ضوء النار الطائرات كالزنابير إلى العسل. لا أعرف متى ينام الحلاقون، وسمعت أن القادمين الجدد في الآونة الأخيرة يقفون عرايا أمام الحمامات ليومين أو ثلاثة أيام قبل أن يتمكنوا من الدخول إليها، وكذلك يعمل Leichenkommando[٧٩] على مدار الساعة في تناوب. لم يعد ثمة سرير خالٍ في غرفتنا، وسمعت من فتى مجري احتل سريراً في الجانب المقابل عن إصابته بطلقة بندقية إلى جانب التقرحات والجروح المعتادة للمرة الأولى هنا. أصيب أثناء

مسيرة دامت بضعة أيام أثناء قدومهم من معسكر صغير يقع في مكان ريفي اسمه أوردورف، مشابه لتسايتس كما فهمت من قصته، بينما كانوا يسيرون ليتحاشوا الأعداء، الجيش الأميركي، وفي الحقيقة استهدفوا بإطلاق النار أولئك الذين تعبوا وخرّوا على الأرض حوله، لكنهم أصابوه في ساقه خلال ذلك. وأضاف، من حسن حظه أنها لم تمس العظم، ففكرت على التو: شيء من هذا القبيل لا يحصل معي. لو أصابني طلق في أي مكان من ساقي لما تجنب العظم إطلاقاً، من العبث قول العكس. وتبين كذلك أنه هنا في معسكر الاعتقال منذ الخريف، رقمه واحد وثمانون ألفاً وكذا، - وهو رقم لا يمكن اعتباره رقماً راقياً في غرفتنا. بعبارة واحدة: بدأت أحس بدنو التغييرات والمشاق والتقلبات والمشاكل والعناء من كل حدب وصوب. مثلاً، طاف بْيَتْكا بنا في الغرفة وبيده ورقة ليستفسر من الجميع ومني أيضاً: أيستطيع السير، المشي، "laufen"[٨٠]. قلت له نيه نيه[٨١]، لا أستطيع، ich kann nicht[٨٢]. فيجيب - Tag, tag, du kannst-[٨٣] ويقوم بتسجيل اسمي، بنفس الطريقة مثل كل الباقين في الغرفة بضمنهم كوهارسكي الذي عليه آلاف الجروح المتوازية كالأفواه المفتوحة كما رأيتها ذات مرة في غرفة العيادة على رجليه المتورمتين. وفي أمسية تالية- وقد انتهيت من قضم خبزي للتو - صدح مكبر الصوت: "Alle Juden im Lager" - كل يهود المعسكر - "Sofort" - فوراً - "antreten!"-اصطفاف، لكن بصوت مرعب جعلني أجلس فوراً فوق سريري. فقال بْيَتْكا بوجه يعلوه فضول - تْسو تو روبيش؟[٨٤]-. أشرت إلى الجهاز، لكنه ابتسم فحسب، بطريقته المعتادة، وأشار لي بيديه: إلى الوراء، بهدوء، لم هذا الانفعال؟ إلى أين

تتعجل؟ لكن المكبر صرخ وزعق ووشوش طوال المساء:- Lagerschutz، أي أنه يدعو فريق مفتشي المعسكر المسلحين بالقضبان إلى العمل فوراً، ولعله لم يكن راضياً عنهم بشكل كامل كما يبدو، لأنه سرعان ما دعا زعيم المعسكر وعميل أمن المعسكر: أي أكبر اثنين يمكن تصورهما من بين كل الوجهاء في المعسكر، "aber im Laufschritt!"[٨٥]. في أحيان أخرى امتلأ الصوت بالتساؤل وبازدراء: Lagerältester! Aufmarschieren las- sen! Lagerältester! Wo sind die Juden?! -[٨٦] يلح مكبر الصوت ويأمر ويدعو ويئز ويطقطق، أما بِيَتْكا فيشير بيده غاضباً أو يقول:- كورفا يَغو مات!-[٨٧] عندها أترك الأمر له وأضطجع بطمأنينة، فهو أعرف مني. لكن لم يعد هناك استثناء في اليوم التالي، إذ لم يعجبهم الأمر في الأمسية السابقة، على ما يبدو: Lagerältester! Das ganze Lager: antre- ten!-[٨٨]، ثم نسمع بعد قليل زئير محرك وعواء كلاب وإطلاق رصاص وقعقعة عصي وأقداماً مسرعة ووقع جزمات ثقيلة في إثرها، مما دلل على مقدرة الجنود على أخذ زمام الأمور بأيديهم، وعلى ما ينتج جراء مثل هذا العصيان من ثمار، إلى أن حل الصمت أخيراً. بعد قليل دخل الطبيب فجأة، لأن الزيارة حصلت في الصباح بالصورة الاعتيادية. لكنه لم يعتن الآن بمظهره ولم يكن متأنقاً كعادته في الأوقات الأخرى: تغضن وجهه وعلت صدريته البيضاء بقع صدئة لوثتها، جال في الغرفة بعينيه المحمرتين باحثاً عن سرير خال كما هو واضح.

قال لبِيَتْكا - Wo ist der, der, mit dieser kleinen Wunde hier?! -[٨٩]

وأشار بحركة مترددة إلى فخذه وخاصرته بينما تفرست نظراته المتفحصة الوجوه، توقفت عند وجهي برهة، وأشك كثيراً في أنه لم يعرفني، حوّل

بصره فجأة نحو بْيَتْكا مرة أخرى منتظراً ومستعجلاً ومطالباً إياه وكأنه وضع مسؤولية تقديم الجواب عليه شخصياً. لم أقل شيئاً، لكني تهيأت في داخلي للنهوض وارتداء أسمال المعتقل والخروج إلى معترك الفوضى: بيد أنني رأيت بدهشة كبيرة بْيَتْكا وقد وقف حائراً لا يعرف، ترى من كان يقصد الطبيب، وبعد حيرة قصيرة وكمن انقشعت الغشاوة عن عينيه فجأة وأفاق، أشار إلى الفتى المصاب بالطلقة بحركة من ذراعه مع عبارة "Ach.. Ja"، وهو ما اتفق معه الطبيب فوراً؛ مَثَلُهُ مثل شخص فُهمت مشكلته وجاءه الحل. أصدر أمراً - Der geht sofort nach Hause! -[90]، عندها حصل حدث غريب غير اعتيادي وقد أقول غير لائق لم يسبق حصوله في غرفتنا من قبل، ولم أتمكن من متابعته دون الشعور بالانزعاج وبعض الاحمرار في الوجه. فقد وضع الفتى المصاب يديه بعد نهوضه من الفراش كمن يصلي وتوجه نحو الطبيب الذي تراجع مذهولاً عندما جثا هذا على ركبتيه رامياً نفسه عند قدمي الطبيب ومحتضناً ساقه بكلتا يديه؛ ثم راقبت الحركة الخاطفة لكف الطبيب أولاً ثم الصفعة الهائلة التي هزت خد الفتى، ولم أفهم سوى غضب الطبيب أما كلماته بدقة فلا، ثم أزاح بركبته العائق من أمامه واندفع خارجاً مثاراً بوجه أكثر حمرة من المعتاد. بعد ذلك جيء بفتى آخر إلى السرير الخالي - شكله ليس غريباً لعيني، وعلى قدمه ضمادة متينة وثخينة تشهد بأن أي إصبع من أصابع قدمه لم يعد في محله-، وعندما وصل بْيَتْكا قربي في المرة التالية قلت له بخفوت، بين أشياء أخرى:- جينكويه، بْيَتْكا[91]. لكني تنبهت من سؤاله: -"Was?"-[92] في جوابه على إلحاحي في الشرح: -Aber früher, vorher...- أي "لكن، قبل قليل..."، ومن ذهوله التام

ووجهه الذي عكس الجهل المطبق، ومن هزة رأسه المتعجبة إلى أنني أنا كنت هذه المرة من قام بتصرف غير لائق، وإلى أننا نضطر أحياناً إلى تسوية بعض الأشياء مع أنفسنا كما يبدو. لكن كل شيء سار وفق منهج ومسار العدالة أولاً، على الأقل في نظري، إذ كنت أنا الأقدم في الغرفة، ثم إنه أقوى مني، وبهذا لا يخامرني شك في أن حظه في البقاء كان أكثر من حظي؛ وفي الختام يبدو أنني أقنع راضياً بالحادثة التي يصاب بها آخرون بشكل أسهل من تلك التي أصيب بها أنا: هذا كان الاستنتاج الذي علي أن أستنتج، الخلاصة التي علي أن أستخلص مهما فكرت وقلّبت الأمر أو تجنبت الخوض فيه. لكن بالدرجة الأولى: ماذا يعني مثل هذا الهم عندما يرمون بالرصاص؟ - لأن رصاصة طائشة ثقبت بعد مرور يومين زجاج الشباك واستقرت في الحائط المقابل. وحدث في ذلك اليوم حدث آخر كذلك، إذ تسلل الكثير من الزوار المريبين إلى بْيَتْكا لتبادل بضع كلمات على عجل، وخرج هو أيضاً من الغرفة عدة مرات وأحياناً لفترات طويلة قبل أن يعود في المساء وتحت إبطه مغلف طويل. خلته ملاءة، لا، لأن له مقبضاً، إذن هو علم أبيض لف به شيء في وسطه وبان طرفه، شيء لم أر مثله بيد معتقل أبداً، شيء ساد الغرفة بسببه مرج شديد ولغط، شيء أراه بْيَتْكا لنا للحظة قبل أن يخفيه تحت سريره وهو يبتسم ابتسامة ويضمه إلى صدره ضماً حتى إنني شعرت كأنني امتلكت هدية ثمينة كنت أتمنى الحصول عليها منذ زمن بعيد فوجدتها تحت شجرة عيد الميلاد: قطعة خشب بنية يتصل بها أنبوب فولاذي أزرق اللمعان - وقعت عيني على غدارة قصيرة خطر اسمها ببالي في نفس الوقت فجأة، كما في قصص اللصوص ومحققي الشرطة التي قرأتها في الأيام الخوالي بشغف.

بدت الأيام التالية صعبة كذلك - لكن من يستطيع تذكر كل الأيام وتسجيل كل أحداثها. على كل حال يسعني القول إن المطبخ عمل حسب النظام المتبع وكان الطبيب دقيقاً في موعده. وذات صباح، بعد القهوة بقليل، سمعت خطوات متعجلة في الممر ثم صيحة حادة وكأنها كلمة سر، فأخرج بْيَتْكا المغلف من تحت سريره على عجل ثم اختفى. بعد فترة وجيزة، في التاسعة تقريباً، سمعت مكبر الصوت لكن هذه المرة لم يوجه أوامره للسجناء بل للجنود: Zu allen der SS Angehörigen–[٩٣] ثم كرر مرتين: - Das Lager sofort zu verlassen–، أمرهم بإخلاء المعسكر على الفور. ثم سمعت دوي معركة يقترب ثم يبتعد ويتلاشى درجة فدرجة بعد أن طن في أذني لفترة قبل أن يحل الصمت، صمت فظيع، لأنني عبثاً انتظرت وتسمعت ونظرت، لم أسمع ضجيج الذين يجلبون الحساء وصراخهم اليومي لا في الوقت المحدد لذلك ولا بعده. كانت الساعة تقرب الرابعة عصراً عندما طقطقت السماعة بعد وشوشة ونفخات قصيرة فأبلغنا جميعاً: هذا زعيم المعسكر، زعيم المعسكر يحدثكم. قال وهو يصارع الانفعال الذي خنق صوته، مرة يشهق ومرة يتقطع– wir sind frei! Kameraden!- أي نحن أحرار، عندها فكرت إذن يشارك زعيم المعسكر بْيَتْكا وبوهوش والطبيب وغيرهم في نفس تفكيرهم، وتعاون معهم على ما يبدو، فهو من أعلن الحدث وبهذه الدرجة من الفرح الظاهر. ألقى كلمة قصيرة لطيفة تبعه آخرون بمختلف اللغات: - "Attention, attention!"سمعت مثلاً بالفرنسية؛ "بوزور بوزور" بالتشيكية على ما أظن؛ "نيمانيَه نيمانيَه، روسكي توفاريشي نيمانيَه!"[٩٤]- ثم استحضرت اللغة الصادحة التي تلتها ذكريات جميلة

في ذهني، عندما تكلم بها فريق الحمام حولي عند وصولي: "أوفاغا أوفاغا" عندها تعدل المريض البولوني في جلسته قربي وصرخ بالجميع:- تْشيها بَنجَي! تَرْاس بولسكي كومينيكي!-[٩٥]، عندها تذكرت كيف انفعل ونشط واهتاج طوال اليوم؛ بعدها سمعت وأنا مشدوه:- انتباه، انتباه! هذه لجنة المعسكر المجرية ...- وفكرت: يا للعجب، لم أخمن حتى بوجود شيء من هذا القبيل. لكني عبثاً أصغيت، فلم أسمع منه سوى كلامٍ عن الحرية هو الآخر، مثلما سمعت من الذين سبقوه، ولم يذكر الحساء الذي لم يصلنا بكلمة واحدة أو حتى بإشارة. فرحت كثيراً للحرية أنا أيضاً بالطبع، لكن لا يلومني أحد إذا خطر ببالي أن شيئاً من هذا القبيل ما كان ليحدث بالأمس. أظلم المساء النيساني في الخارج، وعاد بْيَتْكا محمر الوجه ممتلئاً بالحيوية وبألف كلمة غير مفهومة، في لحظة تحدث زعيم المعسكر عبر المذياع مرة أخرى. هذه المرة توجه إلى أعضاء فريق البطاطا السابقين، ورجاهم أن يشغلوا مواقعهم القديمة في المطبخ، وإلى باقي سكان المعسكر البقاء في أماكنهم ساهرين حتى لو إلى ساعة متأخرة، لأنهم بدأوا بطبخ حساء لحم كثيف: عندها فقط ارتميت على وسادتي في ارتياح، عندها فقط ارتخى شيء في داخلي وعندها فقط فكرت أنا أيضاً - ربما للمرة الأولى - في الحرية.

٩

وصلت الوطن في وقت مشابه للوقت الذي غادرته فيه. على كل حال اخضرت الغابات منذ زمن بعيد، وارتفع العشب فوق حفر الجثث المدفونة، وانصهر إسفلت Appelplatz[٩٦] المهملة منذ بداية العصر الجديد والمليئة بمواقد النيران الخامدة وبالأسمال والأوراق والمعلبات الفارغة والزبال تحت قيظ منتصف الصيف، عندما سألوني في بوخنفالد: ألا أرغب في الإقدام على رحلة العودة؟ سيعود الشباب في أغلبهم بقيادة عضو في لجنة المعسكر المجرية متين البنية غليظ النظارات شاب شعره، وهو الذي سيتخذ ما يلزم من إجراءات خلال الرحلة. قال: توافق وجود شاحنة مع استعداد الجنود الأميركيين لأخذنا إلى الشرق لمسافة: وعلينا ما يتبقى من الطريق، شجعنا على مخاطبته باسم "العم ميكلوش". يجب أن نواصل حياتنا - أضاف -، لكن ما كان بوسعنا عمل شيء آخر في الحقيقة، وهذا ما فعلنا. إذا ما أهملنا بعض الغرائب والمنغصات، يمكنني القول إنني غدوت سالماً صحيحاً على العموم. إذا ضغطت على اللحم بقوة في أي نقطة من جسمي بإصبعي مثلاً، يبقى أثره وتقعره هناك طويلاً وكأنني ضغطت على مادة غير مرنة لا حياة فيها، كالجبن أو الشمع. وتعجبت لوجهي كذلك عندما رأيته أول مرة في غرفة مريحة من

غرف مستشفى الأس أس فيها مرآة، لأنني أذكر من الماضي وجهاً آخر. لهذا الذي أراه الآن جبين واطئ بشكل يلفت النظر وقد نما في أعلاه الشعر لبضعة سنتيمات، أسفل الأذنين متسع بشكل غريب وفيه تضخم حديث العهد لا شكل له، وفي باقي الوجه زوائد وأكياس لينة مختلفة مثل تلك التي يجلبها الانغماس في الملذات والمتع الحسية - حسب قراءاتي في زمن من الأزمان على الأقل - والتي تميز كبار السن من غضون وتجاعيد وخطوط، وحفظت عن عينيه اللتين أصبحتا صغيرتين نظرة تختلف، كانت أكثر وداعة ومدعاة للثقة. وكنت أعرج، فقد سحبت ساقي اليمنى وجرجرتها بعض الشيء: لا تهتم، فالهواء عندنا سيصلح حالها على الفور - هكذا قال لي العم ميكلوش. سنبني وطناً جديداً - أعلن ذلك -، وكبداية علمنا بعض الأغاني. نغني منها ونحن نسير مشية عسكرية في طوابير بثلاثة صفوف عندما نعبر مدناً صغيرة سيراً على الأقدام - وقد حدث ذلك أحياناً أثناء قطعنا الطريق -. أحببت جداً تلك التي بدايتها "عند حدود مدريد - نقف في الحراسة" - لكني لا أستطيع القول لأي سبب. وغنيت أغنية ثانية بكل سرور لأسباب أخرى، بالذات من أجل هذا المقطع: "نعمل طوال اليوم / ونكاد نموت من الجوع / لكن يدنا المجبولة بالعمل تحمل السلاح الآن!". وأخرى فيها هذا المقطع: "نحن حرس البروليتاريا الفتي"، الذي نتبعه بصرخة "Rotfront!"[٩٧]، لأني أسمع في ذلك الحين صرير الشبابيك المنغلقة وجلبة الأبواب الموصدة بوضوح، وألمح بين الألمان من هو منسلٌ إلى داخل بوابة أو متخفٍ خلفها.

من ناحية أخرى انطلقت إلى سبيلي بالقليل من المتاع: حقيبة

قماش خام زرقاء غير مريحة لأنها كانت نحيفة جداً لدرجة كبيرة وكذلك طويلة جداً لدرجة كبيرة - حقيبة جنود أميركية. فيها بطانيتان ثخينتان وملابس داخلية للتبديل وبلوزة من مخازن الأس أس المتروكة رمادية اللون مزينة بشريط أخضر عند الرقبة والأرسغ، وبعض مستلزمات الطريق: معلبات وما شابه. كان علي سروال الجيش الأميركي المصنوع من نسيج أخضر، وحذاء مطاطي الأخمص برباط يبدو أنه سيعمر طويلاً، أميركي، لبست فوقه حامية سيقان من جلد جديد معها سيورها ومشداتها الخاصة بها. حصلت على قبعة تبين أنها ثقيلة قليلاً بالنسبة للفصل الذي نحن فيه، زينها حاجب شمس شديد الانحدار وعلى قمتها مربع مائل الأضلاع والقمم، اسمه الهندسي - خطر ببالي من الماضي المدرسي البعيد - مَعين، كانت تزيّن قبلي رأس ضابط بولوني في يوم من الأيام كما شرحوا لي. كان في مقدوري اختيار معطف من الأنواع الجيدة في المخازن، لكنني اخترت واحداً مخططاً من دون رقم أو مثلث مثل المعطف الذي اعتدت عليه وخدمني، لا بل إنني اخترته مباشرة وحتى يمكنني القول تشبثت به: على الأقل لن يحصل سوء فهم - كما فكرت -، ثم إنني وجدته مريحاً بارداً، في الصيف على الأقل. قطعنا الطريق على ظهر الشاحنات والعربات وعلى الأقدام وفي وسائط النقل العامة- كيفما تمكنت الجيوش المختلفة من مساعدتنا. نمنا في عربات مهجورة وعلى مصاطب ومنصات أساتذة في مدارس مهجورة، أو هكذا ببساطة تحت نجوم الليل الصيفي في الحدائق بين البيوت الجميلة على العشب. كذلك ركبنا سفينة في نهر صغير - على الأقل بالنسبة للعين التي لا تزال تتذكر الدانوب - اسمه الألبا كما علمت، ومررنا في مكان

كان مدينة ذات يوم لم يبق منها الآن سوى أكوام من الحجارة وجدران سوداء وحيدة هنا وهناك. أناس هذا المكان عاشوا وسكنوا وناموا عند هذه الجدران والحطام وبقايا الجسور، وحاولت أن أفرح، بالطبع، لكنني لم أستطع ذلك بسببهم، هكذا شعرت. تنقلت على متن ترام أحمر اللون، سافرت في قطار حقيقي جر وراءه عربات حقيقية فيها مقاعد حقيقية لبشر حقيقيين - رغم أني لم أحصل فيها على مكان سوى فوق سقفها. نزلت في مدينة حيث بدأت أسمع الكثير من الكلام المجري أيضاً إلى جانب التشيكية، تجمع حولنا في المحطة الكثير من النساء والرجال ومختلف الناس بينما كنا ننتظر القطار المسائي التالي. استعلموا منا: هل أتينا من معسكرات الاعتقال، وألحوا في السؤال من الكثير منا، وبينهم أنا، هل التقينا بأقاربهم، بفلان أو فلان. قلت لهم لا يوجد للناس أسماء في معسكرات الاعتقال عادة. عندها حاولوا وصف مظهرهم ووجههم ولون شعرهم وصفاتهم المميزة، حاولت أن أفهمهم: عبثاً يحاولون، يتغير مظهر الناس كثيراً في معسكرات الاعتقال على الأغلب. بهذا انصرفوا من حولي تدريجياً، إلا أحدهم لبس قميصاً وسروالاً صيفياً وهو يضع إبهاميه تحت الحزام قرب حمالات السروال على الجانبين بينما طبّل بأصابعه الباقية عليه ولعب بالقماش. كان يود معرفة إن كنت قد رأيت غرف الغاز، وهو أمر جعلني أبتسم. قلت له: - عندها لما كان بعضنا يتحدث مع بعض الآن-. - بالطبع - أجاب، لكن هل وجدت غرف الغاز. فقلت له، كانت هناك غرف للغاز بين أشياء أخرى بالطبع: الأمر يعتمد على المعسكر الذي يدور الحديث عنه - أضفت -، ففي آوشفيتس مثلاً يتوقع المرء وجودها. أما أنا فجئت من بوخنفالد -

علقت على ذلك. - من أين؟ - سألني، وكررت: - من بوخنفالد. هز رأسه قائلاً - إذن من بوخنفالد -، وقلت له: - من هناك. عندها قال بوجه قاسٍ صارم يكاد يكون تعليمياً: - لنرا. إذن تقول حضرتك - لا أعرف السبب لكن مخاطبته الجادة هذه وحتى الاحتفالية هيجت مشاعري كلها - إنك سمعت عن غرف الغاز- وقلت له، بالطبع. - إلى جانب ذلك حضرتك لم تتأكد شخصياً من وجودها بعيونك - استمر بنفس الوجه الصارم وكأنه ينظم الأشياء ويوضح الأمور. اضطررت للاعتراف: لا. عندها علق على ذلك: - هكذا إذن -، وابتعد عني بخطوات قصيرة وبظهر منتصب، ورأيته راضياً كذلك، إن لم أخطئ. سرعان ما نادونا، جاء القطار، ونجحت في الحصول على مكان معقول على السلم الخشبي العريض عند الباب. صحوت في الصباح وكان القطار يسير بمرح. بعد ذلك تنبهت إلى أن أسماء المحطات كانت بالمجرية. صفحة الماء هذه التي بهرت عيني هي الدانوب - أشاروا -، وهذه الأرض حولنا التي توهجت وارتعشت تحت النور الصباحي المبكر هي المجر - قالوا -. بعد بعض الوقت دخل القطار تحت سقف متهرئ في نهايته قاعة خلت شبابيكها من الزجاج: قالوا هذه المحطة الغربية، وقد تعرفت عليها على العموم، إنها هي بالفعل.

سلطت الشمس أشعتها على الرصيف عند البناية في الخارج مباشرة. كانت الحرارة والضجة والغبار والزحام جميعها شديدة. كان الترام أصفر، وعليه الرقم ستة: حتى هذا لم يتغير إذن. كان هناك بعض الباعة كذلك، يعرضون الغريب من الحلويات والصحف والأشياء الأخرى. كان الناس في منتهى الجمال، وبدا أن للجميع أعمالهم ومشاغلهم

المهمة، الجميع تعجلوا وغذوا الخطى وعدوا متدافعين في مختلف الاتجاهات. يجب أن نذهب نحن أيضاً إلى مركز الإعانة كما علمت، حيث يتوجب تسجيل أسمائنا على الفور كي نحصل على بعض المال في المقام الأول وعلى الوثائق - مستلزمات الحياة التي ما عاد بالإمكان الاستغناء عنها. يقع هذا المركز قرب المحطة الثانية: الشرقية، وصعدنا الترام عند زاوية الشارع على الفور. ورغم أني وجدت الشوارع خربة وصفوف البنايات ناقصة وما بقي منها متهالكاً وفي أماكن أخرى ناقصة ومثقبة ودون شبابيك، فقد تعرفت مع ذلك على الطريق وكذلك على الساحة التي نزلنا فيها بعد فترة. وجدنا مركز الإعانة أمام السينما التي لا أزال أذكرها في بناية حكومية كبيرة رمادية قبيحة: غصت باحتها ومدخلها وممراتها بناس جلسوا أو وقفوا أو حاموا أو ضجوا أو ثرثروا أو صمتوا. كثر من كان منهم بملابس رثة تألفت من مخلفات مخازن معسكرات الاعتقال والجيوش، بعضهم بمعاطف مخططة مثلي، لكن رتبوا أنفسهم بشكل طبيعي، عليهم قميص أبيض وربطة عنق وعقدوا أيديهم خلف ظهرهم يتباحثون بوقار مثلما كانوا يفعلون قبل ذهابهم إلى آوشفيتس. تناولت جماعة ظروف المعتقلات وقارنت بينها، جماعة ثانية بحثت في مقدار المساعدة والآفاق، وغيرهم افترضوا وجود عراقيل في سير المعاملات وامتيازات غير قانونية ومحاسن للغير على حسابهم وظلم، لكن الجميع اتفق على شيء واحد: الانتظار، والانتظار طويلاً في كل الأحوال. لكن هذا أضجرني جداً، بهذا وضعت كيسي على ظهري وعدت إلى الباحة ومنها تمشيت إلى الخارج عبر البوابة. رأيت السينما مرة أخرى وخطر ببالي، إن سرت باتجاه اليمين زاوية أو زاويتين

على الأكثر يتقاطع طريقي مع شارع نَفَلَيْتْش - إذا لم تخنّي ذاكرتي.

وجدت البناية بسهولة: ها هي، لم تختلف عن باقي بنايات الشارع الصفراء أو الرمادية المترنحة - كما بدت لي. في مدخل البناية البارد علمت من جدول الأسماء القديم أن الرقم صحيح كذلك، وعلي أن أصعد إلى الطابق الثاني. تسلقت وأنا أمسك بسياج السلم وسط رائحة نتنة حامضة قليلاً، ورأيت من الشباك الممر الخارجي المعلق وتحته الباحة النظيفة الحزينة: في وسطها بعض العشب وبالطبع الشجرة المعتادة بأغصانها الضئيلة المغبرة. في الجانب المقابل خرجت مسرعة سيدة شدت رأسها بمنديل في يدها خرقة تنظيف، ومن جانب آخر وصلت مسامعي موسيقى منبعثة من راديو وصراخ طفل رضيع من مكان ما. عندما فتحت الباب فوجئت بشدة لأني رأيت بعد كل هذا الوقت المنقضي عين باندي تسيتروم الصغيرة المائلة مجدداً أمامي، هذه المرة في وجه امرأة شابة سوداء الشعر متينة الجسد وغير طويلة. ارتدت متراجعة إلى الوراء، ربما لرؤيتها معطفي كما أظن، وحتى لا تصفق الباب بوجهي عاجلتها بالسؤال: - هل باندي تسيتروم في البيت؟ - أجابت:- غير موجود. سألتها هل الآن غير موجود ، في هذه اللحظة، فقالت وقد هزت رأسها بينما أطبقت جفنيها خلال ذلك:- لم يعد -، وعندما فتحت عيونها انتبهت إلى رموشها السفلية وقد تلألأت الآن قليلاً من الدمع. تلوى فمها قليلاً، عندها رأيت من الصواب التهيؤ للمغادرة - لكن سيدة نحيفة كبيرة السن بغطاء رأس وملابس غامقة طلعت فجأة من وسط عتمة غرفة المدخل، وقلت لها أيضاً:- أبحث عن باندي تسيتروم، وقالت هي أيضاً:- غير موجود في البيت. لكن رأيها كان:- تعال في

وقت لاحق. ربما بعد بضعة أيام-، ولاحظت عند ذلك أن المرأة الشابة أدارت وجهها بحركة واهنة غريبة وقائية، ووضعت ظاهر يدها على فمها كما لو كانت تحاول كبح كلمة أو صوت في طريقهما إلى الخروج منه. ثم قلت للسيدة العجوز شارحاً:- كنا سوية في تسايتس-، فسألتني بقسوة وكأنها تحاسبني:- ولم لم تأتوا سوية إلى البيت؟- اضطررت للتبرير: - افترقنا. نقلت إلى مكان آخر. أرادت أن تعرف:- ألا يوجد مجريون آخرون هناك؟-، أجبتها:- بالطبع، كثيرون. عندها قالت للمرأة الشابة بشيء من نشوة الانتصار:- أما ترين؟-، وقالت لي:- قلت دائماً إنهم بدأوا بالمجيء الآن فقط. لكن ابنتي نفذ صبرها، لم تعد تصدق- وكدت أن أقول إنها أكثر تعقلاً، وإنها تعرف باندي تسيتروم بصورة أفضل لكني عدلت عن ذلك، سكت. بعد ذلك دعتني للدخول: لكني أجبتها، يجب أن أذهب إلى البيت أولاً. قالت - أبواك ينتظرانك بالتأكيد-، وأجبتها:- بالطبع. علقت بعد ذلك:- إذن، اذهب بسرعة، دعهما يفرحان-، بهذا ذهبت.

عندما وصلت محطة القطار بدأت أحس بتعب في رجلي، ثم إن حافلة ترام برقم أعرفه منذ زمن من بين أرقام أخرى توقفت أمامي، لذلك صعدت إليها. انكمشت سيدة عجوز نحيفة بياقة غريبة مزركشة قديمة الطراز منزوية جانباً عند المدخل. سرعان ما جاء رجل بقبعة وملابس رسمية وطلب تذكرتي. قلت له: ما عندي. قال: اشتر واحدة. قلت: جئت من بلاد الغربة، لا أملك نقوداً. عندها نظر إلى معطفي، وإلي، ثم إلى السيدة العجوز، بعدها أفهمني أن استعمال واسطة النقل له قوانينه، وأن هذه القوانين لم يضعها هو بل مرؤوسوه. - عليك الترجل إذا لم تحصّل

تذكرة - هذا كان رأيه. قلت له: لكن ساقي تولمني، بهذا انتبهت إلى السيدة العجوز وهي تنظر إلى الخارج بحنق شديد وكأني وجهت اللوم لها، ولا أعرف لماذا. في هذه الأثناء شق رجل ضخم الجثة أسمر أشعث الشعر طريقه عبر باب العربة المفتوح قادماً من بعيد في ضجة كبيرة. كان عليه قميص مفتوح وبذلة فاتحة وتدلت من كتفه علبة سوداء تعلقت بحزام وبيده حافظة أوراق. صرخ، يا له من أمر، وقال: - هات تذكرة!- ودفع بقطعة معدنية نحو قاطع التذاكر، بالأحرى رماها. أردت أن أشكره، لكنه قاطعني وقال وهو يجول ببصره حواليه منفعلاً: - على البعض أن يخجلوا-، لكن قاطع التذاكر أصبح بعيدا في داخل العربة، بينما استمرت السيدة العجوز في النظر إلى الخارج. عندها التفت نحوي بوجه ارتخت تقاطيعه قليلاً. سألني:- جئت من ألمانيا يا ولدي؟- نعم. - من معسكر اعتقال؟- طبيعي. - من أيٍ منها؟ من بوخنفالد. - نعم، سمع عن خبره، يعلم أنه "كان واحداً من أعماق الجحيم النازي"- هكذا قال. - من أين جرجروك؟ - من بودابشت. - كم من الوقت أمضيت هناك؟ - عاماً واحداً بالتمام. - رأيت الكثير يا ولدي، الكثير من الفظاعة - قال، ولم أجبه بشيء. واستمر - لكن، المهم أن ذلك انتهى، ولى، وسألني وهو يشير بوجه منفرج إلى البنايات التي اخترق الترام طريقه عبرها بصخب: ما شعوري وقد عدت إلى الوطن من جديد ورأيت المدينة التي تركت من جديد؟ قلت له: - كراهية. صمت برهة، لكنه سرعان ما علق على ذلك بقوله يتحتم عليه تفهم شعوري هذا للأسف. وهو يعتقد في ذات الوقت أن للكراهية محلها، دورها، "لا بل حتى فوائدها في حالة معينة"، ويفترض أننا متفقون، أضاف إلى كلامه،

ويعرف جيداً من أكره. قلت - الجميع. صمت مجدداً، هذه المرة لفترة أطول، بعد ذلك أعاد الكرة:- أمررت بالكثير من الفظائع؟ وأجبته: إن ذلك يعتمد على ما يعتبره فظائع. قال عندها بوجه بدا عليه الانزعاج - تحتم علي الحرمان والجوع من المحتمل تقبل الضرب، وقلت له: طبيعي. بهذا صاح وقد رأيته يفقد صبره: لماذا تقول "طبيعي" على كل شيء يا ولدي العزيز، ودائماً على شيء هو ليس طبيعياً على الإطلاق؟! قلت له: هذا شيء طبيعي في معسكر الاعتقال. - نعم نعم، هناك نعم، لكن ...- وهنا واجهته عقبة أوقفته وبدأ يتلعثم - لكن ... لكن معسكر الاعتقال ذاته أمر غير طبيعي! - وكأنه عثر أخيراً على الكلمة الملائمة، ولم أجبه بشيء البتة، لأنني بدأت أفهم تدريجياً: لا نتناقش حول بعض الأشياء إطلاقاً مع الغرباء، الجهلة، بشكل ما مع الأطفال. وعلى أية حال، حان وقت الترجل، وأبلغته ذلك - انتبهت إلى نفسي بعدما رأيت الساحة التي لا تزال موجودة في محلها، لكن جرداء أكثر وأقل ترتيباً. لكنه نزل معي، وأشار إلى مصطبة في الظل واقترح: لنجلس هناك دقيقة.

في البدء بدا متردداً. قال، صحيح، "بدأت الفظائع بالتكشف" الآن فقط، وأضاف أن " يقف العالم إزاء الأمر عاجزاً عن الفهم حتى الآن: كيف وبأي طريقة حدث كل هذا؟" لم أقل شيئاً، عندها استدار نحوي تماماً وقال فجأة: - ألا ترغب في أن تحكي تجربتك يا ولدي؟- تعجبت للحظة، وأجبته إنني لا أستطيع أن أقص عليه الكثير من الأشياء المثيرة. عندها ابتسم قليلاً وقال: - ليس علي: على العالم. عندها تعجبت أكثر واستعلمت منه: - لكن عن أي شيء؟ - عن جحيم

المعسكرات - أجابني، فعلقت على ذلك إنني لا أستطيع الحديث عن ذلك أبداً، لأنني لا أعرف الجحيم، ولا أستطيع تخيله. لكنه أعلن بأن هذا مجرد تشبيه: - ألا نستطيع تخيل معسكر الاعتقال كجحيم؟- تساءل. وأنا أجبته بينما رسمت بكعب قدمي عدة دوائر على التراب، يمكن لمن يشاء تخيل ذلك كل حسب طريقته ومزاجه، من ناحيتي أنا أستطيع تخيل معسكر الاعتقال فحسب، لأنني أعرفه لدرجة ما، أما جهنم فلا أعرفها. ألح - لكن لنفترض، مع ذلك؟ وبعد بضع دوائر جديدة على التراب أجبته:- إذن يمكنني تخيله كمكان لا يعاني الإنسان فيه من الضجر؛ لكن يمكن الضجر في معسكر الاعتقال، وحتى في آوشفيتس - في ظل شروط معينة بالطبع. عندها صمت قليلاً، ثم سألني وقد شعرت هذه المرة بأن ذلك كان بالضد من مزاجه:- وكيف تفسر ذلك؟-، بعد قليل من التفكير أجبته:- بمرور الوقت. - وكيف بمرور الوقت؟ - بأن الوقت يساعد. - يساعد..؟ بماذا؟ - بكل شيء- وحاولت أن أشرح له، كم يختلف الأمر عندما نصل مثلاً إلى محطة صغيرة نظيفة لطيفة، قد تكون غير مترفة لكنها مقبولة، حيث يتوضح أمامنا كل شيء ببطء، بالتسلسل، بالتدريج. عندما نعبر مرحلة ونخلفها وراءنا، تأتي التالية فوراً. وبينما يفهم الإنسان كل شيء، فهو لا يتوقف: ينجز مهماته الجديدة، يعيش، يتصرف يتحرك، ينجز مستلزمات كل مرحلة جديدة. لكن عندما لا يتواجد هذا التدرج الزمني وتهطل المعرفة فوراً دفعة واحدة في عين المكان، ربما لا يتحملها عقلنا ولا قلبنا - حاولت أن أوضح له بعض الشيء، عندها دس يده في جيبه وأخرج علبة ممزقة الورق وجه سجائرها المجعدة نحوي، فتفاديتها، ثم بعد

رشفتين طويلتين استند بمرفقيه على ركبتيه وانحنى بجسده إلى الأمام، وقال بصوت مكبوت بلا رنين حتى بدون أن ينظر نحوي:- أفهم. أكملت حديثي: - من جانب آخر، العيب في هذا، الضرر، هو يجب قضاء الوقت. رأيت مثلاً معتقلين قضوا في المعسكر أربعاً، أو ستاً أو حتى اثنتي عشرة سنة، بعبارة أدق، لا يزالون في المعسكر. والآن تعين على هؤلاء الناس قضاء كل هذه السنين الأربع أو الست أو الاثنتي عشرة أي في الحالة الأخيرة اثنتا عشرة في ثلاثمائة وخمسة وستين يوم، أي اثنتا عشرة في ثلاثمائة وخمسةٍ وستين في أربعٍ وعشرين ساعة؛ أي اثنتا عشرة في ثلاثمائة وخمسةٍ وستين في أربعٍ وعشرين ... وكل ذلك بالعكس كل ثانية وكل دقيقة وكل ساعة وكل يوم: أي كان عليهم تمضية كل هذا الوقت. من جانب آخر مرة ثانية فإن هذا بالضبط ما ساعدهم أيضاً، إذ لو هطلت عليهم كل هذه الاثنتي عشرة في ثلاثمائة وخمسةٍ وستين في أربعٍ وعشرين في ستين ومرة أخرى في ستين دفعة واحدة، بضربة واحدة لما تحملوا ذلك بالتأكيد، لا بالجسم ولا بالعقل -. ولما رأيته صامتاً، أضفت إلى ذلك:- هكذا يجب تصوره تقريباً-. كان يجلس مثلما كان قبل قليل، سوى أنه رمى سيجارته وأسند وجهه إلى كلتا راحتيه، وربما غدا صوته مكبوتاً أكثر:- لا، لا يمكن تخيل ذلك-، من جانبي أعترف بذلك. حتى إنني فكرت: إذن، يبدو أنهم يسمونه جحيماً بدلاً من معسكر اعتقال لهذا السبب بالتأكيد.

سرعان ما استقام في جلسته، نظر إلى ساعته وتغير وجهه. أبلغني أنه صحفي، وبالتحديد "في صحيفة ديمقراطية" كما أضاف، وعندها فقط أدركت بمن ذكرتني بعض كلماته: بالعم فيلي - مع بعض الفارق أو

حتى المصداقية الموجودة مثلاً بين كلمات الحاخام وخصوصاً أفعاله ودرجة عناده وبين تلك عند العم لايوش إذا ما قارنتها على سبيل المثال. هذه الفكرة ذكرتني فجأة باللقاء القريب وحتى أيقظتني في الواقع، بذلك لم أعد أتابع كلام الصحفي بشكل كامل. قال إنه يرغب في تحويل صدفة لقائنا إلى "صدفة سعيدة". اقترح علي: لنكتب مقالة، لنبدأ "سلسلة مقالات". المقالات يكتبها هو، لكن استناداً إلى كلماتي. بذلك أحصل على بعض المال الذي يفيدني بالتأكيد في بداية "الحياة الجديدة"، رغم أنه – أضاف بابتسامة معتذرة – لا يستطيع دفع الكثير، لأن الصحيفة جديدة "ومصادرها المالية شحيحة حتى الآن". لكن ليس هذا المهم في هذه اللحظة، بل "تضميد الجروح النازفة ومعاقبة المذنبين". لكن قبل كل شيء "يجب تحريك الرأي العام"، وتبديد "الفتور واللامبالاة وحتى الشك". العبارات المبتذلة المكررة لا قيمة لها، فالحاجة تكمن في كشف الأسباب والحقيقة حسب رأيه، مهما كان "الامتحان عسيراً ومؤلماً" ذاك الذي نُقبل عليه. يجد في كلماتي "الكثير من الأصالة"، وتجسيداً للعصر في مجملها وكذلك "الطابع الحزين" – إذا ما فهمتها جيداً – للزمان، وهي "نغمة جديدة، فردية في تيار الحقائق المتعب" – هكذا قال، وطلب رأيي. قلت أريد إنجاز قضيتي الخاصة، لكنه فهمني خطأ، لأنه قال:– لا. لم تعد هذه قضيتك الشخصية بعد الآن. إنها قضيتنا، قضية العالم كله–، قلت له نعم، لكن حان الوقت حتى أعود إلى بيتي؛ عندها طلب "معذرتي". نهضنا، لكنه بدا متردداً، يفكر في شيء. قال أما نستطيع بدء المقالات بصورة عن اللقاء؟ لم أجبه بشيء، عندها علق بنصف ابتسامة "مهنة الصحفي تجبره أحياناً على اقتراف الوقاحات"،

وانه لا يرغب في "الإلحاح" إذا كان الأمر يزعجني. بعدها جلس ووضع دفتر ملاحظات على ركبته ودون شيئاً بسرعة، ثم اقتطع الوريقة ووقف من جديد وقدمها إلي. كان عليها اسمه وعنوان هيئة التحرير، وودعني "على أمل لقاء قريب"، شعرت بعدها بمصافحة راحة يده الساخنة الودية المتعرقة بعض الشيء. وجدت محادثتنا لطيفة ومريحة واعتبرته ودوداً وطيب النية. انتظرته إلى أن ذاب في زحمة المارة، بعد ذلك فقط رميت الوريقة.

بعد بضع خطوات تعرفت على بيتنا. كان قائماً أمامي سالماً، في حالة تامة. استقبلتني في المدخل الرائحة القديمة والمصعد المهلهل المسترخي في نفقه ودرجات السلم العجوز المحكوكة حتى الاصفرار، وفي الأعلى حيث استدارة السلم التي ترتبط بذكرى لحظة معينة حميمة خاصة. ضربت جرس بابنا عند الوصول إلى الطابق. سرعان ما انفتح، لكن بقدر ما سمح به القفل الداخلي، السلسلة القصيرة المشدودة بين الباب وإطارها، ففوجئت قليلاً لأنني لا أذكر لمثل هذه الأداة الغريبة من وجود. أطل من شق الباب وجه غريب كذلك: نظر نحوي وجه أصفر نحيف لامرأة في منتصف العمر تقريباً. سألتني عمن أبحث، وقلت لها: أسكن هنا. أجابتني - لا، نحن نسكن هنا-، وهمت بغلق الباب لكنها لم تستطع لأنني أسندتها بقدمي. حاولت أن أشرح لها: حصل سوء فهم، فأنا ذهبت من هنا، وأنا متأكد بأننا نسكن هنا، أما هي فأكدت لي بهزة رأس ودية مؤدبة لكن بإشفاق: أنا مخطئ، لأنهم يسكنون هنا من دون شك، بينما حاولت إغلاق الباب وأنا أمنعُ ذلك. وفي لحظة ما بعد ذلك، عندما نظرت إلى الأعلى لأتأكد أنني لم أخطئ رقم الشقة، يبدو أنني

أرخيت قدمي قليلاً فتبين أن سعيها كان الأكثر نجاحاً، سمعت بعد إغلاق الباب أنها أدارت مفتاحه مرتين.

أوقفتني في عودتي إلى السلم باب ألفتها. دققت الجرس: سرعان ما ملأت سيدة بدينة ضخمة مجال الرؤية. كادت أن تسد الباب هي الأخرى - بالطريقة المعتادة -؛ لولا التماع نظارة خلف ظهرها، وانقشاع العتمة عن وجه العم فلايشمان الرمادي. إلى جانبه بان كرش ضخم ونعال ورأس أحمر كبير بشعرٍ مفروق كالأطفال وعقب سيجار منطفئ: تكشف شكل شتاينر العجوز رويداً رويداً، على نفس الحال الذي تركتهما فيه آخر مرة، كما لو كان ذلك بالأمس عشية مكتب الجمارك. وقفوا ونظروا ثم صرخوا باسمي، العجوز شتاينر احتضنني كما أنا بقبعتي وعرقي ومعطفي المخطط. أدخلوني معهم إلى الغرفة، وأسرعت العمة شتاينر إلى المطبخ لتدبير "لقمة تؤكل" كما قالت. كان عليَّ أن أجيب عن الأسئلة المعتادة: من أين، بأي طريقة، متى وكيف؟ - ثم استفسرت أنا، وعلمت أن أناساً آخرين يسكنون شقتنا بالتأكيد. سألت: ونحن؟-، وبما أنهم بدأوا الجواب بصعوبة، سألتهم:- أبي؟-، عندها صمتوا نهائياً. بعد مضي وقت قصير ارتفعت يد - أعتقد أنها يد العم شتاينر - إلى الأعلى ببطء، سارت في طريقها ثم حطت على ذراعي مثل الوطواط الحذر العجوز. فهمت من جوهر ما قالاه "للأسف لا نشكك في صحة الخبر المحزن"، لأنه "يستند إلى شهادات رفقائه السابقين"، والتي أشارت إلى "وفاة أبي بعد عذاب قصير" في "معسكر في ألمانيا" لكنه يقع في الحقيقة على الأراضي النمساوية، .. ما هو اسمه .. اللعنة، فقلت: - ماوتهاوزن. - ماوتهاوزن! هللوا لذلك، ثم عبسوا من جديد:-

نعم، هكذا-. سألتهم بعد ذلك، ألا يعرفون شيئاً عن أمي، فقالوا فوراً بالطبع، أخبار طيبة: تعيش وبصحة جيدة، زارت البناية قبل بضعة أشهر، رأوها شخصياً وتحدثوا إليها واستفسرت عني. - وزوجة أبي؟- قلت متسائلاً، فعلمت:- تزوجت من جديد-. تساءلت: - ترى تزوجت من؟-، وتلعثموا عند الاسم مرة ثانية. قال أحدهما:- اسمه كوفاتش على ما أظن-، أما الآخر: - لا ليس كوفاتش، بالأحرى فُتو -. قلت لهم: - شُتُو-، هزوا رأسهم فرحين هذه المرة أيضاً:- صحيح، بالطبع، شُتُو-، كما قبل قليل. تدين له بالكثير، "في الواقع بكل شيء"، قالا بعد ذلك: هو الذي "أنقذ الثروة"، هو الذي "أخفاها في الأيام العصيبة"- حسب تعبيرهم. فكر العم فلايشمان وقال: - ربما تعجلت قليلاً في الأمر- واتفق العجوز شتاينر مع ذلك. -غير أن ذلك مفهوم- أضاف، واعترف بذلك العجوز الآخر هذه المرة.

بعد ذلك جلست عندهم لبعض الوقت، لأنني لم أجلس هكذا منذ مدة طويلة، على مقعد وثير مكسو بالمخمل الأرجواني. خلال ذلك جاءت العمة فلايشمان وبيدها صحن من الخزف الأبيض مطرز الحاشية عليه خبز مطلي بسمنة وعليه بعض قطع الفلفل وحلقات رقيقة من البصل، لأنها تذكرت أنني كنت أحبه كثيراً في السابق، وهو ما أثبته على الفور للوقت الحاضر كذلك. خلال ذلك قال العجوزان: "لم يكن الأمر سهلاً هنا أيضاً". حصلت من قصتهما على صورة وخطوط عامة مبهمة لحدث متشابك وغامض وعصي على الفهم، لم أتمكن من تصوره واستيعابه بعموميته. انتبهت إلى تكرار كلمة واحدة لكن بطريقة غدت مملة ومتعبة، وصفوا بها كل مرحلة جديدة أو تغيير أو حالة: مثلاً "جاء"

البيت ذو النجمة، "جاء" الخامس عشر من تشرين الأول، "جاء" الفاشيون المجريون ، "جاء" الغيتو، "جاء" شاطئ الدانوب، "جاء" التحرير[٩٨]. تكرر الخطأ المعتاد من جديد: كأن كل هذا الحدث الضبابي الذي لا يمكن تخيله في الواقع بكل تفاصيله وقد غدا حدثاً لا يمكن إعادة تركيبه بشكل كامل بالنسبة لهم أيضاً لم يجر في المجرى الطبيعي للدقائق والساعات والأيام والأسابيع والأشهر، بل حصل فجأة بدوامة واحدة، كما لو حدث في لقاء مسائي تحول إلى عربدة دون سابق إنذار، حيث يفقد المشاركون فيه عقلهم فجأة ولا يعرفون ما يصنعون. في نقطة معينة أمسكا عن الحديث، وبعد قليل من الصمت وجه العجوز فلايشمان هذا السؤال لي:- ما هي خططك فيما يتعلق بالمستقبل؟- فوجئت بعض الشيء، وقلت له: لم أفكر في هذا حتى الآن. عندها تحرك العجوز الآخر ومال نحوي وهو جالس على كرسيه. حلق الوطواط من جديد ليحط على ركبتي بدلاً من ذراعي هذه المرة. قال - قبل كل شيء، يجب أن تنسى البشاعات-. سألته بمزيد من التعجب:- لماذا؟- أجاب:- حتى تتمكن من العيش-، أيده العم فلايشمان بهز الرأس، وأضاف:- العيش بحرية، وهذا ما أيده العجوز الثاني بهز الرأس، وقال مضيفاً:- بمثل هذا الحمل لا نقوى على بداية حياة جديدة-، وفي هذا كان له بعض الحق، أقر بذلك. لكنني لم أفهم تماماً كيف يطلبان مني المستحيل، وذكرت لهما أن ما حدث قد حدث، وأنا لا أستطيع أن أعطي أوامر لذاكرتي. قلت:- لا أستطيع بدء حياة جديدة إلا إذا ولدت من جديد، أو إذا أصابَ عقلي خلل أو مرض أو ما شابه، وآمل ألاّ يكونا يتمنيان لي ذلك. وبالمناسبة، لم ألحظ أنها بشاعات-، عندها رأيتهما يفاجآن بشدة. - كيف نفهم ذلك "لم

الحظ"؟- أرادا معرفة ذلك. عندها سألتهما أنا: وأنتما ماذا فعلتما يا ترى في "الأوقات الصعبة" هذه؟ - في الحقيقة ... عشنا- فكر أحدهما. - حاولنا أن نبقى على قيد الحياة - أكمل الثاني. إذن: خطوتما خطوة أخرى - علقت على ذلك. لم يفهما:- ماذا تعني "خطوتما"؟ - عندها حكيت لهما أيضاً كيف وبأي وسيلة جرى ذلك في آوشفيتس مثلاً. يحمل القطار الواحد نحو ثلاثة آلاف شخص - لا أستطيع القول دوماً لأنني لا أعرف ذلك -، كان هذا في حالتنا. لنأخذ الرجال، عددهم ألف تقريباً. لنحسب ثانية أو ثانيتين عند الفحص الطبي، ثانية واحدة على الأغلب. لنترك الأول والأخير، لا يهم ذلك أبداً. لكن في الوسط، حيث وقفت أنا أيضاً، يجب الانتظار نحو عشر أو عشرين دقيقة قبل أن نصل إلى النقطة التي يتضح فيها: هل يرسلوننا إلى الغاز على الفور أم نحصل على فرصة ثانية؟ وخلال ذلك يتحرك الصف، يتقدم والجميع يخطون خطوة، صغيرة أو كبيرة حسب متطلبات سرعة العمل.

عندها ساد صمت قصير لم يقطعه سوى صوت خافت: أخذت العمة فلايشمان الصحن الفارغ من أمامي ولم أرها تعود. سأل العجوزان: "كيف يأتي هذا هنا وماذا أريد أن أقول بذلك"؟ أجبت لا شيء على الخصوص، لكن لم يكن الأمر على هذا النحو فحسب، بأن "جاء": نحن أيضاً ذهبنا. لا يبدو أي شيء جاهزاً، منتهياً، غير قابل للتغيير، نهائياً، سريعاً جداً، ضبابياً لهذا الحد اللعين وهكذا ببساطة "جاء"، سوى الآن، لاحقاً فحسب، إذا نظرنا إلى الخلف، بالمقلوب. وكذلك لو كنا نعرف مصيرنا مقدماً بالطبع. عندها لا نستطيع حسابه إلا بانقضاء الوقت. مثلاً قبلة غبية هي ضرورة مثلها مثل مكتب الجمارك أو غرف

الغـاز. لكن سـواء نظرنا إلى الأمـام أو إلى الخلف، فـالفـهم خـاطئ في الحالتين – عبّرت عن ذلك. عشرون دقـيقة بحد ذاتها وقت طويل جداً في بعض الأحـيـان. كـل دقـيـقـة ابتـدأت، ودامت، ثم انتـهـت، قـبل أن تبـدأ التـاليـة من جديد. والآن لنفكر ملياً: كل دقـيـقـة من هذه الدقـائق كـانت حبلى بأشيـاء جديدة. لم تأت في الحقيقة بجديد، بالطبع – لكن يجب أن نقر: كـان من المحتمل أن تـأتي بجديد، ففي نهاية المطاف من الممكن أن يكون قد حدث في كل منها شيء آخر غـيـر الذي حدث، في آوشفـيـتس تماماً أو هنا، لنقل عندما ودعنا أبي.

عند الكلمة الأخير استشاط شتاينر غضباً بشكل ما. سألني بوجه نصـفـه غـضـبـان ونصـفـه مـتـشك: – لـكن مـا الذي كـان في وسـعنا أن نفـعل؟– قلت له: – لا شيء، بالطبع؛ أو أي شيء، وهذا بحـد ذاته لا يقل جنوناً عن عـدم قـيـامنا بشيء، مرة أخرى ومن جـديد بالطبع. لكن المهم ليس هذا – حاولت أن استمر في شرحي لهم. – ماذا إذن؟ – سألا وقـد بدءا يفقدان صبرهما، وأجبتهما وأنا أشعر، بدأت أنا أيضاً أشعر بالغضب:– الخطوات. الجميع خطا ما دام كان في مقدوره الخطو: قمت أنا أيضاً بخطواتي الخاصة، وليس فقط في الطابور في بيركناو، بل هنا أيضـاً. خطوت مع أبي، وخطوت مع أمي، خطوت مع أنّامـاريا، وخطوت – ولعلها كانت الأصعب بين الكل – مع الأخت الكبرى. بوسعي الآن أن أقول لها ماذا تعني كلمة "يهودي": لا شيء، بالنسبة لي وفي الأصل لا شيء، قبل أن تبدأ الخطوات. لا شيء صحيح، لا يوجد دم آخر ولا يوجد سوى ... هنا علقت، لكن جاءت في ذهني فـجـأة كلمـة الصـحـفي: لا توجد سوى حالات ملموسة والمعطيات الجديدة الكامنة فيها. أنا أيضاً

عشت مصيراً معيناً حتى النهاية. لم يكن مصيري، لكني أنا كنت من عاشه حتى النهاية - ولم أفهم بأي حالٍ من الأحوال كيف لا يستوعب ذلك عقلاهما: يجب أن أفعل بمصيري هذا الآن شيئاً، يجب أن أضعه في مكان ما، ألحقه بشيء، ليس في مقدوري أن أكتفي الآن بأن ذلك كان خطأ، مصادفة، انحرافاً أو نحو ذلك، أو أنه ربما لم يحدث. رأيت، نعم رأيت جيداً أنهما لا يفهمان ما أقول، كلماتي لا تلائم مزاجيهما، فضلاً عن ذلك رأيت أن بعضها أثارتهما بشكل مباشر. رأيت العم شتاينر وقد قاطعني هنا وهناك، وأحياناً كاد أن يستوي على قدميه، في حين رأيت العجوز الآخر يتشبث به، وسمعته يقول له:- اتركه: ألا تراه يريد الحديث فحسب؟ اتركه يتكلم، اتركه-، وأنا تكلمت، ربما عبثاً، وربما دون ترابط قليلاً. مع ذلك أوصلت إليهم ما ابتغيت: لا نستطيع أبداً البدء بحياة جديدة، بل إنما نواصل القديمة دائماً. أنا من خطا الخطوة وليس آخر، ويمكنني الإعلان أنني تصرفت خلال مصيري المعين بكل استقامة حتى نهايته. اللطخة الوحيدة، قد أقول العيب الوحيد، العارض الوحيد الذي يمكن أن يعيرونني به، هو أننا نتكلم هنا - لكني لست مسؤولاً عن ذلك. أترغبون أن يفقد كل هذا الشرف وكل ما قمت به من خطوات سابقة معناه؟ لم هذا التحول المفاجئ، لم هذا التحدي، لماذا لا يريدون أن يفهموا: لو كان هناك مصير، فالحرية غير ممكنة؛ لكن لو - واصلت بحمأة متزايدة وأنا أزداد تعجباً من نفسي- لكن لو كانت هناك حرية، فلا يوجد مصير، أي - توقفت، لكن لالتقط أنفاسي - أي أننا نحن أنفسنا المصير ذاته - فهمت فجأة بوضوح في هذه اللحظة، لم أحس بمثله حتى الآن أبداً. أتأسف قليلاً أنني وجدت نفسي في مواجهتهما

هما، وليس قبالة خصم أكثر ذكاء، لنقل قبالة ندٍ كفء. لكنهما من كان هنا الآن، هما موجودان في كل مكان - على الأقل هكذا بدا في هذه اللحظة-، على أي حال هما من كان هنا عندما ودعنا أبي. هما أيضاً أنجزا خطواتهما. عرفا مقدماً، رأيا مقدماً كل شيء، ودعا أبي وكأننا دفناه، وبعدها اختلفا على كيفية ذهابي إلى آوشفيتس، بالحافلة أم بقطار الضواحي... عند هذه النقطة لم يقفز العم شتاينر وحده، بل العجوز فلايشمان أيضاً. وحاول الآن أيضاً أن يلجمه، لكنه لم يقدر:- ماذا ؟- صرخ بي محتداً بوجه أحمر كالفلفل وهو يدق بقبضته على صدره:- هل تحولنا إلى مذنبين، نحن الضحايا ؟ - حاولت أن أشرح له: هذا ليس جريمة، بل عليه أن يفهم بكل تواضع وبساطة من أجل العقل فحسب، من أجل الاستقامة. يجب أن يفهما، من غير الممكن تجريدي من كل شيء، من غير الممكن ألا أكون لا منتصراً ولا خاسراً، أن لا أكون على حق، وأن لا أكون قد أخطأت، أن لا أكون سبب أي شيء، ولا نتيجته، بكل بساطة - ليحاولا فهم ذلك، توسلت إليهما أو كدت: لا أستطيع أن أبتلع هذه المرارة، بأن أكون بريئاً فحسب. لكني رأيت، لا يرغبان فهم أي شيء، وهكذا التقطت حقيبتي وقبعتي، ومع بضع كلمات وحركات مرتبكة، بعض الإيماءات غير المكتملة، غادرت في منتصف جملة معلقة لم تكتمل.

استقبلني الشارع في الخارج. يجب أن أركب الترام كي أذهب إلى أمي. لكن خطر ببالي: بالطبع، لا أمتلك نقوداً، بهذا قررت الذهاب سيراً على الأقدام. توقفت للحظة في الساحة عند المصطبة السابقة حتى استجمع بعض القوة. هناك، حيث يتعين علي الذهاب، وحيث بدا الشارع

يمتد ويتسع ويضيع في اللانهاية، أصبحت الغيوم بنفسجية والسماء أرجوانية فوق التلال المزرقة. وكأن شيئاً ما تغير حولي أيضاً: هدأ الزحام، تباطأت خطوات الناس، انخفض صوتهم، نظراتهم رقّت وخيل لي أن بعض وجوههم لاذت ببعض. كانت تلك الساعة المميزة المعينة - عرفتها الآن أيضاً، هنا أيضاً -، أحب ساعة عندي في المعسكر، بعد ذلك غمرني شعور حاد ومؤلم وعقيم: الحنين. كل شيء عاد إلى الحياة فجأة، كل شيء كان هنا وانبثق من داخلي، غمرتني المشاعر الغريبة، هزتني الذكريات الصغيرة. نعم، الحياة هناك كانت أنقى وأبسط بمعنى من المعاني. كل شيء مرق ببالي، وأخذت أذكر الجميع بالتوالي، حتى أولئك الذين لم أهتم لهم إلى جانب هؤلاء الذين أدين لهم بوجودي هنا: باندي تسيتروم، بْيَتكا، بوهوش، الطبيب وكل الآخرين. والآن فكرت فيهم مع بعض العتاب لأول مرة، مع بعض اللوم لفرط المحبة. لكن لنترك المبالغة، لأنها العقبة ذاتها: أنا هنا، وأعرف ذلك جيداً، أتقبل كل الحجج مقابل بقائي على قيد الحياة. نعم، كما جلت بنظري حولي في هذه الساحة الوديعة عند الغسق، في هذا الشارع الذي عصفت به الخطوب وامتلأ مع ذلك بألف وعد، شعرت فوراً كيف يتنامى في داخلي العزم وكيف يتجمع: سأواصل حياتي غير القابلة للمواصلة. أمي تنتظرني، وستفرح كثيراً لرؤيتي بالتأكيد، المسكينة. أذكر، كانت تتمنى أن أغدو مهندساً، طبيباً، أو نحو ذلك ذات يوم. هذا ما سيحصل بكل تأكيد، مثلما تأمل: لا يوجد مستحيل لا نستطيع العيش فيه بالطبع، وأعرف أن فخاً في طريقي لا أستطيع تجنبه يترصد بي: السعادة. إذ حتى هناك، بين المداخن، كان في الاستراحات الفاصلة بين العذاب شيء

يشبه السعادة. الجميع يسأل عن الصعوبات، "الفظائع": بينما الذكريات هذه هي ما يبقى محفوراً في الذاكرة. نعم، يجب أن أحدثهم عنها، عن السعادة في معسكرات الاعتقال إذا ما سألوا في المرة القادمة.

إن سألوا. وما لم أنسَ ذلك أنا نفسي.

انتهت

هوامش من المترجم

١ تصغير وتحبب لاسم جورج

٢ في الأصل levente وهم أعضاء منظمة تربي اليافعين بعمر ١٣-٢١ سنة على القيم العسكرية والشوفينية والفاشية ، يحصلون فيها على التدريب العسكري الإلزامي قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية .

٣ Csepel جزيرة كبيرة وسط الدانوب في أطراف بودابشت اشتهرت بأنها منطقة صناعية ، كانت خارج الحدود الإدارية للعاصمة بودابشت في ذلك الوقت .

٤ منقطة قريبة تقع إلى الشمال من بودابشت قرب الدانوب

٥ اسم يعني بحيرة الغابة (بالألمانية) .

٦ هل تتكلم اليدشية ؟ (باليدشية) واليديشية هي لغة يهود شرق ووسط أوروبا ، وهي لهجة ألمانية مطعمة بكلمات عبرية وآرامية وغيرها .

٧ لا (بالألمانية) .

٨ أربع عشرة ، خمس عشرة (بالألمانية)

٩ ست عشرة (باليدشية) .

١٠ لماذا ؟ (بالألمانية)

١١ ستة عشرة . .هل تفهم ؟ ستة عشرة! (باليدشية) .

١٢ كل الأعمال ، لا تعب ، لا مرض (باليدشية) .

١٣ تصغير وتحبب لاسم إلونا ، ويقابل هيلينا .

١٤ عمل . . . ستة عشرة . . (بالألمانية)

١٥ كم عمرك ؟ (بالألمانية)

١٦ هيا ، تحركوا إلى الأمام (بألمانية عامية)

١٧ ماء ليس للشرب (بالألمانية)

١٨ رتبة عسكرية ألمانية قد تعادل رئيس عرفاء

١٩ Lager كلمة ألمانية تعني مخزناً أو مخيماً ، هي مرادفة لكلمة معسكر الاعتقال
٢٠ في الأصل بالألمانية Dörrgemüse ووردت هنا كما تكتب بالحرف المجري ، وتعني خضار مجففة
٢١ من أحياء بودابشت ، وتعني بشت الجديدة
٢٢ تخلي (بالألمانية) بمعنى انصراف
٢٣ "الجميع إلى الخارج" "هيا" "خمسة صفوف" "تحركوا" (باللغة الألمانية)
٢٤ لكن يا رجل ، بحق الرب! لسنا هنا في آوشفيتس! (بالألمانية)
٢٥ أُجرة إضافية ، إكرامية في الأصل (بالألمانية)
٢٦ "من يركب في الظلمة يخترق الليل والريح ؟" مطلع قصيدة فريدريش شيلر الرائعة "ملك الغاب"
٢٧ بلوك أيلتَستَر ، "كبير البلوك" أي قائد ، آمر ، زعيم الوحدة (بالألمانية)
٢٨ "انتباه!" ، "القبعات عن [الرأس] " و"القبعات على [الرأس] " (بالألمانية)
٢٩ البلوك رقم خمسة يقدم تقرير الموجودين . وهو مائتان وخمسون . .(بالألمانية) وردت كلمة Appel بشكل خاطئ ، والصحيح Appell
٣٠ معسكر العمل (بالألمانية)
٣١ مدينة مجرية في سفوح جبال الكاربات ، تقع اليوم في اوكراينا ، اسمها مونكاتشيفو . وفِن هي كلمة يديشية تعني مِن ، مشتقة من الكلمة الألمانية فون von بنفس المعنى . وكلمة فِن تعني باللغة المجرية فنلندي ، ولذلك أسموهم بالفنلنديين تندراً .
٣٢ Satoraljulyhely مدينة في شرقي المجر .
٣٣ هل تعرف اليدشية ؟ (باليدشية)
٣٤ أنت لست يهوديا ، بل من الأغيار (باليدشية)
٣٥ ما بك ؟ ما الأمر ؟ (بالألمانية)
٣٦ إلى العمل! هيا! (بالألمانية)
٣٧ تقرير (بالألمانية)
٣٨ تفقد ، حساب الموجود ، التعداد (في الجيش) (في الأصل Appellبالألمانية)
٣٩ كبير أو زعيم لمعسكر (بالألمانية ، وقد رمز له كرتيس في مكان سابق بحرفي (L?
٤٠ رئيس عمال ، فورمان (بالألمانية)
٤١ التعداد الصباحي والمسائي (بالألمانية)
٤٢ "اثنين في المستوصف" "خمسة في المستوصف" "ثلاثة عشر في المستوصف" (بالألمانية)
٤٣ كل المعسكر : انتباه! (بالألمانية)

٤٤ موافقة للذهاب إلى الحمام (بالألمانية)
٤٥ تلفظ الكلمة بنفس لفظ كلمة Tod الألمانية التي تعني موت .
٤٦ سأريك يا فتحة الشرج ، يا ابن الخراء أيها الكلب اليهودي اللعين (بالألمانية)
٤٧ مقاطعة أردَي (Erdély) التي تسكنها جماعة مجرية مهمة ، هي ترانسلفانيا برومانيا اليوم ، وقد أُلحقت برومانيا بعد الحرب الأولى بعد أن كانت مقاطعة مستقلة نسبياً .
٤٨ التهاب الأنسجة الرابطة المتقيح
٤٩ مختصر Oberarzt ، وتعني رئيس أطباء (بالألمانية)
٥٠ ماذا ؟ أتريد أن تعيش ؟ (بالألمانية)
٥١ لا أفهم أيها السيد (بالفرنسية)
٥٢ نعم ، نعم (بالفرنسية)
٥٣ طيب ، طيب يا ولدي (بالفرنسية)
٥٤ خبز بالمجرية ، وتلفظ كِنْير .
٥٥ من فضلك! انتهيت! من فضلك! (بالألمانية)
٥٦ عندك (بالألمانية)
٥٧ في الأصل Kewischtjerd ، ما يقابل اسمه كُفَش جورج Köves György حسب ترتيب الأسماء بالمجرية ، حيث يسبق اسم العائلة الاسم الشخصي .
٥٨ هل هذا جيد ، سيكون جيد (بالبولونية)
٥٩ جيد (بالألمانية)
٦٠ سلاح الأس أس (بالألمانية)
٦١ ماذا (بالبولونية)
٦٢ شكراً ، شكراً جزيلاً (بالبولونية)
٦٣ صباح الخير ، طاب صباحكم (بالألمانية)
٦٤ كَفيش . . ماذا ؟ كفيشتيَرد! (بالألمانية)
٦٥ هذا يأتي اليوم إلى الخارج! (بالألمانية)
٦٦ هذا يذهب اليوم إلى البيت! (بالألمانية)
٦٧ تعال (بالألمانية)
٦٨ وحضرتك ؟ (بالألمانية)
٦٩ بدون ، بلا (بالألمانية)
٧٠ إلى جانب البولونيين هناك اليوغوسلاف والروس والتشيك والفرنسيون والهولنديون ، وحتى النرويجيون .

٧١ مساء الخير! (بالبولونية)
٧٢ لا أعرف (بالبولونية)
٧٣ أنت : انتظروا هنا . أنا : [أذهب] بعيداً . دقيقة أعود . مفهوم ؟ (بألمانية ضعيفة)
٧٤ وتعني حرفياً الأراضي العليا أو المرتفعة ، وهي المنطقة التي يسكنها المجريون التي تقع اليوم ضمن سلوفاكيا .
٧٥ وحدث سنة ١٩٣٨ عندما اكتسح الجيش المجري مقاطعة أردي (ترانسلفانيا) والمناطق المجرية من سلوفاكيا وألحقوها بالمجر حسب الاتفاقية المعروفة باسم اتفاقية فيينا .
٧٦ نقال الجثث
٧٧ مع سرير نقال واحد أو اثنين إلى البوابة فوراً (بالألمانية)
٧٨ محرقة الجثث ، توقفوا عن العمل (بالألمانية)
٧٩ فريق نقل الموتى
٨٠ الركض (بالألمانية)
٨١ لا ، لا (بالبولونية)
٨٢ لا أستطيع (بالألمانية)
٨٣ وردت بهذه الصيغة بالغلط ، لأن Tag تعني "يوم" باللغة الألمانية ، وأفترض أنها Tak ، وتعني بلى (بالبولونية) ، ومعنى الجملة التي قيلت بلغتين : بلى (بالبولونية) تستطيع . (بالألمانية)
٨٤ ماذا تفعل ؟ (بالبولونية)
٨٥ لكن هرولة ، ركضاً (بالألمانية)
٨٦ زعيم المعسكر! اصطفاف (في الأصل انتشار)! زعيم المعسكر! أين اليهود ؟ (بالألمانية)
٨٧ ابن القحبة (بالبولونية)
٨٨ زعيم المعسكر ، كل المعسكر اصطفاف (بالألمانية)
٨٩ أين هذا ، هذا الذي عنده جروح صغيرة هنا ؟ (بالألمانية)
٩٠ هذا يذهب فوراً إلى البيت! (بالألمانية)
٩١ شكراً ، بِيَتْكا (بالبولونية)
٩٢ ماذا ؟ (بالألمانية)
٩٣ إلى كافة منتسبي الأس أس (بالألمانية)
٩٤ انتباه ، انتباه ، الرفاق الروس انتباه (بالروسية) ، ويكرر كرتيس الكلمتين الأوليتين بمختلف اللغات .
٩٥ هدوء! هذا البلاغ البولوني! (بالبولونية)

٩٦ ساحة التعداد ، الاستعراض (بالألمانية)
٩٧ الجبهة الحمراء (بالألمانية)
٩٨ أحداث متسارعة في تاريخ المجر قبل تحريرها من قبل الجيش السوفيتي ، حصلت في فترة لا تزيد عن بضعة أشهر ، أهمها الاحتلال الألماني النازي وعزل الحاكم ميكلوش هورتي والسيطرة الفاشية المباشرة على مقاليد الأمور عبر الحزب الفاشي الذي قاده سالاشي لحين تحرير بودابشت في الرابع من نيسان ١٩٤٥ .

إمره كرتيس

نوبل ٢٠٠٢

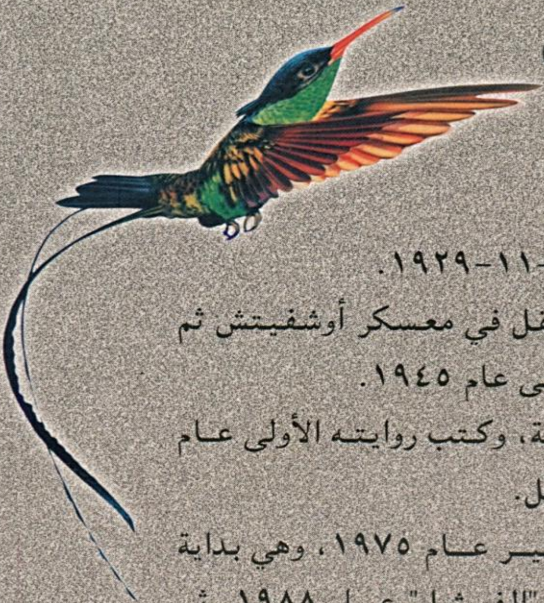

* ولد في بودابست ٩-١١-١٩٢٩.
* في عام ١٩٤٤ اعتقل في معسكر أوشفيتش ثم نقل إلى معتقل بوخنفالد حتى عام ١٩٤٥.
* عمل في الصحافة، وكتب روايته الأولى عام ١٩٧٥ عن تجربته في المعتقل.
* نشر رواية لامصير عام ١٩٧٥، وهي بداية ثلاثيته الروائية، مع "الفشل" عام ١٩٨٨، ثم "قديش..".
* صدرت رواياته الأخرى تباعاً: مقتفي الأثر ١٩٧٧ - الراية الإنكليزية ١٩٩١ - الفشل ١٩٨٨ - المحضر ١٩٩٣ - شخص آخر ١٩٩٧ - لحظة صمت.. ١٩٩٨ - يوميات العبودية ١٩٩٢، وكانت أعماله تترجم إلى الألمانية والفرنسية والإنكليزية، ثم إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية بعد فوزه بجائزة نوبل عام ٢٠٠٢.

ISBN:2-84305-769-X